رسالة الدكتوراه:

الصراع بين الشرق والغرب وسرد الإمبراطورية ومناقشة الجمع بين النقيضين: دراسة مقارنة تحليلية بين "قلب الظلام" لجوزيف كونراد و"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح

إعداد

محمد سليم

تحت إشراف

البروفيسور مجيب الرحمن

مركز الدراسات العربية والإفريقية

كلية دراسة اللغة والأدب والثقافة

جامعة جواهر لال نهرو

نيو دلهي-110067

يوليو 2017

مركز الدراسات العربية و الإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi – 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax: 91-11-2671 7525

Dated: 20 -07-2017

Declaration

I declare that the material in this thesis entitled ***"East West Encounter; Narrating Empire and Debating Ambivalence: An Analytical Comparative Study of Joseph Conrad's Heart of Darkness and Tayeb Salih's Season of Migration to the North"*** submitted by me, is an original research work and has not been previously submitted for any other degree of this or any other university / institution.

Mohd Salim

Mohammad Salim

Name of Scholar

Mujeebur Rahman

Prof. Mujeebur Rahman

Supervisor

CAAS/SLL&CS/JNU

Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

19/7/17

Prof. Rizwanur Rahman

Chairperson

CAAS/SLL&CS/JNU

Chairperson
Centre of Arabic and African Studies
SLL&CS, Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وأصحابه الغر الميامين، وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فمما لا مرية فيه أن الخطاب الروائي الحديث قد تناول قضايا العالم المعاصر، بما فيها قضايا الاستعمار، والاستشراق، والصراع الحضاري بين الشرق والغرب، وقدّمها في صور الحوار والنقاش، وعرضها على ساحة البحث والدراسة، وبحثها طردا وعكسا، مما أدى إلى بروز خطاب فكري وأدبي حديث يتناول هذه القضايا ويبحث فيها من جميع جوانبها وزواياها وأبعادها.

وبما أن عالمنا الحديث والمعاصر مرّ بفترات طويلة ومريرة من تجربة الاستعمار الحديث والغاشم وتداعياته على الشعوب المستعمَرة، وما تلاها من فترات كفاح ونضال طويلة ضدّ الاستعمار والمستعمرين، فإن الأدب السردي الحديث مليئ بنماذج من هذه التجربة المريرة للاستعمار وتجربة الكفاح والنضال لتحرير البلاد من براثن الاستعمار والمستعمرين.

ولقد تناول الأدباء الكبار من العالم العربي والغربي كليهما في العصر الحديث هذه القضايا المهمّة في كتاباتهم الإبداعية والسردية، وقدّموا بواسطتها صورا ورؤى وأفكارا إزاء هذه القضايا التي تدل على مدى تأثرهم بها وتأثيرهم فيها، وتدلّ أيضا على مدى نجاحهم في طرح القضايا الفكرية والأدبية ومعالجة الموضوعات الفلسفية والميتافيزيقية والنفسية.

وبما أن الأديب أو الكاتب –أيا كان بلده وثقافته– هو وليد بيئته، فإن نتاجه الأدبي والإبداعي دائما ما يأتي مليئا بالحديث عن تلك البيئة، وأحداثها ووقائعها، ومفعما بالكلام عن مجتمعه ورجاله، وعن التطورات والمستجدات التي تقع في ذلك المجتمع، وزاخرا بتيارات واتجاهات عالمه الذي ولد ونشأ وترعرع فيه. وإذا ما نظرنا إلى كتابات الأديبين الكبيرين في العصر الحديث – جوزيف كونراد والطيب صالح– من هذا المنظور الأدبي، فإننا وجدناها تصوّر قضايا العالم المعاصر وأحداثه ووقائعه وتطوراته في أصدق تصوير فني وأغناه، وبأروع أسلوب أدبي وأخصبه.

ولقد عاش كلا الكاتبان في زمن شهد فيه عالمنا الحديث زحف الاستعمار الأوروبي إلى البلدان الشرقية، وتغلغله فيها واحتلاله لأراضيها، واستنزافه لمواردها، واستعباده لبلادها وعبادها. وقد صوّر هذان الأديبان هذه الصور الاستعمارية من خلال تمثيلاتهم السردية. أما الروائي جوزيف كونراد، البولندي الأصل، والحامل للجنسية البريطانية، والبحار العامل في البحرية التجارية البريطانية في عهد التصعيد الاستعماري الأوروبي، فإنه بحكم عمله في السفن التجارية البحرية زار المستعمَرات البريطانية المختلفة، وشاهد الاستعمار الأوروبي ومؤسساته وآلياته فيها عن كثب، مما أمدته بمواد خصبة وكثيرة للإفصاح عن معاناة وآلام الشعوب المستعمَرة المضطهدة، وللتعبير عن تجاربه الذاتية وخبراته الشخصية فيها. وأروع مثال على ذلك هو روايته "قلب الظلام" التي نشرها عام 1899م.

وبالمثل نرى الروائي الطيب صالح السوداني الذي جرّب الاستعمار البريطاني في بلده السودان في عهد طفولته وشبابه، ولما كبر وسافر إلى لندن، فإنه رأى بريطانيا العظمى في دارها، وشاهد مظاهر ثقافتها وقوتها، وقرأ وسمع عن التوسعات الاستعمارية الأوروبية في القارتين الأفريقية والآسيوية،

مما أفادته كثيرا في تصوير هذه التجارب والخبرات في كتاباته الإبداعية، ومنها روايته الشهيرة "موسم الهجرة إلى الشمال".

ولقد جاءت كلتا الروايتان "قلب الظلام" و"موسم الهجرة إلى الشمال" لهذين الكاتبين لتسردا أحداث الاستعمار الأوروبي ووقائعه، وتداعياته على الشعوب المستعمَرة في القارة الأفريقية، مما يجعل فكرة القيام بدراسة مقارنة عن هاتين الروايتين، وما أثارتهما من القضايا عن الاستعمار والاستشراق والصراع الثقافي، وما طرحتهما من الأسئلة عن دعوى المهمة التحضيرية للمستعمرين، مهمة وطريفة، مع الاعتراف بالحقيقة بأن كلا العملين إنما يعبّران عن مواقف الكاتبين اللذين كانا على وعي تام واتصال مباشر بعالم "الآخر" في مقابل عالم "الذات".

وقد رصدت كلتا الروايتان كل هذه الأحداث الاستعمارية، والوقائع العدوانية التي تعرضت لها الشعوب المستعمَرة في ظلّ الاستعمار الأوروبي، ومؤسساته وآلياته، بالإضافة إلى تقديمهما للصور النمطية والرؤى الاستشراقية التي تبنّاها المستعمرون والمستشرقون لإضفاء طابع التبرير العقلي والفكري على المبدأ الاستعماري، ولإقامة الأدلة على دعواهم للقيام بالمهمة التحضيرية في مستعمَراتهم. وهذه الدعوى عن المهمة التحضيرية للشعوب لم تكن إلا قناعا تقنع به المستعمرون، ومطية امتطوها للوصول إلى أهدافهم الحقيقية التي كانت تتمثل في فرض هيمنتهم السياسية والثقافية على الشعوب المستعمَرة.

وقد ناقشت كلتا الروايتان كل هذه القضايا مناقشة حادة وصريحة. وللبحث في كل هذه القضايا وغيرها، والقيام بالمقارنة بين هذين العملين الأدبيين الجليلين قمت بإعداد هذه الدراسة

المتواضعة. وقسّمت بحثي على أربعة أبواب، وكل باب يحتوي على عدة فصول، بالإضافة إلى مقدّمة وخاتمة. وفي نهاية البحث قائمة للمحتويات والمراجع والمصادر.

أما الباب الأول المعنون بـ"نبذة مختصرة عن حياة جوزيف كونراد والطيب صالح وأعمالهما"، فهو يتناول الحديث عن حياة هذين الكاتبين ونشأتهما، وأهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيتهما، وقسمته إلى أربعة فصول. ففي الفصل الأول ذكرت حياة جوزيف كونراد وولادته ونشأته وأهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته. وفي الفصل الثاني قمت بتقديم نبذة مختصرة عن أعمال جوزيف كونراد مع ذكر المراحل المختلفة من إنتاجاته الأدبية والإبداعية. والفصل الثالث يتناول الحديث عن ولادة ونشأة ورحلات ودراسة الطيب صالح، أما الفصل الرابع والأخير من هذا الباب فهو يبحث في أهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصية الطيب صالح، كما يتناول هذا الفصل تقديم نبذة مختصرة عن أعماله.

أما الباب الثاني من بحثي هذا المتواضع فهو يبحث في "رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح وسرد الاستعمار البريطاني في السودان". وهذا الباب يحتوي على أربعة فصول. ذكرت في الفصل الأول من هذا الباب تاريخ السودان في العصر الحديث، وفي الفصل الثاني تحدثت عن حملة استرداد السودان من أيدي المهديين والحكم الإنجليزي في السودان حتى الاستقلال. ودرست في الفصل الثالث عن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" وسرد الاستعمار البريطاني في السودان. وتكلمت في الفصل الأخير من هذا الباب عن سرد الرواية عن الاستعمار البريطاني في السودان والغزو الثقافي.

ويتناول الباب الثالث الحديث عن "رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد وسرد الاستعمار البلجيكي في الكونغو"، وهذا الباب يضمّ خمسة فصول. وفي الفصل الأول ذكرت تاريخ بلاد الكونغو في العصر الحديث وزحف الاستعمار الأوروبي إليها. وتحدثت في الفصل الثاني عن التكالب على أفريقيا في القرن التاسع عشر ومؤتمر برلين وقيام دولة الكونغو الحرة. والفصل الثالث يتناول الحديث عن دولة الكونغو الحرة ومظالم المستعمرين في الكونغو حتى الاستقلال. وفي الفصل الرابع ذكرت سرد رواية "قلب الظلام" للاستعمار الأوروبي البلجيكي في الكونغو. وتحدثت في الفصل الأخير عن سرد الرواية للإمبراطورية وفكرة تحضير الشعوب.

أما الباب الرابع والأخير فهو يتحدث عن "دراسة مقارنة بين الروايتين في سرد الاستعمار والإمبراطورية والصراع الحضاري والثقافي ومناقشة الجمع بين النقيضين"، وهو يحتوي على أربعة فصول. يتناول الفصل الأول الحديث عن سرد الاستعمار والإمبراطورية في الروايتين. والفصل الثاني يتحدث عن المقارنة بين الروايتين في دعوى المستعمرين لتحضير الشعوب وقضية الاستشراق والصراع الحضاري. ويتناول الفصل الثالث من هذا الباب الكلام عن قضية التناقض في الروايتين وأقوال النقاد والكتاب حولها. أما الفصل الأخير فهو يتحدث عن الأساليب الكتابية والتقنيات السردية لهذين الكاتبين في روايتهما.

كلمة الشكر والتقدير

لايفوتني في هذا المقام أن أشكر الله عزوجل الذي أظلني بظل منه وكرمه وألهمني التوفيق والسداد لكتابة هذا البحث. ثم أشكر والدي الكريمين اللذين ربياني صغيرا وبذلا جهودهما في سبيل دراستي فيا رب ارحمهما كما ربياني صغيرا .كما أتقدم بخالص الشكر ووافر الامتنان إلى أستاذي الكريم ومشرفي الجليل البروفيسور مجيب الرحمن الذي أشرف على هذا البحث، وأفادني بتوجيهاته القيّمة منذ أن بدأت كتابة هذا البحث حتى انتهى إلى صورته. إنه لم يأل جهدا في تقديم المساعدة ولم يدخر وسعا في تقديم توجيهاته السديدة وإرشاداته القيمة. وأشكر جميع الأساتذة المكرمين لمركز الدراسات العربية والافريقية بجامعة جواهر لعل نهرو الذين كان لهم نصيب ودور ما في تثقيف ذهني وصقل فكري وإرهاف شعوري في مختلف مراحل دراستي بالمركز منذ أن التحقت بهذه الجامعة في مرحلة البكالوريوس، فلهم الشكر الجزيل مني. كما أنني أشكر جميع أصدقائي وإخواني الذين قدموا لي العون والمساعدة في إعداد هذا البحث . وأخيرا وليس آخرا أعود فأشكر مرة أخرى مشرفي الجليل الأستاذ د. مجيب الرحمن وأدعو الله له الخير والبركة ودوام الصحة والعافية.

الباحث

محمد سليم

جامعة جواهر لال نهرو

20/07/2017

الباب الأول

نبذة مختصرة عن حياة جوزيف كونراد والطيب صالح وأعمالهما

الفصل الأول: جوزيف كونراد: مولده ونشأته ورحلاته وأهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته

الفصل الثاني: نبذة مختصرة عن أعماله الأدبية

الفصل الثالث: الطيب صالح: مولده ونشأته، دراسته ورحلاته

الفصل الرابع: أهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته ونبذة عن أعماله

الفصل الأول

جوزيف كونراد: مولده ونشأته ورحلاته وأهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته

جوزيف كونراد هو أحد عمالقة الأدب الإنجليزي الحديث، وأحد الذين تربعوا على عرشه في نهاية القرن التاسع عشر والربع الأوّل من القرن العشرين. هو يعدّ أحد الكتّاب الأوائل الذين وضعوا اللبنات الأساسية لدراسة ومعالجة القضايا الحديثة من الاستعمار وتداعياته، والانهيار الخلقي والمعاناة البشرية في ظل الظروف القاسية الراهنة، ومناقشتها في قالب روائي حديث. يتسم أدبه بالعمق الفكري ومعالجة قضايا الإنسان الحديث وما يعانيه المجتمع البشري من تناقضات ومشاكل وويلات جراء الحروب والصراعات. وهو يصوّر في كتاباته تصويرا دقيقا وصريحا أحداث الظلم والاضطهاد التي تتعرّض لها الشعوب في ظلّ الاستبداد السياسي والاستعمار الأوروبي. وبما أنه تنقل في حياته كثيرا، وزار بلدانا كثيرة كونه بحّارا شهيرا ممّا ساعده على تصوير ما رآه ومكاشفة ما شاهده ومصارحة ما شعر به، لكن حياته كلها لم تكن سهلة ميسرة، إذ نراه قد تجشّم العناء، وكابد الألم، وتجلّد بصبر وصمود أمام حادث اليتم في عهد طفولته، ولأجل الأمراض والمضايقات المالية التي أصيب بها وعاناها في حياته. ومع ذلك كله يبدو بأن هذه الحوادث المؤلمة كلها، وتجارب عمله في البحر صقلت أدبه، وشحذت عزيمته، وأرهفت شعوره، فأتى أدبه غزيرا غنيا، وثريا، ومفعما بالحيوية ومليئا بالحياة. وعن تجاربه في الكتابة والحياة والعلاقة بينهما يقول جوزيف كونراد بنفسه في كتابه "A Personal Record": "يعيش روائي داخل عمله، ويقف هناك، وهو الواقع الوحيد في عالم مخترع، بين الأشياء المصوّرة والأحداث والرجال. وعنده الكتابة عن هذه الأمور تعني الكتابة والتعبير عن ذاته

ونفسه، لكن كشف الصورة عنه لا يكون كاملا. ويبقى هو إلى حد كبير شخصا خلف الستار، شخصا مشتبها فيه، بدلا من أن يكون له حضور واضح، وهو بمثابة حركة وصوت خلف أستار القصّة".[1]

مولده ونشأته:

جوزيف كونراد (جوزف تيودور كونراد كورزيونيسكي) وُلد في أوكرانيا البولندية في الثالث من ديسمبر عام 1857م،[2] من أبوين ينتميان إلى أسرتين أرستقراطيتين في بولندا. "ولد جوزيف كونراد في الثالث من ديسمبر، 1857 في ذلك الجزء من أوكرانيا التي كانت تخضع لبولندا حتى تقسيمها في عام 1793م. والأوكرانييون كانوا يشكلون أكبر أغلبية من السكان في ذلك البلد، ومعظم الأراضي كانت تملكها الطبقة العليا البولندية. ووالدي كونراد كانا ينتميان إلى هذه الطبقة، وبالإضافة إلى ذلك كانت هذه الطبقة أرستقراطية إلى حد كبير"[3].

وكان جوزيف كونراد الطفل الولد الوحيد لأبولو كورزيونيسكي وزوجته بوبروسكا. وعند ولادة جوزيف كونراد، كانت بولندا قد تم تقسيمها بين بروسيا، وروسيا والنمسا، منذ أكثر من ستين عاما. "ووالد كونراد أبولو كورزينوسكي (والاسم مشتق من الكلمة "كورزون" بمعنى الجذور") كان ينتمي إلى طبقة الأشراف مالكي الأراضي في منطقة "كييف" على حدود شرق غربية لأوكرانيا التابعة لبولندا. ولد أبولو في أسرة أشربت حب الوطن في 1820 وتعلم في مدرسة في زينومير. وفي العشرين من عمره دخل جامعة بطرسبرغ، حيث درس فيها اللغات والآداب والفنون الشرقية. وبعد

[1] Bernard C. Meyer, Joseph Conrad: A Psychoanalytical Biography, p. 3.
[2] Joseph Conrad: A Biography, Jeffrey Meyers p.10.
[3] Joseph Conrad, J I M Stewart P. 1.

ست سنوات أمضاها فيها، لم يتعلم خلالها إلا قليلا من اللغة العربية، وأخيرا ترك الجامعة بدون أن يحصل على أية شهادة".[1] أبوه أبولو كان كاتبا مترجما وشاعرا وناشطا سياسيا." أبولو كان لغويا موهوبا، وكان قد درس وتعلم اللغة الروسية وقام بترجمة الأعمال في اللغات الألمانية والفرنسية والإنجليزية إلى اللغة البولندية. ومنظومته الشعرية "قبل العاصفة" والتي كتبها بعد فشل وإخفاق الثورة البولندية عام 1846م، والثورة الأوروبية عام 1848م، وهي عبارة عن كآبته التي غلبت عليه وتتحدث عن حزنه وحنينه إلى وطنه، وقد كتب فيها: " وكم من أيام وأعوام بكيناها، في صوت الأيتام، على قبور أمهاتنا، ويصاحب أنيننا موسيقى الرعد، وكانت الأرض أرضنا إلا أننا لم نكن نملكها، وكنا في بيوتنا ومع ذلك كنا بلا دار. وملك آبائنا التي كانوا يفتخرون بها، الآن أصبح مقبرة وخرابا. وذابت شهرتنا وعظمتنا، في عين الدماء والعبرات، وسلوانا الوحيدة هي غبار وعظام آبائنا."[2]

وكان أبو كونراد أبولو يعمل جاهدا لاستقلال بولندا. وقد لعب دورا كبيرا وبارزا في النشاطات الثورية في مطلع الستينات من القرن الثامن عشر. وبالتالي تمّ اعتقاله لأجل هذه النشاطات، وجرت محاكمته على تهمة العمل ضد الدولة. وفي عام 1862م، أرسل أبوه إلى المنفى في فولكدا، في روسيا، وفيما بعد إلى مكان آخر داخل روسيا وقد اصطحبته في المنفى زوجته وطفله الصغير وعانت الأسرة عناء كثيرا.

"ولأجل الوضع السيء والمتدهور، أصابت والدي كونراد عدوى الربو فماتت أمّه في أبريل 1865م. وبالنسبة لكونراد كان ذلك الوقت وقت العزلة والغربة والكآبة، فقد كان يمضي معظم

[1] Joseph Conrad: A Biography, Jeffrey Meyers p. 5.
[2] Ibid p. 7-8

وقته في صحبة أبيه الوحيد. وكان أبوه في منفاه حتى 1869م، وبعده سمحت له السلطات الروسية بالسفر لكي يقوم بتوفير العلاج الصحيح لابنه. وبعد الخروج من المنفى، إنهما عاشا أياما جميلة معا، ولكن لم تبق السعادة كثيرا في حياتهما، إذ أصبحت الحالة الصحية لأبولو كورزيونيسكي مترديـة، وكان يعاني من عدوى الربو. فمات في مايو من عام 1869م. وهكذا رأينا بأن كونراد أصبح يتيما بلا أب ولا أمّ في مقتبل عمره. وأبوه يعتبر حتى الآن بطلا وطنيا"[1].

وقد كان لتجارب كونراد مع أبيه في الوقت الذي أمضياه معا مؤثرة للغاية في حياته. شغفه والتزامه بالأدب، والاهتمام بالسياسة الثورية، والموقف من روسيا، والرؤية المشككة عن العالم وأحيانا روح المغامرة، كل هذا كان فيه أثر من أبيه. وفي ذلك يقول جي آئي ايم استيوارت في كتابه: "فإن كانت البيئة التي تربّى فيها جوزيف كونراد في بداية حياته كئيبة، إلا أنه عاش حياته المبكرة على الأقل بين الكتب. وإن كانت دراسته الرسمية غير منتظمة وغير مطمئنة، إلا أنه من الواضح بأنه قرأ كثيرا حتى أنه بدأ يحلم بطموحات أدبية لنفسه."[2]

بعد وفاة والده، تربّى كونراد تحت رعاية خاله تاديوز بابراوسكي الذي ربّاه تربية حسنة، حتى يخيل كأنه كان أباه الثاني. وخلافا لأبيه المتشدد والمثالي، كان عمّه محافظا، ومهتما بالأمور وحذرا. إنه لم يكن يرضى عن موقف كونراد من الحياة والعالم. وعلى مرور السنوات أثر بابراوسكي تأثيرا كبيرا في كونراد وآرائه. وهكذا نرى سلوك كونراد وحياته متأثرتين بأبيه وخاله معا. "أبولو توفي في عام 1869م. وكونراد كان في الحادية عشر من عمره. وقد اعتنى خاله تاديوز بابراوسكي بتربيته ورعايته

[1] The Cambridge Introduction to Joseph Conrad, John G. Peters, P.1.
[2] Joseph Conrad, J I M Stewart, P. 2 .

اعتناء كبيرا، إلا أن علاقته مع خاله لم تكن جيدة ومريحة كون كونراد طفلا شريرا، إلا أن خاله حاول أن يهتم بتربية ابن أخته اهتماما كبيرا".[1]

وقد رأينا فيما مضى بأن كونراد كان ينتمي إلى أسرة شديدة في حبها للوطن، وقد كان أهلها يناضلون من أجل استقلال بولندا وكانوا معروفين بنشاطاتهم الثورية والسياسية. وأبوه أبولو كان من بين أولئك الرجال الذين اهتموا بتلك النشاطات والانتماءات الثورية. " تربى كونراد في بيئة شديدة في حبها للوطن والولاء للوطن، ونشأ بين الأشخاص الذين كانوا يهتمون بالقضايا المتعلقة بالوطن وواجبهم نحو بلدهم، والتضحية من أجله... وقد كانت هناك أربع وجهات نظر تجاه روسيا سائدة في بولندا في ذلك الوقت: الولاء، والتصالح، والمقاومة والهجرة. وخال كونراد اختار الثانية (المصالحة)، وأبوه اختار الثالثة (المقاومة)، أما كونراد فإنه اختار الرابعة "الهجرة".[2]

ولما كان جوزيف كونراد في الخامسة عشر من عمره، في عام 1872م، فإنه أظهر رغبة في الملاحة والعمل في البحر. لكن خاله رفض ذلك في البداية. "ولما وصل كونراد إلى السادسة عشر من عمره، فإنه أراد أن يغادر بولندا. ولا غرابة في ذلك لأنه لو أراد أن يعيش في أمن وسلام فكان ذلك ممكنا في ذلك الجزء من البلد الذي كان يخضع للحكم النمساوي، أما لو بقي في الجزء من بولندا الذي كان خاضعا تحت السيطرة الروسية، فإنه كان مضطرا للانضمام إلى الجيش الروسي جراء سياسة التجنيد الإجباري كونه ابنا لشخص متهم. وهذا الخطر بدا واضحا لما لم يستطع خاله أن يحرز لكونراد الجنسية النمساوية في عام 1872. وصحته وحالته الذهنية أيضا لم تكونا جيدتين. وقد اقترح له الأطباء لأن يسافر إلى بلد آخر وجو آخر... وقد أوحت إليه بالسفر والمغامرات قراءته

[1] Joseph Conrad, J I M Stewart, P. 2-3
[2] Joseph Conrad: A Biography, Jeffrey Meyers p. 10-11

الواسعة لكتب المغامرات والحكايات في عهد حياته المبكرة والتي كانت تشمل الحكايات الرومانسية وقصص المغامرات التي كتبها الكابتن ماريات. وبدون شك، كان قد رضي بنفسه لأن يكون بحّارا، وخاله عارضه في ذلك"[1]. ولكن لما أصرّ جوزيف كونراد على ذلك وألحّ عليه، فإنه رضي بذلك فيما بعد على مضض في عام 1874م. فانتقل كونراد إلى مرسيليا في فرنسا لكي يتدرب على الملاحة. "وتمت الترتيبات والاتصالات مع الجهات في مرسيليا لأجل تدربه في الخدمات التجارية الفرسية. فترك كونراد بولندا في أكتوبر عام 1874م"[2].

وفي مرسيليا تعلّم كونراد الملاحة وتدرّب عليها. وقدّم له خاله دعما ومساعدة له. ويبدو من خطابات خاله إليه بأنّ كونراد لم يكن يحسب حسابا دقيقا على نفقاته المالية وإن كان خاله بوبراوسكي قد أنقذه مرارا من إفلاسه ولامبالاته إلا أنه كان يوبخه ويؤنبه على لامسئوليته. "وفي مرسيليا التي أصبحت قاعدة تدربه لثلاث سنوات ونصف، ترك كونراد الطفولة وارءه، ومرّ بعهد الرجولة الذي نحن لا نعرف عنه بدقة. كان ذكيا وتربيته كانت جيدة. وكانت لديه معرفة جيدة باللغة الفرنسية. وكان يتمتع على الأقل بدرجة من الحرية، مصحوبة بعطاء مالي منظم من الأسرة. وإضافة إلى ذلك، خاله تايدوز بابرواسكي الذي كان يحمل نفقاته، فقد كان مستريحا وهو بعيد عنه بألف ميل. وقد كان يقوم بأداء مهمة الرعاية من خلال رسائله المليئة بكلمات المحبة والنصيحة. ويظهر من رسائل خاله، بأن جوزيف كونراد أحيانا كان غير منضبط، ولم يكن يحسب للأمور. وكان قد أضاع كثيرا لأجل نفقاته غير الدقيقة."[3]

[1] Joseph Conrad, J I M Stewart, P. 3
[2] Ibid, P. 4
[3] Ibid, P.5-6

وفي عام 1876م، عمل كونراد كمضيف في السفينة، سينت أنطونيو، التي سافرت إلى منطقة البحر الكاريبي والأمريكيتين، وهذه هي التجربة الوحيدة لكونراد في العالم الجديد. وبنى كونراد على تجربته هذه أساس روايته البانورامية التي تعرف بـ "نوسترومو". وبعد ذلك في أول عام 1878م، أنفق كونراد مالا كثيرا ولعلّه وقع أيضا في قصّة حب رومانسية. وربّما تورّط في بعض الأعمال التهريبية."لا نعرف بدقة ما هي أسباب وراء كآبة وضغوط كونراد والتي دفعته لأن يتخذ هذه الخطوة المستميتة. وقد كان متورطا في عملية تهريب السلاح لصلاح قضية في أسبانيا، وقد أضاع كثيرا في عملية التهريب هذه وغيرها من الأعمال السرية. وربما كان وراءه إقدامه على الانتحار قضية حب كارثية."[1] ماذا حدث بعد ذلك ليس واضحا. لكن وفقا لخطابات بابراوسكي، يبدو بأن كونراد أراد الانتحار. لكن الأحداث بقيت غامضة لأنه في ذلك الوقت، وفي السنوات اللاحقة ادّعى كونراد بأنه جُرح في ملاكمة.

وفي هذه السنوات أصبحت قضيّة الجنسية بالنسبة لكونراد مهمّة. ولم يرض خاله لعمله في البحر وذهابه إلى مرسيليا بعد أن رأى وضع جوزيف كونراد ودرس قضيّته، فوجد بأنه لو بقي في بولندا، فإنه سيكون لزاما عليه أن يعمل في الجيش الروسي بعد التجنيد الإجباري الطويل لأن أباه كان متورطا في النشاطات الثورية. ففكّر خاله بابراوسكي بأن كونراد لو انتقل إلى فرنسا، فإنه يستطيع أن يحصل على جنسية دولة أخرى بسهولة. وبما أن فرنسا كانت تطلب جواز السفر سارى المفعول للعمل في خدمات البحرية الفرنسية، وبما أنّ روسيا رفضت أن تصدر جواز السفر لكونراد، جراء كل هذا بدا واضحا بأن كونراد لا يستطيع أن يتجنب من الواجب العسكري إذا بقي هو في

[1] Joseph Conrad, J I M Stewart p. 5

فرنسا. فبالتالي بابراسكي شجّع كونراد على أن يطلب الجنسية من مكان آخر. وهكذا انضم كونراد نهائيا لخدمات البحرية التجارية البريطانية مع أنّه لم يكن يتكلّم الإنجليزية في ذلك الوقت. وفي الأعوام المقبلة التالية سافر كونراد بالسفن البريطانية الكثيرة. ففي عام 1880م، درس ليكون موظفا، ونجح في الاختبار وأصبح فيما بعد الضابط في الدرجة الثالثة على سفينة لوج إيثبو، ثم عمل في سفينة "فلسطين" في نوفمبر من عام 1881م كضابط في الدرجة الثانية. وتجربته في هذه السفينة وفرّت له المواد ليكتب إحدى قصصه الشهيرة باسم "الشاب". وكثير من تجاربه أثناء عمله في هذه السفينة تشبه الأحداث التي سردها في القصة "الشاب" بما فيها عملية إصلاح السفينة الطويلة قبل الخروج في السفر، وحادثة الحريق في السفينة وتجاربه في سفن النجاة ومشاهدته للشرق العجائبي عن كثب لأوّل مرّة. وواصل كونراد عمله وشغله بالسفينة، حتى أنه وصل في عام 1884م إلى مومبائ، الهند، وقد عمل كضابط في الرتبة الثانية في سفينة نارسيسوس. وشكّلت هذه التجربة أساسا لأوّل رواية طويلة له باسم "زنجي من نارسيسوس". وبعد ذلك، نرى كونراد يسافر على السفن العديدة إلى أستراليا وإلى موريشيوس والبلدان الأخرى، وسافر أيضا إلى أرخبيل الملايو في جنوب شرق آسيا وسرد عن تجاربه فيها في قالب روائي.

وسافر أيضا إلى أفريقيا وتجربته في الكونغو قدّمت له موادا للكتابة عن روايته الشهيرة، "قلب الظلام" والتي سأبحث فيها في بحثي بقدر من التفصيل. وقبل كتابة هذه الرواية، كتب جوزيف كونراد "مذكرة الكونغو" وذكر فيها ما رآه وشاهده من دمار وخراب في بلاد الكونغو التي كان يحكمها الملك البلجيكي ليوبولد الثاني، وعبث في الأرض فسادا، وقتل وشرد الملايين.

وفي ذلك يكتب جون جي بيترس في كتابه "The Cambridge Introduction to Joseph Conrad": "وفي مايو عام 1890م، سافر كونراد إلى الكونغو في إحدى رحلاته المهمة في حياته وسجّل جزءا عن تجربته في مذكرته المعروفة بـ "مذكرة الكونغو" والتي أصبحت أساسا لقصّته المعروفة بـ "مكان للتقدم"، وأيضا قصّته الشهيرة المعروفة بـ "قلب الظلام"[1].

وبعد العودة من الكونغو، أمضى كونراد عدّة شهور لاستعادة صحته الجسدية والنفسية. وفي نوفمبر 1891م، قبل درجة الضابط الأوّل في السفينة (نائب الربان) في سفينة "تورينز" والتي كانت تمخر فيما بين إنجلترا وأستراليا. وبعد العودة من أستراليا عام 1893م لقي كونراد إدوارد لينس لوت وجون غالسورثي واللذين أصبحا صديقين له لمدى عمره وأثناء تلك المدة توفي خاله الذي أثر في تكوين شخضيته تأثيرا كبيرا وكثيرا.

ونرى منذ 1894م، بداية عهد جديد في حياة جوريف كونراد. إنه بدأ يبحث عن وظيفة أخرى وعمل آخر جديد غير عمله في السفينة. "الوقائع الرئيسية من عام 1894م أثبتت أهميتها وجدارتها في حياة كونراد مثلما حدث له بعد نزوحه من بولندا في عام 1874م. ففي منتصف شهر يناير من عام 1894م إنه ترك سفينة "أدوا" وأنهى عمله في البحر. وفي نهاية يناير من السنة نفسها، قطعت وفاة خاله علاقته مع بولندا. وفي شهر أبريل انتهى من كتابة روايته "حماقة ألماير". وفي شهر أكتوبر تم قبول أول روايته للنشر، وأصبح بالتالي كاتبا محترفا، وفي شهر نوفمبر لقي إدوارد غارنيت (أحد الكتاب الكبار والنقاد البارعين في عصره) الذي بقي صديقا له لمدى حياته، وفي العام نفسه

[1] The Cambridge Introduction to Joseph Conrad, John G. Peters, pp.4.

لقي جيسي جارج التي صارت زوجته في مستقبل حياته"[1]. وقد بدأ يأخذ جوزيف كونراد الكتابة الأدبية بجدية واهتمام، وطفق يكتب قصصا وروايات، ينسج أحداثها ووقائعها من تجاربه في ميدان الملاحة والعمل في السفن وزيارة المستعمرات البريطانية إلا أنَّ هذه الكتب لم تكن لتضمن له بدخل ثابت مستقر، وذلك لأن بيع الكتب كان ضئيلا ومتواضعا، ولم يكن ليفي بنفقاته الضرورية واحتياجاته اللازمة. إلا أنّه واصل إصدار روايات تلو الأخرى أكسبته شهرة وإشادة من جانب الكتّاب البارعين والنقاد المشاهير في زمانه. وقد نشأت بينه وبين الكتّاب الآخرين صداقات منها صداقته مع الروائي الإنجليزي الشهير فورد مادوكس والذي عمل معه بالاشتراك في إصدار ثلاث روايات.

ونرى جوزيف كونراد منذ أن ترك العمل في السفن بأنه تفرغ للكتابة الأدبية. وهو يعالج في رواياته وقصصه ومقالاته قضايا الإنسان والاستعمار واللامبالاة الإنسانية. وبعض رواياته تم تحويلها إلى أفلام سينمائية وأذكر فيما يلي نبذة مختصرة عن أهم أعماله الأدبية مع ذكر ملخصاتها وميزاتها الأدبية التي تميزت بها.

أهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته

مرّ جوزيف كونراد في حياته بتجارب عديدة وعاش حياته متنقلا بين قارات العالم المختلفة، وجرّب أعمال البحارة في السفن البحرية لسنوات طويلة في حياته، وهو يقود السفن التجارية الفرنسية أولا، والسفن البريطانية فيما بعد. وعلى مرور السنين نشأت بينه وبين الرجال الآخرين صداقات المهنة والعمل، وبينه وبين الكتّاب الآخرين أواصر الأدب والفن. وقد رأينا جوزيف كونراد

[1]. Joseph Conrad: A Biography, Jeffrey Meyers p.125

بأنه سافر في حياته بالسفن التجارية إلى معظم المستعمرات البريطانية، ورأى الأوضاع فيها عن كثب، مما وفّرت له موادا خصبة وغنية للكتابة الإبداعية، وأعطته تجارب متنوعة في الحياة لممارسة هوايته في الكتابة.

وإضافة إلى ذلك كله عانى جوزيف كونراد في حياته منذ عهد طفولته صعوبات وتحديات. توفي أبواه وهو في الحادية عشر من عمره. أصيب باليتم وهو مازال صغيرا يعاني مرضا ذهنيا بقي معه لمدى حياته. وفي عهد شبابه وصل به الاكتئاب النفسي إلى حد أنه أراد الانتحار، لكنه نجا بنفسه في نهاية الأمر. وعلى الرغم من هذه الحوادث المؤلمة، إلا أنه أنجز كثيرا. وترك وراءه أدبا غنيا وثريا فيه روعة الأدب الإنجليزي وجمال الفن النثري. وقد لعبت عناصر عديدة في بناء شخصيته وتكوينه الثقافي والأدبي.

(1) أسرته "المدرسة الأولى في حياته":

لعبت البيئة التي ولد فيها جوزيف كونراد ونشأ فيها وترعرع دورا مهما وكبيرا في تنشئته وتثقيفه. وقد رأينا فيما مضى بأن أسرته كانت تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية المثقفة، وجدّه كان من الأدباء الكبار في عصره، وقد كتب بعض المسرحيات وروائع أدبية أخرى. ووالد جوزيف كونراد أبولو كان كاتبا كبيرا، وناشطا سياسيا ومترجما قديرا. كان منخرطا في بعض النشاطات السياسية لأجل استقلال بلده الذي كان مقسّما بين ثلث دول مجاورة. ولأجل نشاطاته السياسية اعتقل أبوه من قبل السلطات الروسية وأرسل في المنفى. وفي المنفى توفيت أمه بمرض الربو. وبعد وفاة أمه عاش كونراد بضع سنوات وحيدا في كنف أبيه. وبما أن أباه كان كاتبا وأديبا ومترجما، فإن كونراد وجد جوا علميا

في بيته تحت رعاية والده. فقد كان يقرأ كل ما كانت تقع عليه يداه من قصص وروايات ورحلات وكتب. وفي ذلك يقول جون استاب عن والد كونراد بعد وفاة زوجته (أم كونراد): "زوجها (والد كونراد) حزن حزنا عميقا وكثيرا، وازدادت كآبته أكثر فأكثر. وقد كان يعاني مرض الربو...وقد كان يدرّس ولده (كونراد) مادة الرياضيات، واللغة الفرنسية والبولندية. وكانا يدرسان الشعر البولندي الرومانطيقي معا".1 ونجد في حياة جوزيف كونراد بأنه كان متأثرا تأثرا كبيرا بأعمال والده الإبداعية والمترجمة، وكذلك نجد بأنه كان قد توارث بعض نزعاته الفكرية والنفسية في حياته من أبيه. "تأثر كونراد تأثرا كبيرا بأعمال والده. وترجمة والده للكتب أثارت أولا اهتمام كونراد بالثقافة الفرنسية والإنجليزية... وقد لازمت كونراد في حياته ريبة وتشاؤم أبيه".2 ولما كان جوزيف كونراد يعيش حياته في الطفولة في عزلة مع أبيه الذي كان يعاني مرض الربو، فإنه لم يجد ما يمضي به وقته غير الكتب في بيت أبيه. فأكب على قراءتها إكبابا وانهمك في مطالعتها انهماكا. "ومثل أبيه لجأ كونراد إلى الكتب التي ساعدته في أيامه الطويلة التي عاشها في عزلة. وكتب كونراد في كتابة "A Personal Record" بأنه بدأ يقرأ كثيرا منذ أن كان عمره خمس سنوات. وكان يتذكر بأنه قرأ منذ أن كان طفلا مادة التاريخ، وكتب الرحلات، والروايات في اللغة البولندية والفرنسية".3

(2) رحلاته وأسفاره وعمله في السفن:

ولما بلغ جوزيف كونراد السابعة عشر من عمره، فإنه أظهر رغبة في الملاحة والعمل في السفن، لكن عمّه الذي كان قد ربّاه بعد وفاة والديه، رفض ذلك في البداية. ولكن نظرا إلى إصرار جوزيف

1. The Several lives of Joseph Conrad, John Stape P.15
2. Joseph Conrad: A Biography, Jeffrey Meyers P.8
3. Joseph Conrad: A Critical Biography, Jocelyn Baines, P. 19

كونراد وإلحاحه عليه، ونظرا أيضا إلى إمكانية الحصول على جنسية بلد آخر لكونراد، فإنه رضي بذلك على مضض. سافر جوزيف كونراد إلى مرسيليا بفرنسا، وتعلّم فيها الملاحة بالسفن وتدرب عليها. وبعد مدة سافر جوزيف كونراد إلى بريطانيا وانضمّ إلى السفن التجارية البريطانية، وسافر إلى بلدان عالمية مختلفة، وإلى معظم المستعمرات البريطانية تقريبا. ورحلاته هذه كشفت له عن عوالم عديدة، وأطلعته على ثقافات متعددة، وفتحت له آفاقا، وأظهرت له مشاهد جميلة ومناظر خلاّبة. كما حدثت له في السفن وفي الشواطئ وفي المدن التي زارها أحداث وتجارب، عصرها جوزيف كونراد في كتاباته ورواياته وقصصه. رحلاته وأسفاره وفّرت له موادا خصبة وضخمة لبناء عالمه القصصي والأدبي، وقدّمت له صورا وأحوالا نسج بواسطتها قصصه ورواياته. وفي هذا المجال على سبيل المثال نستطيع أن نذكر ما رآه وشاهده في بلاد الكونغو من ظلم واضطهاد تعرض له الشعب المستعمَر على أيدي المستعمرين. وقد صارت تجربته في الكونغو مادة لقصّته "قلب الظلام".

(3) صداقاته مع أدباء عصره:

ولعلّ من أهم العوامل التي أثرت في نضجه الفكري وغناه، وتكوينه الثقافي وثراه هو صداقاته مع أدباء عصره الذين أطلعوه على أعلام الأدب ورموزه، وأظهروا له أوجه البيان والسرد، وأساليب الفن والكتابة، مما كان له أثر بالغ في تحديد مساره الكتابي وتوجيه بيانه الأدبي. وقد نتجت صداقته مع الروائي الشهير فورد ماكس فورد عن شراكة كتابة أدبية أثمرت عن ظهور ثلاث روايات كتباها معا. كما نرى أن صداقته مع غالسورتي والكتاب الآخرين أغنت أدبه كثيرا وأثرته إثراء كبيرا. "وقد توطدت له مع عدد منهم علاقات الصداقة، وعلى رأسهم الكاتب جون غالسورتي–والذي قدّر له أن يلقاه في عام 1893م قبل أن ينشر أحد منهما أي كتاب. وغالسورتي كان صديقا حسنا...

والشخص الآخر الذي كان أقرب إليه في الفكر والانتماء الاجتماعي هو الكاتب آر- بي- كاننغهام غراهام، الأسكوتلندي، الذي كانت تجري في عروقه دماء إيطالية وأسبانية، والذي كان يحمل غريزة لحياة المغامرات... وقد كانت تربطه أيضا صداقة مع إيج-جي- ويلس (الكاتب الإنجليزي الشهير)".[1] وهكذا نرى بأن كونراد جمعته صداقات وطيدة مع أدباء عصره. وكونراد نفسه كان يثمّن هذه الصداقات كثيرا، وكان يحاول دوما أن يستغلّها لصالحه ولصالح إنتاجاته الأدبية. وقد طبعت رسائله إلى الأدباء ودور النشر والقائمين عليها فيما بعد في شكل كتاب.

[1]. Joseph Conrad, J I M Stewart, P. 9

الفصل الثاني

نبذة مختصرة عن أعماله الأدبية

بما أن جوزيف كونراد مرّ في حياته بتجارب عديدة، فنتيجة لذلك نرى أدبه يمرّ بمراحل مختلفة. وهذا حدث جراء ما مرّ به جوزيف كونراد من أوضاع وأحوال في حياته الشخصية. "ويمكننا أن نكتشف في هذه الحياة الوحيدة على الأقل خمس حيوات متغايرة كان من المفروض أن تتعلق بخمسة أفراد مختلفين: طالب بولندي الأصل، ومغامر بحار في السفن الفرنسية خارج مرسيليا، وبحّار بريطاني حاز بجهده على منصب ربّان السفينة في البحرية التجارية البريطانية، وصاحب سفينة في نهر الكونغو، والسيد الموسيقار للنشر الإنجليزي الروائي جوزيف كونراد"[1]. وقد كان لوضعه الذاتي أثر بالغ في حياته العملية والكتابية وحتى أن كتبه تكاد تكون سيرة ذاتية له نتيجة طبيعة عمله كبحّار وككاتب.

ويمكننا أن نقسّم الفترات الزمنية التي ألّف فيها جوزيف كونراد كتبه على ثلاث فترات محددة ومختلفة، الفترة الأولى والوسطى والأخيرة.

الفترة الأولى

غلبت على هذه الفترة الكتابية السرديات الأدبية عن أرخبيل الملايو، ومهنة البحارة التي اشتغل بها جوزيف كونراد، ولأجل ذلك يعتبر جوزيف كونراد كاتب البحر، وأيضا كـ "كيبلنج للبحر". كتب في هذه الفترة رواياته الأولى التي تشمل "حماقة ألماير" ورواية "منبوذ الجزر" ورواية

[1]. Bernard C. Meyer, Joseph Conrad: A Psychoanalytical Biography, p.3

"الإنقاذ" ورواية "زنجي نارسيسوس" وأيضا تشمل أعماله في هذه الفترة مجموعة قصصية باسم "قصص الفوضى". وأذكر فيما يلي نبذة مختصرة عن بعض أعماله في هذه الفترة.

رواية "حماقة ألماير"

رواية "حماقة ألماير" هي أول رواية كتبها جوزيف كونراد. وهي إحدى الروايات الثلاث التي تسرد الوقائع التي حدثت في أرخبيل الملايو. "وكان ذلك في صباح يوم بعد الفطور إذ بدأ جوزيف كونراد يكتب فجأة قصّة تطورت لتكتمل وتنشر في النهاية باسم "حماقة ألماير"، وهي إحدى الروايات العديدة التي تولدت من تجاربه في الملايو، وهذا الكتاب لم يقدر له أن يكتمل إلا بعد خمس سنوات تقريبا"[1]. ويقول إدوارد سعيد: "رواية "حماقة ألماير" بدأت كتابتها في عام 1889م كما يقول كونراد في كتابه "A personal Record" واكتملت في عام 1894م"[2]. ويكتب جوزيف كونراد عن تجربته لكتابة هذه الرواية في كتابه "A personal Record" حيث "يقول فيها بأن كتابته لـ "حماقة ألماير" بدأت في استرخاء وكسل وفتور، كنوع من العمل الذي يقوم به صاحبه أثناء إجازته الطويلة بعيدا عن البحر... كتبها شيئا فشيئا أثناء سفره بالسفن حول العالم وأخذت منه أربع أو خمس سنوات لإكمالها، ومع ذلك كانت تحتاج إلى المراجعه وإعادة النظر فيها من جانب الأصدقاء قبل تقديمها للنشر"[3] والرواية تعالج حياة تاجر باسم "ألماير" الذي يشتغل بالتجارة في منطقة نائية لأرخبيل الملايو. إنه تزوّج من ابنة تبناها مرشده توم لنغارد على وعد بأنه سيرث لنغارد. ولكن لنغارد خسر ماله وذهب إلى أوروبا وعادت زوجة ألماير إلى جذورها الثقافية. الأمل الوحيد في حياة ألماير

[1] Joseph Conrad: A Psychoanalytical Biography, Bernard C. Meyer, p.91
[2] Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography, Edward Said, p. 16 .
[3] Joseph Conrad, J I M Stewart, P 23,25 .

هو أن يكون ثريّا ويترك الشرق ليرجع إلى أوروبا مع ابنته "نينا". ولهذا الغرض إنه اتصل بحاكم إسمه "دين مارولا" للبحث عن الذهب الشهير. وقع دين مارولا ونينا في الحبّ. ولكن قبل أن يبدأ مارولا وألماير البحث عن الذهب، جاءت السلطات الهولندية لاعتقال مارولا لضلوعه في مؤامرة الإطاحة بالحكم الهولندي.

وفرّ مارولا من السلطات الهولندية وأخذ معه "نينا" وإذا ما وصل إلى ألماير نبأ فرار "نينا" مع مارولا. فهو يذهب إليها ويحاول إقناع "نينا" بالعودة، لكنها ترفض. فيعود ألماير إلى بيته كسير الفؤاد، ويتعوّد على إدمان الأفيون ويموت نهائيا.

هذه هي قصّة "حماقة ألماير"، لكنها ليست قصّة رومانسية كما اعتقدها بعض النقّاد والقرّاء، بل نراها قد تجاوزت حد الرومانسية، واختارت الشكل الرومانسي لتسرد من خلاله قصّة الشرق الذي أصبح مكانا للفساد والمكر السياسي والذي يبدو فيه أهل الملايو أكثر دهاء وأكثر ذكاء من ألماير الأوروبي. إضافة إلى ذلك، تختار ابنة ألماير "نينا" الثقافية المحلّية في الملايو على الثقافة الأوروبية، وهذه الأحداث تقدم تساؤلات حول الرؤية الأوروبية عن العالم.

ومن جهة أخرى نرى أن رواية كونراد هذه تأخذ منعطفا خطيرا سياسيا وذلك بالتشكيك في عظمة ودور الحضارة الغربية في العالم الغربي. وهذا لا يعني بأن كونراد كان خاليا عن التمييز الأوروبي ضدّ الرجال غير الأوروبيين. ومما يثير الانتباه والاهتمام في الرواية هو أن جوزيف كونراد وإن كان قد ناقش الفرضيات الأوروبية عن العالم غير الغربي، إلا أنه في نفس الوقت يقوم بتخليد نفس الفرضيات.

رواية "زنجي نارسيسوس"

رواية "زنجي نارسيسوس" هي أفضل رواية كتبها جوزيف كونراد في الفترة الأولى من كتاباته الأدبية. ويقول جون جي بيترز في كتابه "The Cambridge Introduction to Joseph Conrad" عن هذه الرواية: "في وقت ما كانت هذه الرواية أكثر قراءة من أعمال جوزيف كونراد كلها. والتهافت على هذه الرواية ربما كان لأجل كون الرواية مختصرة، أو لأجل مزاياها من حيث المغامرات ولأجل مزاياها الأدبية"1. و"رواية "زنجي ناسيسوس" ستبقى أكثر روعة من بين جميع كتاباته التي كتبها عن البحر. ومزيجها من الملحمة والميزات المسرحية وغناها الأدبي وتقديم الشخصيات الروائية في أفضل صورة...كل هذا يجعل جوزيف كونراد من أكبر الكتاب للقصة الإنجليزية"2.

تبدأ أحداث الرواية في مومبائ حيث يجتمع فيها طاقم السفينة معا لسفر العودة إلى إنجلترا على سفينة "نارسيسوس". جيمس ويت الذي كان بحّارا من أصل أفريقي هو آخر ضابط يصل إلى السفينة. ولم تكد السفينة تمخر عباب البحر قليلا حتى ادعى جيمس ويت بأنه مريض ولا يستطيع أن يقوم بواجبه في قيادة السفينة، وملاحو السفينة ليسوا متأكدين هل هو مريض حقا أم هو يتمرّض. والرجال يقومون برعايته ويسألونه عن حاله لكنه لا يبالي بهم. وشخص آخر في السفينة باسم "دونكين" لا يقبل مسئوليته ويحاول دوما ليتنصّل من واجباته. أثناء السفر تواجه السفينة طوفانا شديدا وكادت أن تغرق. أثناء الطوفان حاول الرجال في استماتة لأن ينقذوا جيمس من غرقته، وبالكاد نجوا في حياتهم بينما يؤنبهم جيمس ويت بأنهم يأخذون وقتا كثيرا لإنقاذه . وأخيرا

---

1. The Cambridge Introduction Joseph to Conrad, John G. Peters, P. 45.
2. Joseph Conrad, J I M Stewart, P 69.

استقامت السفينة وبدأت تمشي بتؤدة، وقد واصلوا رحلتهم. بينما هم كذلك إذ بدأ جيمس يدّعي بأنه في حالة صحية جيدة ويستطيع أن يؤدي واجبه. لكن ربّان السفينة "أليستون" يرفض دعواه ويرفض عمله الآن، وقراره هذا كاد أن يؤدي إلى اضطراب داخل السفينة إذ نرى دونكين يقدم لخلق مشكلة فيها. وبعد هذه الحادثة جميع ملاحي السفينة ينفرون من دونكين. أثناء تلك الفترة توفّي جيمس ويت لأجل المرض الذي أصابه والذي كان يظنّ ملاحو السفينة بأنه يدّعيه كذبا. توفي جيمس ويت ودفن في البحر، وفي ذلك الوقت يهبّ ريح عليل والسفينة تكمل آخر مرحلة سفرها إلى إنجلترا. إنهم وصلوا إنجلترا ولما نزلوا من السفينة، تفرّق جمعهم، والعروة التي كانت تربطهم بدأت تنحل وتنفصم.

هذه هي قصّة الرواية وهي في معظمها تعالج تصورات العزلة الإنسانية والتضامن الإنساني. وبهذه الرواية حاول كونراد أن يقدّم رسالة واضحة إلى أن المجتمع البشري إذا يتفق على شيء أو مهمة فإنه يستطيع إنجازها وإكمالها، مهما كانت صعبة. " إن رواية "زنجي نارسيسوس" تكشف لنا عن مركزية وجوهر الحياة الإنسانية"[1]. ونرى كذلك في الرواية التقنيات السردية الفريدة من نوعها. أحيانا يستخدم كونراد في سرد الأحداث صيغة الغائب وأحيانا أخرى صيغة المتكلم. و"رواية "زنجي نارسيسوس" بالإضافة إلى كونها سردا لكفاح بطولي ضد العنصرية، هي تتحدث عن الطبيعة الإنسانية والعلاقات الإنسانية كما تظهر في مجتمع عازل تحت الضغط"[2]. أهمية العلاقة المجتمعية بين الرجال واضحة في الرواية، لكن كون جيمس ويت من أصل أفريقي يخلق للرجال مشكلة. فالرواية تعالج قضية العنصرية أيضا.

---

1. Romance and Tragedy in Joseph Conrad, Walter F. Wright, p. 43 .
2. Joseph Conrad, JIM Stewart, p. 28 .

ونرى في هذه الفترة الأولى من كتابات جوزيف كونراد الإبداعية بأنه قدّم روايات وقصصا أخرى مثلا مجموعة قصصية باسم "قصص الفوضى" ورواية "الإنقاذ" ورواية "منبوذ الجزر".

الفترة الوسطى

شكّلت هذه الفترة تمهيدا لما سيقدّمه جوزيف كونراد في الفترة الآتية من أعمال روائية وقصصية تعتبر أهمّ ما كتبه في حياته. والفترة الوسطى التي كانت تمتد ما بين 1899م إلى 1911م، تعتبر أهمّ وأفضل وأنجح وأغنى فترات حياته من ناحية الإنجاز الأدبي والعطاء الفني، إذ قدّم فيها أعمالا كبيرة رائعة وشهيرة. وفي السطور الآتية سأذكر بعض أهم ما قدّمه جوزيف كونراد باسم "الشباب". وقصّة "الشباب" هذه هي إحدى القصص القصيرة الرائعة التي كتبها جوزيف كونراد وهي إحدى القصص الأربع التي يظهر فيها مارلو كراوية رئيسي.

قصة الشباب

يحكي مارلو في القصّة عن تجاربه قبل عشرين عاما تقريبا. إنه انضمّ لسفينة تحمل البضائع والسلع التجارية. والسفينة التي كانت تسمى ب "جوديا" تسافر إلى بنكوك وهي تحمل الفحم. والرحلة كانت محفوفة بالمشكلات منذ بدايتها. وملاحو السفينة يغادرون لندن لـ "نيوكيسل" ليحملوا السلع، لكنهم يواجهون طقسا سيئا ويصلون إليها متأخرين ويتأخرون أكثر لأن سفينتهم تصطدم بسفينة أخرى. ويستغرق إصلاح السفينة شهورا عديدة. وبعد ذلك تغادر السفينة لوجهتها. والسفينة لا تواجه أية مشكلة أثناء رحلتها إلى أن تصل إلى "جاوا". وفي ذلك الوقت يكتشف الملاحون حريقا في مخزون السلع. فيبدأون ضخّ المياه لإطفاء النار ولما أيقنوا بأنهم استطاعوا إطفاء

الحريق إذ تنفجر السفينة فهجروا السفينة ويركبون سفن النجاة، ويرحلون، وبعد ساعات يصلون اليابسة، وتنتهي قصّة مارلو باكتشافه لأوّل مرّة الشرق العجائبي.

وكما يظهر من عنوانها فإن هذه القصّة تعالج قضية الشباب والأفكار والمشاعر التي تتعلق به: فرحة وإعجاب مارلو الشاب بكل ما رآه وشعر به من تجارب تخلق ذكريات حلوة في مارلو، وسامعيه وقرّاء كونراد أنفسهم. وفيه حنين إلى الشباب والذكريات المتعلقة به. وكونراد ببراعة وذكاء يثير قضية إعجاب الشباب بالأمور الجديدة إذ هو يسرد انطباعاته عن الأوضاع وهو شاب. يقول مارلو: "أنا أتذكر إنها ذهبت بخيالي إلى أبعد مدى وكانت فيه تفحة من الرومانسية، الشيء الذي جعلني أحبّ الشيء القديم – الشيء الذي أعجبت به في شبابي"1.

ولما يصل مارلو إلى اليابسة في سفينة النجاة، فهو مليء بالاستغراب عما رآه. فهو يقول: "وهكذا أرى الشرق وكنت قد رأيت أماكنه السرية ونظرت في داخل روحه. لكنّني الآن أراه دائما من سفينة صغيرة، جبالا عالية، زرقاء وبعيدة في الصباح، مثل ضباب خفيف في الظهيرة وكمثل جدار مسنن أرجواني عند غروب الشمس"2. ومارلو في شيخوخته يقول: "ولكن بالنسبة لي، كل الشرق موجود في تلك الرؤية في عهد شبابي. وهذا في تلك اللحظة التي فتحت فيها عيني الشابتين لأراه"3، إلا أن مارلو يتذكر تجربته الأولى مع الشرق بشعور من الحزن ويحسّ بعدم نضج رؤيته تجاه العالم في شبابه.

---

1. The Cambridge Introduction to Joseph Conrad, John G. Peters, pp.53.
2. Youth, Joseph Conrad, P. 37 .
3. Ibid, P.37 .

رواية "قلب الظلام"

كتب جوزيف كونراد في هذه الفترة روايته الشهيرة "قلب الظلام"، والتي تعتبر من أهم ومن أكثر الروايات الإنجليزية قراءة. وأثار فيها كونراد قضايا الاستعمار وعدوانه، والنقد عليه، وقضايا التهجين وانشطار الذات وقضية الأنا والآخر. ورواية هذه قسّمت النقّاد إلى طائفتين منذ صدورها. طائفة من الكتّاب والنقّاد يعتبرون الرواية مناقضة للاستعمار ورؤاه، وأنها تقع ضدّ الاستعمار. أما الطائفة الثانية للنقّاد فهي ترى بأن رواية جوزيف كونراد هذه أتت في تأييد ودعم الاستعمار وإضفاء طابع الشرعية على المبدأ الاستعماري، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار الفترة التي كتبت فيها هذه الرواية. كتبت هذه الرواية في عهد التصعيد البريطاني. والرواية هي سرد لواقع تاريخي وأحداث تاريخية وقعت في بلاد الكونغو في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حينما كان يحكمها الملك البلجيكي ليوبولد الثاني، فعبث فيها فسادا. وقد زار جوزيف كونراد الكونغو في عام 1889م وشاهد الأحداث بأم عيونه. فسرد تجربته فيها في هذه الرواية، وسيأتي التفصيل عن الرواية في الأبواب التالية.

رواية "لورد جيم"

هذه الرواية تعالج قضية الشرف المفقود، والمثالية الرومانسية، والصراع بين العلاقات الإنسانية والأفكار. هي رواية تروي تجارب ملاّح اسمه "جيم". يريد جيم أن يذهب إلى البحر منذ صغره ليجرّب المغامرات التي قرأها في الأدب الشعبي. يذهب إلى مدرسة تدريبية وبعده ينضم لخدمات

البحرية التجارية البريطانية وبدأ يعمل كضابط ثانٍ في السفينة "فاتنا". والسفينة تذهب في رحلة إلى مكة وعليها ثمان مائة مسلم في طريقهم للحج بمكة.

وذات ليلة تصطدم السفينة "فاتنا" بشيء (ربما حطام سفينة غاردة) وبدأت تغرق في الماء. وينزل جيم إلى الماء ويرى بأنه ليس في إمكانه أن يفعل أي شيء نظرا إلى الحال الرديئة للسفينة. ثم يصعد على متن السفينة وينتظر لما لا مناص منه. بينما وجد الضباط الآخرين يستعدون للفرار من السفينة. إنهم قاموا بإنزال سفينة النجاة في الماء، ووثبوا فيها. وفي اللحظة الأخيرة وثب فيها جيم أيضا. وأخيرا تم إنقاذهم وقد اعتقدوا بأن السفينة التي تركوها قد غرقت في الماء. ومن التهكم بأن الضباط لما وصلوا إلى الميناء، وصل إليهم نبأ إنقاذ السفينة "فاتنا". يفرّ الضباط الآخرون من المكان لكن جيم يمكث ليواجه المحاكمة وشهادته تسترد، ولسنوات عديدة مقبلة تاه في موانئ عديدة في الشرق متنقلا من وظيفة إلى أخرى. وفي كل مرّة يترك عمله كلما شعر بالندم على ماضيه وفي النهاية، يقوم مارلو صديق جيم الذي هو يعمل في ميناء تجاري في باتوسان بإرساله للإشراف على نقطة تجارية. فيأتي جيم إلى ذلك المكان ويقود إحدى القرى ضد ظالميها، "شريف علي" وينجح في دحر قواته. وخلال عمله هذا، يصبح جيم بطلا للناس ويحتل مكانة أسطورية تقريبا. يحتل جيم هذه المكانة، ويستمرّ على حاله، حتى يأتي متمرد يعرف بـ "جنتلمان براؤن" بالبحر بحثا عن الطعام والمكتنزات. وجيم لم يكن موجودا حينما أتى براؤن وحينما رجع جيم فإن براؤن ورجاله تعرضوا لهزيمة وتتم محاصرتهم. يلتقي جيم مع براؤن ويطلب منه إما أن يقاتل أو يتركه ورجاله يروحون بدون تحرضهم لأية مشكلة. وبدهاء وذكاء يتلاعب براؤن مع شعور جيم بالذنب على حادثة سفينة "فاتنا". ويقنع جيم أناس باتوسان بأن يسمحوا لبراؤن بالرحيل. وأثناء ذلك يقوم شخص آخر باسم

كورنيلياس بإخبار براؤن عن طريق أخرى للخروج وينتهز هذه الفرصة لأن يقيم بنصب كمين يقع فيه مجموعة من محاربي باتوسان أثناء تقهقرهم. وابن دورامن، حاكم باتوسان، يقع في الكمين ويذهب جيم إلى دورامن الذي يطلق الرصاص عليه ويقتله وبذلك تنتهي قصّة الرواية.

استخدم جوزيف في هذه الرواية الرواة العديدين وقبل ذلك استخدم كونراد نفس الشيء في رواياته الأخرى مثلا في رواية "قلب الظلام" ولكن استخدامه لتقنية سرد الرواة العديدين لم تكن ناضجة ومكثفة ومركزة كما هي الحال في هذه الرواية. وهذه التقنية التي وظّفها جوزيف كونراد تعطيه فرصة أكبر وفسحة أكثر لأن يثري سردياته ويتنوّع في تقديم أفكار وآراء ووجهات نظر أبطاله الروائية. هذا عن التقنيات السردية في الرواية، أمّا بالنسبة للقضايا والأفكار الموجودة في الرواية فنجد بأن الرومانسية هي إحدى القضايا الأساسية في الرواية. وإضافة إلى ذلك نرى أن جوزيف كونراد ينتقد الأفكار الثقافية الغربية على وجه العموم.

وإصرار راوية الرواية مارلو على أن جيم هو "أحد منا" مهم للغاية، إذ أنه يظهر لنا سعة دلالات سلوك جيم وفشله. وقول جوزيف كونراد مبهم عما يعنيه "مارلو" بقوله "أحد منا". هل هو يرمز بذلك إلى المجتمع الإنساني على وجه العموم، أم فقط إلى الغربيين وحدهم، أم إلى أعضاء المجتمع الذين يعملون في البحر، أو إلى الضباط في البحرية، أو إلى الطبقة العليا في العالم الأوروبي أو إلى الكل منهم؟

ولكن من الواضح بأن فشل جيم ليس فشلا فرديا بل هو فشل مجتمعي. ولأجل ذلك لا بدّ للأبطال الروائية أو حتى قرّاء كونراد من أن يسألوا أنفسهم سؤالا سأله جيم من مارلو: "ماذا فعلته لو كنت في مكاني؟"[1].

وفي الرواية نرى أن كونراد ينتقد الأفكار الغربية حقا، لكنه في الوقت نفسه يرفض أن يلعنها تماما. وهذا الصراع يظهر جليا واضحا في تعليقات استين على رومانسية جيم، حيث يقول: "ورومانسية جيم سيئة لأجل الأسباب التي مرّ ذكرها فيما أعلاه (ولأجل الأسباب الأخرى). وخصوصا، كما يذكر استين، الرومانسية سيئة لأنها ليست مقتنعة بالعهود من الأمر. إنها دائما تحاول أن تتجاوز الحدود التي فُرِضَت عليها. وهكذا هي تمثل شيئا مستحيلا: وهو الكمال. وفي الوقت ذاته، المثالية الرومانسية حسنة، حسب ما قاله استين، لأجل الأسباب نفسها، لأنها تؤكد عدم الرضا بحال واحدة، وتدفع المرء لأن يحسّن نفسه ودوما تتجاوز الحدود. وهذا الإبهام يؤدي إلى ما يظهر كثيرا في كتابات جوزيف كونراد وهو الاعتراف بالطبيعة المبهمة للمثالية الغربية والثوابت التي تأسست عليها. وفي الوقت نفسه هو اعتراف أيضا بمزايا معينة في البشر (السعي الدائم لتحسين الذات، والرغبة عند الرجال في تحسين أوضاعهم، والإرادة لتجاوز الحدود). وهي كلها تجعل كونراد يعتقد بأن هذه الأشياء تجعل البشر بشرا"[2].

---

[1] Lord Jim, pp. 92.

[2] The Cambridge Introduction to Joseph Conrad, John G. Peters, pp. 69.

وفي هذه الفترة، ظهرت لجوزيف كونراد مجموعة قصصية أخرى باسم "الطوفان وقصص أخرى" وقصّة "الطوفان" توظف نفس التقنية السردية التي ذكرناها في حديثنا عن رواية "لورد جيم" والقصّة تشبه قصّة رواية "زنجي نارسيسوس".

رواية "نوسترومو"

رواية "نوسترومو" هي أوّل رواية سياسية صريحة. وهي عمل طموح وإنجاز كبير لجوزيف كونراد والبعض يعتقدون بأنها أفضل وأروع رواية كتبها كونراد. وداخل الرواية، جوزيف كونراد يخلق قصة دولة خيالية في أمريكا الجنوبية، مليئة بالحديث عن التاريخ والسياسة والعلاقات الدولية والأحوال المجتمعية في تلك المدينة. وخلق مثل هذه القصّة على هذا المدى هو إنجاز كبير.

وقصّة الرواية تدور حول تشارل غولد الذي يعود إلى مدينة خيالية باسم "تسولاكو" في بلاد "كوستاغوانا". عقد عزمه على أن يشغل نفسه بمنجم للفضة الذي كان والده يتولى أمره، والذي أعطى لوالده من قبل الحكومة عوضا عن دفعه للقروض المفروضة عليه. ونجح غولد في عمله هذا بمساعدة من قبل الممول الأمريكي باسم "هولرايد". ولمدّة قصيرة كان الأمن والرخاء سائدين لكن الأوضاع تغيرت تماما حينما بدأ الجنرال مونيترو الانقلاب. وانهزم رئيس "كوستاغوانا" دون وينسنتي ريسيرا، واضطرّ لأن يفرّ من البلاد.

ونظرا للأوضاع السائدة، يحاول غولد أن ينقل كميّات من الفضّة خارج البلاد خوفا على نهبها من قبل الجنرال مونيترو ومواليه وكلّف مارتن ديكود ونوسترومو بالعمل، لكن السفينة تصطدم بسفينة حربية للمتمردين. فاضطرت إلى أن ترسب في جزيرة منعزلة وفيها يخفى ديكود ونوسترومو

الفضّة. وبعد ذلك يعود نوسترومو إلى مدينة "سولاكو". وبعد وقت قصير من عودته يكلّف الدكتور مونيغام نوسترومو لأن يسافر إلى مدينة كايتا لأن يأتي بالجنرال بيروز كي يقاتل مع أتباع ومؤيدي مونيترو والذين أتوا إلى مدينة سولاكو للسيطرة على منجم الفضّة. إلا أن غولد قد اتخذ خطوة أخرى وأخذ حيطة أخرى. إنه اقترح على رجاله بأن يفجّروا المنجم في حال تعرضه للهجمات من قبل مؤيدي مونيترو. بينما وصل الجنرال بيروز وهزم مؤيدي مونيترو ونجح في اتخاذ الخطوة التي اقترحها دي كود وهي أن تنفصل المقاطعة الغربية التي تقع فيها مدينة سولاكو من بلاد كوستاغونا. ومن التهكم أن ديكود يصبح كئيبا مهموما بعد أن بقي وحيدا على الجزيرة لأيام عديدة وهو يفكر في أن كل شيء قد فشل.

وذات يوم إنه أبحر بعيدا من الشاطئ وأطلق الرصاص على نفسه ويسقط في الماء. ومضت عدّة سنوات وأصبحت مدينة سلاكو مكانا مزدهرا. وازدهر المنجم وأصبح غولد ثريا وبدأ يعيش في رخاء. ويمتلك نوسترومو سفينة ويشتغل في العمل التجاري. كل شيء في مكانه وفي موضعه في مدينة سولاكو إلا اضطراب العمّال المتزايد.

وفي ذلك الوقت، "أويولا" والذي كان مثل الأب الثاني لنوسترومو، قد أصبح مسئولا للعمل في الجزيرة التي كانت الفضّة مخفية فيها. وذات ليلة حينما ذهب نوسترومو ليأخذ فضّة إضافية، ظنّه "أوويلا" دخيلا وأطلق الرصاص عليه. فمات نوسترومو بعد وقت قليل.

نوسترومو هي رواية متشائمة في غاية التشائم. هي بالإضافة إلى معالجة القضايا السياسية تعالج العلاقات الإنسانية. وهي كلّها منسوجة داخل السرد الروائي. وهي أطول روايات جوزيف

كونراد وأكثرها تعقيدا ويستطيع القارئ أن يرى فيها طريقة السرد من خلال دوّامة الحبكة وتعدّد الأبطال وسلسلة متقطعة للأحداث بدون أن يلتبس عليه الأمر في ذلك.

أثناء الرواية، كونراد يهتم بالقضايا السياسة على جميع الأصعدة. إنّه يصوّر الثوريين بأنهم يخدمون أنفسهم ، وحريصون، وظالمون وبالمثل نرى أن جوزيف كونراد ينتقد الاستعمار في العالم الجديد ويرى بأن عدم الاستقرار السياسي، والنشاطات الثورية والفوضى الاقتصادية كلها تنتج عن التدخل في الدول من قبل أوروبا وأمريكا. غولند هو من أصل إنجليزي، وديكود من أصل فرنسي وهولراود من أصل أمريكي.

هؤلاء الأفراد والآخرون وكذلك المصالح الأوروبية والأمريكية التجارية والحكومية هي تشكل مصدرا للنزاع بين أهل كوشاغوانا وبلانكوس (أرستقراطيون من أصل أوروبي). والدعاية الرئيسية لمونيترو تدور حول مصالح أوروبا وأمريكا التجارية والسياسية في كوستاغوانا. وبإيجاز يعتبر كونراد الفوضى في كوستاغوانا ناتجة عن التدخل الاستعماري فيها.

وإضافة إلى هذه الروايات قدّم خوزيف كونراد رواية "العميل السري" والتي تعتبر رواية كاملة من حيث بناءها الفني. إنها تناقش السياسة الراديكالية في مدينة لندن والتي تعمل فيها الثوريون والفوضويون ضد الحضارة الغربية. والرواية هي نقد على هؤلاء الراديكاليين.

رواية "تحت عيون غربية"

كتب جوزيف في هذه الفترة إحدى رواياته الشهيرة المعروفة بـ "تحت عيون غربية". لعلّ هذه الرواية هي أكثر رواياته إنسانية. وهي إحدى الروايات الثلاث السياسية الصريحة التي كتبها جوزيف كونراد وهي من أفضل رواياته على وجه الاطلاق.

قصّة الرواية تبدأ بحياة طالب في جامعة سينت بيطرسبرغ اسمه "رازومو" والذي يستعد لأن يكتب مقالا ويأمل أن يفوز بميدالية ويضمن نجاح حياته المستقبلية. ورازومو شاب وحيد ليست له علاقات مع أي شخص وليست له أسرة وليست له أي علاقة مع السياسة أيضا.

لكن استقلاله من السياسة يتغير فجأة. بعد الرجوع إلى غرفته يوما، إنه اكتشف زميلا له باسم وكتور هالدين ينتظره. هالدين اغتال ضابطا سياسيا ويهرب من الاعتقال. هو يأتي إلى رازومو معتقدا بأنه يتعاطف مع القضية. والحق أن رازومو متعاطف معه إلى حدّ قليل وهو منزعج جدّا بحضور هالدين. ويرى رازومو بأنه سيُرى كشريك في المؤامرة، وحياته ستكون ضائعة إذا تم الكشف عن هالدين. وفي محاولة منه للنجاة منه، رازومو يرضي بأن يستأجر سائقا للذهاب به إلى الخارج. لكن الخطة تفشل حينما وجد رازومو السائق في غيبوبة سكرية وإذا ما تم الكشف عن هالدين، يقول رازومو بأنه يحقد على هالدين وممارساته ويعتزم لأن يحيل هالدين إلى السلطات بعد مخادعة هالدين. والشعور بالذنب يطارد رازومو.

وفي حال عدم العودة إلى وجوده السابق، وفي النهاية، يقرّر رازومو أن يعمل للسلطات كعميل مزدوج يتسلل إلى المركز الثوري الوطني السابق في فينسا. ويقنع رازومو نفسه بأنه يحفظ روسيا

من النشاطات الثورية، لكنه أيضا يريد أن يأخذ الثأر ضدّ هالدين وشركائه. رازومو ينجح في كسب ثقة الثوريين ويبدأ يقدم المعلومات عن نشاطاتهم. وفي فينسا، يلتقي رازومو بـ ناتهاليا وهالدين، وأخت وكتور، وأعجب بشخصيتها الأمينة والصادقة. رازومو يعزم بأن يعترف بدوره في القبض على هالدين أولا لناتهاليا وبعد ذلك للثوريين إذا إنه مزعج بالشعور بالذنب على مخادعته لهالدين. وبعد ذلك داست رازومو سيارة مسرعة وأصيب بجروح إذا أنه لم يكن يستطيع أن يسمع صوت تلك السيارة. وبعد العلاج يعود رازومو إلى روسيا ويعيش بقية حياته في المناطق الريفية.

وهذه هي قصّة الرواية وهي تركّز على ثلاث قضايا هامّة أساسية: الصراع الخلقي والنفساني، والسياسة، والعلاقات الإنسانية، والتصور الغربي عن الشرق.

وفي هذه الفترة قدّم جوزيف مجموعات قصصية أيضا.

الفترة الأخيرة

يكاد يتفق جميع النقّاد والكتّاب وحتى القرّاء لأعمال جوزيف كونراد على أن أعماله في الفترة الأخيرة بعد رواية "تحت عيون غربية"، انحطّت ميزتها الأدبية. ومعظم القرّاء يشيدون بعمله " The Shadow line" من هذه الفترة. وأحيانا يعتبرون عمله "الفوز" أيضا كذلك، لكن آراء النقّاد حول هذا الكتاب منقسمة إلى حدّ كبير.

ومعظم الأعمال في هذه الفترة كما ذكرت آنفا قد فقدت ثراء فكر كونراد الأدبي وغنى أسلوبه الفني. ولم تستطع الأعمال بهذه الفترة الأخيرة أن تبقى على تلك المزايا التي كانت تتسم بها أعماله في الفترتين السابقتين، الفترة الأولى والفترة الوسطى. وتشمل الأعمال التي قدّمها كونراد في

هذه الفترة الأخيرة روايات ومجموعات قصص قصيرة، إلا أنه مما يدعو إلى الاستغراب هو أن كتبه في هذه الفترة شهدت تزايدا في البيع. ولم تكن الحال كذلك في السابق. وربما يكون الأمر لأن بعض الأسواق الجديدة رحّبت بكتبه بعد أن وصلت إليها شهرة جوزيف كونراد. والروايات التي قدّمها في هذه الفترة تشمل رواية "الفرصة" ورواية "الفوز" ومجموعة قصصية باسم "داخل التيارات" ورواية "خط الظلّ" ورواية "سهم الذهب" وروايته الأخيرة الكاملة باسم "الملاح" ومجموعة قصصية باسم "حكايات الإشاعة" ورواية "الشك".

الفصل الثالث

الطيب صالح: مولده ونشأته، دراسته ورحلاته

عبقري الرواية العربية الطيب صالح يتبوأ مكانة مرموقة في الأدب العربي الحديث، وهو من الأدباء المحدثين العرب القلائل الذين ملأوا الدنيا وشغلوا الناس. أدبه جاء مفعما بأفكار غنية ومليئا بخبرات طويلة في دروب الحياة التي عاشها في العالم الشرقي والغربي كليهما. إنه حذق ثقافات عربية وغربية معا. أكسبه عمله في الإذاعة البريطانية بلندن خبرات واسعة في مجال الترجمة والكتابة الأدبية. واطلع العالم على أول نتاج روائي له باسم "عرس الزين" فأعجب به واستحسنه. وعلى الرغم من صيته الذائع وشهرته الفائقة إلا أنه كان من الكتاب المقلين. وفي ذلك يقول الدكتور خالد محمد غازي في كتابه " الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر": "ويعتبر "الطيب" واحدا من أكثر الروائيين العرب الذين نالت أعمالهم اهتماما عالميا وعربيا واسعا، سواء عبر الترجمة للغات أخرى، أو تناولها في دراسات أدبية متعددة، فأعماله بعيدة كل البعد عن روتينية الصنعة الروائية، ربما لأن في إبداعاته انبعاثات للأحداث، فهي تؤدي مهمة تتجاوز الحدث، مستلهمة من الواقع مونولوجاتها الداخلية، إنه يسترسل بحرفية عالية معتمدا على روعة أسلوبه السردي، متماشيا مع أسلوب السوداني البسيط المتصوف المشبع بعبق النيل والأرض المضمخة بعرق أبنائها..."[1]. ويقول الدكتور أحمد محمد البدوي بهذا الصدد: "علينا أن نتذكر دائما أن الطيب صالح ينبغي أن يساق

[1]. الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر، د. خالد محمد غازي، ص 10

نموذجا للنجاح الحافل وبلوغ الغاية في ذيوع الصيت، والمجد المؤثل الذي يملأ أوعيته ويربي، مثل فيضان النيل يغمر ما حوله ويكتسح"[1].

مولده ونشأته:

ولد هذا الأديب السوداني العبقري سنة 1929م في أسرة المزارعين متوسطي الحال، أسرته كانت تتسم بالزهد عن الدنيا والرغبة في الدين والقناعة. ولد في قرية كرمكول في إقليم مروى في شمال السودان بالقرب من قرية "دبة". وفي ذلك يقول الدكتور خالد محمد غازي في كتابه: "ولد الطيب محمد صالح أحمد في كرمكول قرب الدبة عام 1929م، تلقى تعليمه الأولى في "كتاب" قريته البسيطة، وشارك والده حياة الفلاحين من رعي الأغنام والزراعة وجمع التمر"[2]. نشأ الطيب صالح في بيئة إسلامية وتربي تربية دينية. "وقد نشأ الطيب صالح نشأة ريفية بإحدى قرى مركز مروى بالمديرية الشمالية، لوالدين ريفيين متوسطي الحال، وكان والده شيخا طيبا وقورا، ديّنا، يؤمن بأولياء الله الصالحين ويعتقد في شيوخ الصوفية، ويزور ضريح الشيخ "الطيب" في قريتهم، وقد سمى ابنه على اسم ذلك الشيخ تبركا"[3]. وكان هذا الشيخ صاحب الضريح هو أحد أجداد الطيب صالح الذين اشتهروا بالصلاح والتقوى من قديم، فالطيب صالح هو مسمى على جده[4]. أما أمه عائشة أحمد زكريا فإنها كانت ذكية جدا وشديدة الحفظ والذاكرة وكانت لها ميزة مؤثرة وتأثير كبير في تكوينه الثقافي حيث تعلم منها كثيرا من الأبيات الشعرية وروائع من الأدب الشفوي الثري. وفي ذلك يقول الدكتور أحمد محمد البدوي في كتابه نقلا عن حوار الطيب صالح مع أحد الكتاب:"لها ذاكرة قوية

[1]. الطيب صالح: سيرة كاتب ونص، الدكتور أحمد محمد البدوي، ص، 9
[2]. الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر، د. خالد محمد غازي، ص 10
[3]. القصة في الأدب السوداني الحديث، الدكتور محمد زغلول سلام، ص 110
[4]. الطيب صالح: سيرة كاتب ونص، الدكتور أحمد محمد البدوي، ص، 21

وشديدة الحفظ، تقف في حلقة المديح، فتحفظ كل ما يقال، وإذا حضرت حفل زفاف تحفظ الأغاني التي يرددها المغنون والمغنيات، وقد سمعتها مرارا تروي المدائح والأغاني وشعر الدوبيت"[1].

وهذه هي البئية التي ولد فيها الطيب صالح ونشأ فيها وترعرع، وقد لازمته ذكرياته الحلوة في عهد طفولته في هذا الجو الريفي الهادئ الوادع في قريته في شمال السودان مدى حياته، ولم ينس تجاربه في ذلك العهد حتى ولو زار بلدانا كثيرة وشاهد مدنا وحضارات عديدة. وفي ذلك يقول الدكتور خالد محمد غازي : "ورغم إقامته في أوروبا لسنوات ليست قليلة، فإنه كان يعتز بعروبته، ولا ينسى أبدا أنه مولود لعائلة أساسها من المزارعين ومعلمي الدين الإسلامي، بإقليم "مروى" شمال السودان، وتحديدا بـ"كرمكول" القريبة من قرية "دبة الفقراء" إحدى قرى قبيلة "الركابية" المعروفة".[2]

دراسته ورحلاته:

ولقد رأينا فيما مضى بأن الطيب صالح نشأ نشأة دينية في بيئة ريفية. ولقد شكلت له أسرته المدرسة الأولى في حياته. وكعادة الأطفال في عهده فإنه تلقى "تعليمه الأولى والأوسط في قريته، فقرأ القرآن وتعلم بعض العلوم الأولية، ثم انتقل إلى ثانوية "وادي سيدنا" شمالى أم درمان ونجح في الشهادة الثانوية بتفوق أهّله لدخول كلية العلوم بجامعة الخرطوم"[3]. "وكحال السودانيين في عهد طفولته، فإنه أولا التحق بإحدى الخلاوي التي هي مدارس إسلامية تدرّس التعاليم الدينية، وبعد

[1]. لطيب صالح: سيرة كاتب ونص، الدكتور أحمد محمد البدوي، ص، 20
[2]. الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر، د. خالد محمد غازي، ص، 9-10
[3]. القصة في الأدب السوداني الحديث، الدكتور محمد زغلول سلام، ص 110، 111

ذلك التحق بالمدارس المستعمرة العلمانية التي أنشأها الحكومة الاستعمارية الإنجليزية للتعليم النظامي في السودان"[1].

وكان هذا الانتقال من تعليم الخلوة إلى التعليم النظامي العلماني للطيب صالح بمثابة تغيير عنيف جرّبه فيما بعد من خلال سفره إلى لندن وتأثره بالثقافة الغربية بشكل عام وتأثره بقناعات وأفكار فرويد بشكل خاص. وهذا التأثر كان له أثر بالغ في تكوينه الثقافي والذهني. "وتخرج في المدرسة الثانوية الوحيدة في منطقته... وجاء إلى الخرطوم، ليلتحق بكلية جردون التذكارية (الزراعة) – لاحقا جامعة الخرطوم- لكنه لم يكمل الدراسة بها لأنها لم تناسب ميوله، وانصرف إلى العمل مدرسا في صفوف المرحلة المتوسطة"[2]. دخل الطيب صالح جامعة الخرطوم لكن ميوله لم تكن علمية، وقد ألفى نفسه مولعا بالأدب الإنجليزي، وكان يحضر محاضرات الأدب الإنجليزي، وفي ذلك يقول الدكتور محمد زغلول سلام: "لكن ميوله لم تكن علمية، بل كانت نفسه تميل به نحو الأدب، وحاول أن يغيّر اتجاه دراسته إلى كلية الآداب، لكن لوائح الجامعة وقفت عقبة في طريقه، وقضى بكلية العلوم عامين، لم يستطع بعدهما إتمام الدراسة فاختار طريق التعليم"[3].

ولوعه باللغة الإنجليزية وإحباطه في الحصول على التعليم العالي:

ولما وصل الطيب صالح إلى مرحلة الثانوية، وبدأ يدرس اللغة الإنجليزية، فإنه وقع في حبّها، كما يقول الطيب صالح نفسه بهذا الشأن: "وعندما بدأ يتعلم اللغة الإنجليزية، فإنه أحس بأنه دخل

[1]. Tayeb Salih's Season of Migration to the North: An Ideo-Literary Evaluation, Dr. Abdel Rahman Mohd Yeddi Elnoor, p. 48

[2]. الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر، د. خالد محمد غازي، ص، 20

[3]. القصة في الأدب السوداني الحديث، الدكتور محمد زغلول سلام، ص، 111

في عالم جديد للرموز التي تحتاج إلى فكّ شفرتها"[1]. ويضيف أيضا قائلا: "إن الإنجليز كانوا حريصين على تخريج نخبة من الطلاب السودانيين الذين يصبحون موالين لهم ولحكومتهم. ولأجل ذلك إنهم عنوا عناية خاصة بأولئك الذين كانوا متفوقين في اللغة الإنجليزية وهو يدّعي بأنه كان أفضل طالب في اللغة الإنجليزية من بين أقرانه، وبسبب ذلك اختاروه لإلقاء محاضرة بمناسبة استقبال حاكم مستعمِر."[2] وقد وعده ناظر المدرسة بمنحة دراسية للتعليم العالي خارج البلاد لو تفوق في دراسته، فهو يقول: "وبما أنني كنت من أولئك الذين كانوا قد تفوقوا في اللغة الإنجليزية، فإن ناظر المدرسة مستر لانغ قال لي بأنني لو أحصل على درجة ممتازة في الاختبار النهائي، فإنه سيتم إرسالي للتعليم الجامعي إلى جامعة كامبريج أو جامعة أكسفورد"[3]. ثم انتقل الطيب صالح بعد ذلك إلى المدرسة الثانوية في وادي سيدنا، حيث حصل منها سنة 1947م على شهادة كامبرديج للثانوية العامة بالدرجة الأولى، وتتلمذ على جمال محمد أحمد وتحولت هذه العلاقة إلى صداقة ورعاية من جمال محمد لموهبته، ثم التحق بكلية العلوم في مدينة الخرطوم.

ولكن يبدو أن جميع طموحاته الأكادمية للتعليم العالي كانت محبطة إلى حد ما، وكانت الفترة ما بعد الدراسة في المدرسة الثانوية فترة اختلاط بالنسبة له جراء دراسته لمادة العلوم الزراعية وولوعه بالأدب. وهو يقول: "في الحقيقة كنت أرغب في دراسة الأدب حتى نصحني ناظر المدرسة الثانوية في وادي سيدنا بأن التحق بكلية الآداب ولكن كنت مولعا بدراسة العلوم الزراعية"[4].

---

[1]. Tayeb Salih's Season of Migration to the North: An Ideo-Literary Evaluation, Dr. Abdel Rahman Mohd Yeddi Elnoor, p. 48

[2]. نفس المصدر، ص: 49

[3]. نفس المصدر، ص: 49

[4]. نفس المصدر، ص: 49

إنه كان يريد أن يدرس الزراعة بسبب العلاقة الوثيقة بين الزراعة والبيئة السودانية. لكنه لم يكمل دراسته في الأدب ولا في الزراعة، بل التحق بكلية العلوم إلا أنه لم يواصل دراسته وبدا أنه يخفي رغبة دفينة في دراسة الأدب الإنجليزي، ورغم أنه كان طالبا في كلية العلوم، إلا إنه كان يحضر في المحاضرات الأدبية في كلية الآداب، وكان يشارك في المناقشات الأدبية حول النزعات الرومانسية، وصار وجها مألوفا لدى أستاذ إنجليزي يدرّس الشعر الرومانسي كما يقول: "كان يحاضر هناك أستاذ انجليزي يُدعى مستر هارت شاركتُ أحيانا في النقاش خصوصا حين يتحدثون عن: كيتس وشلي، وربما لفت انتباه مستر هارت حين كنت أناقشه، وفي إحدى المرات، وبعد أن انتهى من إلقاء محاضرته، استفسر قائلا: من أين تأتي؟ أنت لست من طلابي؟! وعندما قلت له إنني أدرس في كلية العلوم، وكان يحتقرها جدا، ويسميها المدرسة الأخرى"[1].

اقترح عليه مستر هارت أن يلتحق فورا بكلية الآداب، ولكن اختلط الأمر عليه كما هو يعترف بنفسه: "وعلى رغم ضيقي من المواد العلمية، فإن مستواي كان جيدا، ولكن حدث اختلاط في ذهني، بين رغبتي الدفينة، وربما تجاوبي مع المواد الأدبية، وبين مسألة تشريح الصراصير والفئران في كلية العلوم"[2]. ولأجل هذا فقد حاول الانتقال من فرع العلوم إلى الأدب ولكن من سوء حظه، منعته قوانين الجامعة لمثل هذا الانتقال من العلوم إلى الأدب، والتي لأجلها أحبطت جميع محاولاته ووقعت عقبة في طريقه، ففشل في مواصلة دراسته في كلية العلوم، وقضى بتلك الكلية سنتين لم

[1]. الطيب صالح ملامح من سيرة ذاتية نقلا عن كتاب صالح سيرة كاتب ونص، ص: 15

[2]. نفس المصدر، ص: 16

يستطع إتمام الدراسة فيهما، وبعد ذلك اتخذت حياته وجهة جديدة مغايرة لطريق الجامعة، كأنه انفلت من الأسر ومضى يسافر إلى سبيل جديد.

ومهما كانت الظروف، فقد كان انقطاع مواصلته الدراسية تجربة مريرة في حياته، كما كان اختيارا خاطئا دفعه إلى اتخاذ مثل هذه القرارات. إنه ترك الجامعة في عام 1951م، وسافر إلى إنجلترا حيث واصل دراسته في الشؤون الدولية، وتخرج فيها، وعمل بالهيئة الإذاعة البريطانية في مدينة لندن، وترقى في فترة قصيرة إلى نائب رئيس ثم رئيس قسم الدراما، وتزوج هناك من امرأة بريطانية اسمها جولي صالح، فقد رزق منها ثلاث بنات: زينب وسارة وسميرة. وفي ذلك يقول الدكتور خالد محمد غازي: "ظلّ بعيدا عن وطنه معظم حياته، عمل في هيئة الإذاعة البريطانية أكثر من عشرين سنة حتى صار رئيسا لقسم الدراما، وفي عام 1974م قدّم استقالته من تلك الإذاعة التي كانت أكثر الإذاعات انتشارا في العالم العربي. سافر بعدها لدولة قطر وشغل منصبا رفيعا بوزارة الإعلام والثقافة القطرية.. ثم عمل ممثلا لليونسكو في باريس.. وكانت لندن هي محطته التي يعود إليها دوما التي تزوج فيها من الأسكتلندية جوليا ماكلين عام 1965م، وأنجب ثلاث بناتٍ هن زينب وساره وسميرة، وحياته مثلما هي كتاباته، لم تكن سوى محاولة لردم الهوة فيما بين شرق وغرب"[1].

رحلاته:

قام الطيب صالح في حياته بعدة رحلات علمية ووظيفية مهمة داخل العالم العربي والغربي. وهذه الرحلات لعبت دورا رئيسيا في مشواره العلمي والأدبي، وهي أثرت في رؤيته، وشحذت بيانه وفكره، وأغنت أدبه وثقافته. وقد مر بنا فيما سبق بأن الطيب صالح سافر إلى إنجلترا ومكث فيها

[1]. الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر، د. خالد محمد غازي، ص 21

سنوات عديدة يعمل ويزيد من خبراته، وينهل فيها من مناهل العلم والمعرفة فيزداد علما وفنا وأدبا. وقبل ذلك سافر من قريته إلى جامعة الخرطوم ليلتحق بكلية العلوم. وقد رأينا كذلك بأنه لم يستطع إكمال دراسته الجامعية في الخرطوم لأجل الاختلاط الذي وقع فيه بين العلوم والأدب. وأخيرا نراه يميل إلى ما أوحت به نفسه وأهدته إليه طبيعته، فقرّر لأن يسافر إلى إنجلترا. ورحلته إلى إنجلترا هي أول رحلة قام بها خارج بلاده وكان ذلك في عام 1953م، وهي نفس السنة التي ظهر فيها أول إنتاجه الأدبي في شكل قصية قصيرة باسم "نخلة على الجدول". وفي ذلك يقول الطيب صالح نفسه: "وفي تلك الفترة وتحت وطأة الحنين إلى أهلي، وبلدي وعشيرتي، كتبت قصة "نخلة على الجدول" عام 1953م"[1].

قصة "نخلة على الجدول" تشكل نواة أدب قصصي غني أنتجه الطيب صالح في حياته. وفي لندن وأتاه الحظ، فسنحت له الفرصة للعمل في هيئة الإذاعة البريطانية. فعمل بها عدة سنوات في قسمها العربي، وترقى بها حتى وصل إلى منصب رئيس قسم الدراما فيها. "القسم العربي في الإذاعة البريطانية يعيش أوج مجده، بعد رواجه إبان الحرب الثانية، فإلى جانب العناية بالخير التي ميزته، أولى اهتماما خاصا للمجال الثقافي، فاستقطب كوكبة من الكتاب العرب، يقدمون موادهم مسجلة بأصواتهم. بيد أن السودان يحظى بمكانة خاصة، تزاحم أي بلد آخر، لم يلقها السودان أو السودانيون من بعد في كل الإذاعات العربية، لعل ذلك يعزى إلى حقيقة أن السودان مستعمرة بريطانية وأن عددا كبيرا من المثقفين السودانيين يفدون إلى لندن... تجربة الطيب صالح في القسم العربي تمثل الصعود إلى قمة الجبل، على صعيد الأداء في مجال الكتابة، وعلى صعيد الوعي والارتقاء

[1]. الطيب صالح: سيرة كاتب ونص، الدكتور أحمد محمد البدوي، ص، 44

الثقافي، فسنوات لندن في كنف هيئة الإذاعة البريطانية هي السنوات الخطرة التي شهدت عنفوان القلم. كتب أثناءها معظم أعماله وأهمها، ونشرها في الآفاق صافية ومترجمة، حيث دانت له الشهرة، وتأتى ذيوع الصيت"[1].

وأثناء عمله في هيئة الإذاعة البريطانية التحق الطيب صالح بإحدى جامعات لندن وحصل منها على شهادة في الشؤون الدولية، وبقي يعمل في هيئة الإذاعة البريطانية بجد ونشاط حتى استقال منها عام 1974م. وبعد استقالته منها سافر إلى دولة قطر في نفس السنة. "وفي عام 1974م، ذهب إلى الدوحة، مديرا لوزارة الإعلام القطرية، ثم انتقل إلى هيأة اليونسكو، وأقام في باريس مدة إلى أن عاد لندن مؤخرا"[2]. وفي قطر عمل في وزارة الإعلام مديرا ومشرفا على أجهزتها، وعاش فيها فترة طويلة من حياته كما يقول:" عملت في قطر كمدير لوزارة الإعلام على امتداد ما يناهز ستة أعوام ...وهي أطول فترة قضيتها في أي بلد عربي خارج السودان"[3].

ولقد أحب هذا البلد حبا جما كما يقول: "البلد الآخر الذي عرفته وأحببته هو قطر"[4] ويقول في موضع آخر: "في قطر تأسس الود بيني وبين الناس من كل صنف"[5]. إنه ساهم في إثراء الثقافة العربية وتطورها بشكل عام، كما يقول الدكتور حمد بن عبد العزيز الكواري، وزير الثقافة والفنون والتراث في قطر: "نحن في قطر نقول بالصوت الجهير والقوي: نعتز بأن الطيب صالح قطري، فهو

[1]. الطيب صالح: سيرة كاتب ونص، الدكتور أحمد محمد البدوي، ص، 48، 49
[2]. نفس المصدر، ص، 83
[3]. كتابات سودانية العدد 47 أبريل 2009م، ص: 153
[4]. نفس المصدر، ص: 153
[5]. نفس المصدر، ص: 153

عمل في الدوحة فترة طويلة وعمل كقطري مخلص وتقلد أعلى الوظائف في الإعلام وأرسى قواعده، وأيضا ساهم مساهمة كبيرة جدا في إثراء الثقافة وتطورها في قطر"[1].

ثم تهيأت له الفرصة أن يسافر إلى باريس في بداية الثمانينات من القرن العشرين، فالتحق هناك بمنظمة اليونسكو، وعمل بصفته مديرا إقليميا لهذه المنظمة الدولية، وفي عام 1987م تم تعيينه كممثل لهذه المنظمة في الخليج العربي، فعاد إلى دولة قطر وأقام في الدوحة. وكانت رحلة الطيب صالح إلى مدينة أصلية في المغرب عام 1980م كما تفيد صحيفة "الشرق الأوسط": "قرر مجلس بلدية أصلية إطلاق اسم الأديب السوداني الراحل الطيب صالح على حديقة كبرى كانت في الأصل مصلى، أدى بها الطيب صالح صلاة العيد في أول زيارة له للمدينة عام 1980م"[2].

والطيب صالح بنفسه يتذكر هذه المناسبة وهذه الأيام، فهو يقول: "عندما بدأت أزور المغرب، وجدت فيه إلى جانب جمال الطبيعة وطيبوبة المغاربة، أشياء كثيرة أثارت ذاكرتي وشحذتها، ولا أنسى أنني صادفت عيد الفطر ذات مرة في أصيلة وأخذني الأخ محمد بن عيسى (وزير الخارجية آنذاك) لصلاة العيد، فاكتشفت أن نفس طقوس هذه الصلاة نقوم بها في السودان"[3]. وقد أحب الطيب صالح دولة المغرب وأهلها وأعجب بثقافتها الغنية، واعتبرها امتدادا طبيعيا للكيان العربي الواسع وثقافته وتراثه، كما يقول: "المغرب جزء من كياني العربي الواسع، وجزء أكبر من وجداني ...

[1]. صحيفة "الوطن" الصادرة من قطر العدد 5648، 19 فبراير 2011م

[2]. صحيفة "الشرق الأوسط" الصادرة من لندن العدد 11203، 31 يوليو 2009م

[3]. كتابات سودانية، العدد 47 أبريل 2009م، ص: 149

وفيها أحس بأنني في مدينة أم درمان بالسودان، نفس التداخل بين الثقافات: ثقافة الصحراء، ثقافة المدنية، الثقافة الزنجية، العروبة، الإسلام والثقافة البربرية"[1].

وبينما كان الطيب صالح يعمل في هيئة الإذاعة البريطانية، فإنه قد سنحت له الفرصة للسفر إلى لبنان عدة مرات، وقد أقام فيه أحيانا لفترة طويلة وهو يقول بهذا الصدد: "لبنان الذي عرفته وتعلقت به كان "لبنان لندن" وأول ما قابلت لبنانيين في حياتي لأول مرة قابلتهم في لندن ثم جاءت رحلاتي إلى لبنان يوم اشتغالي في البي بي سي. ذهبت إلى هناك عدّة مرات، وعشت فترات امتدت أحيانا قرابة سنة. وهناك تعرفت إلى الكثير وعلى الكثير من اللبنانيين، كتابا وشعراء، أذكر منهم مثلا يوسف الخال، أدونيس، أساتذة في الجامعة اللبنانية"[2]. وفي مكان آخر يذكر: "لبنان أكن له أعجابا وحبا كبيرين ... ولبنان هي أرض الأريحية"[3].

والطيب صالح كان يتردد أيضا على عاصمة المملكة العربية السعودية، الرياض، وخاصة خلال مهرجان الجنادرية السنوي الذي ينظمه الحرس الوطني السعودي. فكان يزوره ويلتقي مع أصدقائه وأقربائه هناك، ويقضي بعض أيامه وأوقاته بينهم في جو من المحبة والأنس والألفة، وإنه لم يكن يستقر في مكان واحد، بل كان يتجول في أماكن عدة كما يقول الإعلامي والروائي السوداني خالد عويس: "تعرفت إلى الطيب صالح والتقيت به على هامش مهرجان الجنادرية في العاصمة

[1]. كتابات سودانية، العدد 47 أبريل 2009م، ص: 149

[2]. نفس المصدر، ص: 152

[3]. نفس المصدر، ص: 153

السعودية (الرياض) عام 2001م، ثم تكررت اللقاءات، مرات في الرياض، ومرة في لندن ومرة في دبي"[1].

ويتضح من هذا كله بأن الطيب صالح كان كثير الرحلات والسياحة. ويمكن القول بأن حالة الترحال والسياحة والتنقل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب أكسبته خبرات واسعة في الحياة والأدب والفن. ومن الجدير بالذكر بأن رحلاته لم تقتصر على هذه الدول المذكورة فقط، بل إنه قام برحلات عديدة في عديد من دول العالم العربي كمصر وتونس والعراق، والعالم الغربي كالسويد والولايات المتحدة الأميركية وغيرها من الدول الشرقية والغربية.

[1]. صحيفة "المدينة" الصادرة من المملكة العربية السعودية، 25 فبراير 2009م

الفصل الرابع

أهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته ونبذة عن أعماله

لقد مر بنا فيما مضى بأن الطيب صالح مرّ في حياته بمراحل مختلفة، وعاش حياة حافلة بتجارب عديدة وخبرات واسعة. انتقل من مهد الطفولة العذوبة بين الحقول والمزارع في الريف السوداني إلى مركز التقدم الثقافي والحضاري بلندن بمساعيه الحثيثة وجهوده الدؤوبة. وقد هيّأ له القدر ليتولى رئاسة قسم الدراما في هيئة الإذاعة البريطانية مما صقلت لغته، وشحذت عزيمته وأوقدت حماسته في الكتابة الأدبية.

عاش حياته بين عالمين شرقي وغربي، نشأ وترعرع بين المزارعين وجرّب حياتهم، كما خبر حياة العلماء والكتاب والأكاديميين. قرأ الأدب العربي وسبر أغواره، كما درس الأدب الإنجليزي والغربي دراسة عميقة. وقد أمدته في بناء صرحه الأدبي والثقافي عناصر عديدة، ورعت أدبه وسقته روافد ثقافية وأدبية عديدة. وفي ذلك يقول الدكتور خالد محمد غازي في كتابه: "وكانت سيرة حياته وتجاربه ومعايشته لتجارب الآخرين، هي مصادر إلهامه الرئيسية في كتابة رواياته، ثم كان تنقله بين عدة مواقع مهنية، مصدرا لاتساع خبرته بواقع العرب وآلامهم وآمالهم. فهو في تنقل دائم بين المحيط والخليج، بين المشرق والمغرب، ولم يجعله كل ذلك الشرق وكل ذلك الغرب ينسى أنه ابن جنوب الأرض، التي هاجر إلى شمالها بحثا عن الحياة الأفضل"[1].

ومن أهم الميزات التي نجدها في حياة وأدب الطيب صالح هو أنه على الرغم مما نالاه من عز وجاه وما أكسبه أدبه من صيت وذيوع في العالم العربي والغربي، إلا أنه لم ينس أصله وجذوره، بل

[1]. الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر، د. خالد محمد غازي، ص، 10

إننا نراه ينساب إلى التغني بجذوره وسودانيته في أدبه انسيابا، ويحن إلى وطنه الحبيب إلى قلبه حنين العاشق لمعشوقه. ولعلّ ما نجد في قصصه وأدبه من تصوير دقيق لأرض السودان وطبيعتها وبيئتها، وشروق شمسها وغروبها، وكد رجالها وزغردة نسائها، وما نجد فيه من رسم لشخصيات سودانية في مرحها وضحكها، وبكائها وحزنها، وحياتها وموتها، ففي كل ذلك نرى سمة واضحة من سمات السودان والسودانيين، ولعل الدكتور خالد محمد غازي يشير إلى دور هذه العناصر والروافد في بناء شخصية وأدب الطيب صالح حيث يقول:

"لقد كان للبيئة السودانية الريفية موقع الصدارة في أدبيات الطيب صالح، فهو يتمثلها في معظم المواقف، شكلا وموضوعا. ولعل ذلك يعود-كما يقول د. حسن أبشر الطيب- إلى ثلاثة أسباب رئيسية:

أولها: تلك الذكريات الدافئة الحميمة التي التصقت بذاكرة الطيب عن سنوات طفولته وصباه الباكر التي نعم فيها بالحياة في قريته تلك الوادعة الهانئة بين أحبائه وأترابه. قرية تماثل "ود حامد" في الشكل والجوهر.

وثانيها: أن غربته لسنوات طوال قد عمقت في ذاته هذا الالتصاق الحميم ببيئته وكثفت اعتزازه بها، لانتمائه الصادق لها، ولما رأى من تناقضات لا تماثل طبعه وذوقه في بيئات أخرى.

وثالثها: أن غربته قد منحته الفرصة للنظر من بعد بغية استقراء واستجلاء دقائق الحياة في بيئته، تلك البريئة الوارفة الظليلة بعطائها الوافر ومواطنيها الطيبين لواحد من هذه الأسباب، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة، ظل الطيب صالح حفيا ولصيقا ببيئة قريته الوادعة الخيرة المسترخية على شاطئ

النيل، وهو يتمثلها في الكثير من المواقف في كل أعماله الروائية. شاعرية موحية، وكان نبعا ثريا لإيحاءات بكر، وتشبيهات مبدعة، وتصرير بارع مفعم بالشفافية والقدرة على تجسيد الاستعارة، والاستعارة، كما قال أرسطو "هي دليل العبقرية"[1].

ومن أهم الروافد الثقافية الغنية الخصبة التي شحذت خيال الطيب صالح وغذته هو رافد البيئة الريفية السودانية الوادعة التي تربى فيها. وفي ذلك يقول الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه: "وكانت حياة "الطيب" في بيئته الريفية في الشمالية، وفي أم درمان والخرطوم وفي لندن نبعا ثريا لقصته، واستأثرت ذكريات طفولته وصباه بقريته بالجانب الأكبر من قصصه، فكان ما اختزنه عن بلده موردا يملي منه قلمه في غربته بلندن حيث كتب معظم إنتاجه وبعث به إلى الصحف والمجلات العربية. ودعم هذا المورد الأساسي قراءات عديدة متنوعة في الأدب الإنجليزي لكبار الكتاب والشعراء"[2].

ولعل مما يكمل صورة التكوين الثقافي للطيب صالح في طفولته بين عشيرته ما نجده في قول الطيب صالح في حوار له مع أحد الكتاب حيث يقول: "نحن منطقة نخيل..كنت مشاركا لحياة الناس في هذه البيئة، كنت أزرع وأحصد وأرعى الحيوانات... هذه البيئة التي عشت فيها كانت ثرية ثقافيا"[3].

ومن العناصر المهمة التي ساهمت في تكوينه الثقافي هو عمله في هيئة الإذاعة البريطانية:

ولقد مر بنا فيما سبق بأن الطيب صالح بعد أن ترك جامعة الخرطوم واتجه صوب الشمال ووصل إلى لندن، وبدأ يعمل في هيئة الإذاعة البريطانية، فإنه وجد رافدا آخر غذّى شعوره، وأغنى

[1]. الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر، د. خالد محمد غازي، ص، 8
[2]. القصة في الأدب السوداني الحديث، الدكتور محمد زغلول سلام، ص، 111
[3]. الطيب صالح: سيرة كاتب ونص، الدكتور أحمد محمد البدوي، ص، 22

فكره وأدبه، وأثرى ثقافته. وفي ذلك يقول الدكتور أحمد محمد البدوي في كتابه: "تجربة الطيب في القسم العربي تمثل الصعود إلى قمة الجبل، على صعيد الأداء في مجال الكتابة، وعلى صعيد الوعي والارتقاء الثقافي... ومثلما أفاد الطيب صالح من بيئته العربية الحديثة الراقية في القسم العربي، فإن له مشاركة مشهودة في تطويرها، لأن العربية الحديثة تبلغ ذروة صفائها وتتخذ زينتها في روايات الطيب صالح وقصصه القصيرة"[1].

أثر الثقافة الغربية فيه:

وإذا أمعنا النظر في تأثير الثقافة الغربية في حياة الطيب صالح، فإننا نجد بأنه بذل جهودا كبيرة لكي لا تنقطع صلته وعلاقته بجذوره السودانية وأصله العربي. لكنه على الرغم من ذلك وجد بأن البيئة الإنجليزية بدأت تمارس نفوذها عليه، وقد رأينا أن ذلك حدث له في كلية غردون (لاحقا عرفت بجامعة الخرطوم) في السودان، حيث وجد نفسه موزعا بين شيئين، بين ولوعه بالأدب وصلته بدراسة العلوم الزراعية، وبين حضوره للمحاضرات الأدبية الإنكليزية التي كان يلقيها أستاذ إنجليزي. وعندما جاء إلى لندن، وجد أن المجتمع الغربي هو يبدو مغايرا تماما من المجتمع السوداني، وبدأ يضيق صدره من اليوم الأول حتى بدأ يفكر في أن يعود إلى بلده، لأنه لم يقدر على التأقلم مع هذه البيئة الجديدة، ولم يستطع التكيّف مع هذا المجتمع الجديد بالنسبة له. وقد نصحه أحد أساتذته الإنجليز بالذهاب إلى أستاذ إنجليزي آخر يقيم في لندن. وبالتالي قدّمه هذا الأستاذ إلى الأصدقاء وساعده على الالتحاق بالأندية الأدبية التي كان يزدهر فيها نشاط ثقافي وأدبي كبير. فبدأ يتكيّف مع هذه البيئة الإنجليزية وهذا الواقع الاجتماعي في لندن، إلا أنه لم يتمكن من الاحتفاظ بكل جذوره

[1]. الطيب صالح: سيرة كاتب ونص، الدكتور أحمد محمد البدوي، ص، 49، 51

الثقافية، بل انصهر في التيار الجارف للمجتمع الغربي والثقافة الغربية. إنه قدم إقتراحات عديدة للتعرف على المجتمع الإنجليزي، وهو يقول: "كان من ضرورات التأقلم أن يتخذ الشخص صديقة، لمساعدته في الاندماج والتعرف على البلد، ... فإذا أردت الذهاب إلى السينما أو المسرح أو المطعم، لا بد لك أن تذهب مع صديقتك"[1].

فكان الاختلاط بالمرأة في المجتمع الإنجليزي المفتوح شيئا عاديا لا يأبه به أحد، فهو يقول في حوار جرى معه: "جين مورس شخصية حقيقية، ولكنها ليست نفسها في الرواية، تعرفت عليها في الشهر الأول من وصولي إلى لندن عام 1952م، في المتحف الوطني قابلت فتاة جذابة حقا ... كان في المتحف آنذاك معرض عن الفن الانطباعي، وبعدين ... تحدثنا مع بعض، وسألتني من أين أنا إلى آخر ذلك ... وكنت في ذلك الحين فتى يافعا ... وبعد أن خرجنا من المعرض وذهبنا إلى مقهى، وأمضينا بعض الوقت في الحديث في أمور عامة، وبعد ذلك لم أرها قط"[2].

وفي هذا القول نجد رمزا لعلاقة الرجل بالمرأة في المجتمع الغربي المفتوح، حيث يلقاها الرجل في أماكن العمل والنوادي وغيرهما، ويتبين لنا من هذا بأن الثقافة الغربية أثرت فيه تأثيرا كبيرا. وهنا أذكر بعض الفقرات من المحادثة التي دارت بينه وبين زميله، المذيع الفلسطيني، أكرم صالح، لنعرف مدى انفتاحه على المجتمع الغربي وتأثره بالثقافة الغربية:

"الطيب: وأنت لماذا لم تتزوج البنت التي كانت تجيئك من كامبردج؟

أكرم: آه كانت عظيمة، بس الرائعة فعلا كانت الكندية!

[1]. ملامح من سيرة ذاتية نقلا عن كتاب الطيب صالح سيرة كاتب ونص، د. أحمد محمد البدوي، ص:61

[2]. تحولات الشوق في موسم الهجرة إلى الشمال، د.محمد شاهين، نقلا عن كتاب الطيب صالح سيرة كاتب ونص، ص: 62

الطيب: المتدينة بتاعة الكريستيان سنيس، كانت امرأة فارهة.

أكرم: وأنت ألم تحبك البنت التي أهلها بيصنعوا المربى الشهيرة؟

الطيب: كل مرة أشتري هذا النوع من المربى أتذكرها، كانت رسّامة ومتقلبة الأطوار، تحبك اليوم وتكرهك غدا.

أكرم: ياباي! أهلها كانوا مليونيرات كان عندهم أكبر محل لبيع لعب الأطفال في لندن.

الطيب: أرسلوها في رحلة بحرية طويلة إلى جنوب افريقيا لتنسى!

كنا نتصرف كأننا جنود في جيش غاز، في مدينة مفتوحة ... لعل هذا ما عنيته حين قلت على لسان مصطفى سعيد في موسم الهجرة: إنني جئتكم غازيا في عقر داركم، قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ.

أكرم: لخصتنا جميعا في شخصية مصطفى سعيد!

الطيب: أخذت روح تلك الفترة، والجيل الذي سبقنا، بعض الناس يظنون أن مصطفى سعيد شخص بعينه، بعضهم يقول إنه أنا، واضح أن الأمر ليس كذلك، هذه شخصية خيالية فيها ملامح من مئات الناس"[1].

وهذا يدل على اختلاط الرجل بالمرأة وانفتاح الطلاب العرب على الثقافة الغربية، والانحطاط الخلقي السائد في المجتمع الغربي، إلا أنه كانت هناك مجموعة متدينة في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، والتي كانت تحافظ على صلاتها وصيامها، وكان الطيب صالح رجلا متدينا يقوم بالفرائض

[1]. الطيب صالح سيرة كاتب ونص، أحمد محمد البدوي، ص: 63-64

الدينية أثناء إقامته في الجامعة السودانية حيث كان يواظب على صلواته وصيامه، وكان يُعد من رواد الحركة الإسلامية آنذاك، ولكنه لم يتمكن من الحفاظ على هذه الأشياء في غربته، وانصهر في التيار السائد إلى حد ما كما يقول هو بنفسه: "كنا قد صلينا وصمنا قبل أن نجيء غضضنا أبصارنا وحفظنا فروجنا، ولكن أحدا لم يهيئنا لذلك اللقاء الرهيب"[1].

ونحن نعرف بأن أي إنتاج أدبي أو عمل أدبي إنما هو بالضرورة يعبر عن ميول وآراء وأفكار الكاتب أو الأديب الشخصية. ونعرف كذلك بأن الميول الشخصية لأي كاتب تتشكل في البيئة الثقافية التي ينشأون فيها. وبما أن الطيب صالح مكث وأقام في لندن، وقرأ الأدب الإنجليزي بشغف ونهم، واطلع على أفكار المفكرين والفلاسفة والأدباء الأوروبيين، فإنه تأثر بهم. ومن بينهم نجد اسم سيغموند فرويد، والذي كان الطيب صالح متأثرا به. فها هو يعترف بذلك: "إنني وقعت تحت نفوذ فرويد وتأثرت به ... وقرأت أكثر من مرة "الحضارة وتبرمها"[2]. ويتبين لنا من هذا القول بأن الطيب صالح كان متأثرا بأفكار سيغموند فرويد والتي أثرت فيه وفي كتاباته الأدبية والعلمية، وإبداعاته الفنية.

وعلى الرغم من تأثره بالثقافة الغربية، إلا أننا لا نستطيع أن نقول بأنه انغمس في المجتمع الغربي بخيره وشره تماما، وانقطع عن جذوره وأصله وأهله ومجتمعه السوداني العربي. بل نجد في حياته بأن علاقته بالثقافة السودانية المفعمة بالتقاليد القديمة الغنية التي تربط الفرد بمجتمعه، كانت موجودة معه في حياته أينما حلّ، وأينما ذهب، وأينما عمل.

---

[1]. نفس المصدر، ص: 67

[2] Tayyeb Saleh's Season of Migration. موسم الهجرة إلى الشمال، دراسة استقصائية، منى تقي الدين أميوني نقلا عن كتاب to the North, An Ideo- Literary Evalualion. Dr Abdul Rahman Mohamad Yeddi Elnoor, p.52.

وفيما يتعلق الأمر بتأثير الثقافة الغربية والأدب الغربي في موهبته الكتابية، فإننا نجزم القول بأنها صقلت مواهبه، وشحذت مقدرته على الكتابة. وقد استفاد الطيب صالح من الأدب والثقافة الغربيتين استفادة كبيرة. وقد تحول حذقه للثقافتين العربية والغربية إلى مصدر خصب وغني للثراء الفكري والأدبي. ونتيجة لذلك جاء أدبه تتويجا لغناه الفكري وثراه الثقافي والفني.

عبقرية الطيب صالح:

كان الأديب الألمعي الأريب الطيب صالح رجلا مثقفا وأديبا بارعا وروائيا مبدعا. وقد أطلق عليه نقاد العرب بـ"عبقري الرواية العربية"، وكتبت عنه مجلة "العربي" الكويتية "بأنه واحد من أجمل الهدايا التي قدمها السودان الشقيق للثقافة العربية"[1]. إنه رحل من الجنوب (السودان) إلى الشمال (لندن)، ولم تكن هذه الرحلة فرارا من الجنوب، وامتعاضا منه وتقززا منه. بل نراه يحمل معه ثقافته وثقافة وطنه وتقاليده أينما حلّ وذهب واتجه. وقد بقيت لهجته لهجة سودانية على الرغم من أنه أمضى فترة طويلة في الغرب كما يقول:

"السودان أحمله بين جوانحي أينما ذهبت .. وهذا هو الوجع البدائي واللانهائي"[2]، فبيئة القرية التي نشأ فيها هي على حد قوله: "المسرح والمادة الخام لإبداعاته، وهي النافذة على الكون"[3]، فهذه البيئة هي التي شكلت العامل الأساسي الذي أوحى إليه بالكتابة. وقد كان ملتصقا التصاقا حميما بالبيئة السودانية المحلية. وهو يعبّر عنها وتقاليدها وطقوسها ورموزها وعاداتها وثقافتها في جميع

[1]. مجلة "العربي" الصادرة من الكويت، العدد 560 يوليو 2005م

[2]. نفس المرجع

[3]. نفس المرجع

أعماله الأدبية. فالبيئة السودانية والقرى السودانية هما تشكلان الخلفية الأساسية لكتاباته الإبداعية والأدبية.

ولأجل ذلك نرى الطيب صالح يعبّر عن آلام الناس السودانيين وآمالهم، وعاداتهم وطقوسهم، وتقاليدهم في جميع أعماله الأدبية. وقد قدّم خدمات جليلة للثقافة السودانية والأدب الشعبي السوداني كما يقول محمد بن عيسى وزير خارجية المغرب السابق: "إنه ذاكرة السودان المتنقلة يحفظ لكتابه وشعرائه وزجاليه على الخصوص ويحن لوطنه الأم، ويحس بأحشائه تتمزق وهو يتحدث عن السودان"[1].

وحقا إنه واحد من كبار الكتاب العرب المبدعين الذين ذاعت شهرتهم في ميدان الرواية العربية والقصة القصيرة، والذي نجح في فرض ثقافة الجنوب على الشمال، وروايته المشهورة "موسم الهجرة إلى الشمال" من إحدى الروايات العربية التي نجحت في نقل الأدب العربي إلى العالم كله.

إنه لم يكن يعاني من مشكلة وعقدة تعدد الانتماءات. ولما سُئل عن كيفية العلاقة بين الإسلام والعروبة، والوطنية والديمقراطية، فأجاب: "نحن عرب مسلمون ففي السودان يقال: دا ولد عرب، والعروبة قضية مفروغ منها، فهو قائم بحد ذاته، لما يقال: دا فلان ولد عرب ... دي قيمة، ويدخل في نطاق العروبة كل من يتكلم العربية، فيقول: إن النوبية وهي أعرق قبائل وادي النيل، التي ورثت الحضارة الفرعونية القديمة هم الآن عرب، ثم يتحدث عن دخول الإسلام إلى السودان، ونشوء ممالك إسلامية فيه وفي إفريقيا، فنشأ كما يقول إسلام يتميز بروح تسامح لا حد له، ولم ير في الهوية

[1]. كتابات سودانية العدد 47 أبريل 2009

وإن جمعت كل تلك الانتماءات تضاد أو تناقض فيمكن للسوداني أن يكون عربيا مسلما ديمقراطيا وطنيا ... وكذا كل عربي"[1].

إنه كان يكتب كل ما كان يخطر بباله بكل حرية بدون اكتراث لنقد الناقد أو القارئ. ولعل هذا هو السبب الذي أكسب لرواياته نجاحا باهرا، وأعطاها شهرة كبيرة في العالم كله، كما يقول هو بنفسه: "أنا واضح جدا في طريقتي في الكتابة، ولست كاتبا شديد الإحساس بالقارئ، أو الناقد، ولا أنتج إبداعي بهدف الاستمرار في السوق، أو من أجل النقاد، لا ... أنا أكتب كما يحلو لي، فإذا وجد ما اكتبه هوى لدى القراء، فهذا يرجع للقارئ، وإذا لم يجد هذا الهوى فقد يأتي زمان آخر ويجد"[2].

وعند الطيب صالح الالتزام الأدبي للكتابة الإبداعية تعني الحرية الكاملة التي تطلق الإبداع حت يبلغ أقصى مداه. ولأجل ذلك نرى بأنه لما ظهرت روايته الرائعة "موسم الهجرة إلى الشمال"، فإنها أعطته شهرة واسعة. ولاقى عمله هذا قبولا واسعا، واستحسانا جماهيريا كبيرا. وفي ذلك يقول الناقد الشهير رجاء النقاش:

"لم أصدق عيني وأنا التهم سطور هذه الرواية، وانتقل بين شخصياتها النارية العنيفة النابضة بالحياة، وأتابع مواقفها الحارة المتفجرة، وبناءها الفني الأصيل الجديد على الرواية العربية ... لم أتصور أن هذه الرواية الناضجة الفذة – فكرا وفنا – هي عمله الأول، لقد أخذتني الرواية بين سطورها في دوامة من السحر الفني والفكري، وصعدت بي إلى مرتفعات عالية من الخيال الفني الروائي العظيم،

[1]. مجلة "العربي" الصادرة من الكويت العدد 560 يوليو 2005م

[2]. نفس المرجع

وأطربتني طربا حقيقا بما فيها من غزارة شعرية رائعة، ولم أكد أنتهي من قراءة الرواية، حتى تيقنت أنني –بلا أدنى مبالغة – أمام عبقرية جديدة في الميدان الرواية العربية ... تولد كما يولد الفجر الجديد المشرق، وكما تولد الشمس الإفريقية الصريحة الناصعة"[1].

وبعد صدور هذه الرواية توالت للطيب صالح أعماله الأدبية الأخرى في نفس القيمة الأدبية، ونفس المستوى الفني. وعلى الرغم من شهرته الذائعة، إلا أنه كان رجلا متواضعا. إنه ولد في السودان، وترعرع فيه، وعاش في لندن لفترة طويلة إلا أنه ظل شرقي الطبع والطابع حياة وفكرا. وقد كان مثالا ونموذجا للتواضع والبساطة والفكر العميق والأفق الوسيع. كما نجد في صحيفة "عكاظ" في طبعتها الأسبوعية: "لم يكن الطيب صالح قمة في الإبداع الأدبي فحسب، بل كان مثالا للتواضع الجم الذي أكسبه حب الملايين وأسكنه في قلوبهم، وقدوة للأخلاق الفاضلة والطبع النبيل، فلم تغيره الشهرة، ولم تبدله المكانة المرموقة التي بلغها، إذ يعد واحدا من أهم الأدباء المبدعين في القرن العشرين"[2]. ولما سُئل عن جائزة نوبل فإنه أجاب: "لو جاءتني سأفرح بها، ولا أزعم أني فوق هذا، ولكن في الحقيقة لا أشغل نفسي بها"[3].

وقد وصفه محمد بن عيسى وزير خارجية المغرب السابق بهذا القول: "بأنه الولي الصالح حتى من دون عمامته، كل كامل يقاسمك كل أحاسيسه، كل كامل لا ينافق ولا يحابي ولا يعادي ولا يحاسب ولا يلوم، قنوع لدرجة إهمال حقوقه، دعوب بقهقهته وتقاسيم وجهه وشرود نظراته، كل

[1]. الطيب صالح عبقري الرواية العربية، ص: 78-79

[2]. صحيفة "عكاظ" 10 أبريل 2009م العدد 15567.

[3]. صحيفة "المدينة" 25 فبراير 2009م.

شيء عنده ملفوف بالحشمة والتقشف ونكران الذات"[1]. فهو رمز الاعتدال والوسطية في كل الأمور، وتتجلى في حياته البساطة والثقافة والأصالة والتواضع. ويرى إبراهيم الصلحي: "إن المحبة هي المدخل الحقيقي النافذ مباشرة إلى لب شخصيته وأدبه وقد عبر عنها كثيرا في كل ما كتب، كلمة أصلها ثابت في الأرض وفرعها يعانق الهواء والإنسان والسماء"[2].

أما فيما يتعلق الأمر بإنتاجاته الأدبية فإنه يعدّ من المقلين، إنه كتب ثلاث روايات ومجموعات القصص القصيرة فقط، وترجمت بعض رواياته إلى أكثر من ثلاثين لغة. وتعتبر روايته المشهورة "موسم الهجرة إلى الشمال" واحدة من أفضل مائة رواية في العالم[3]. ونشرت لأول مرة في أواخر الستينات من القرن العشرين في بيروت، وتم الإعتراف بكتابه هذا من قبل الأكاديمية العربية في دمشق على أنه "الرواية العربية الأفضل في القرن العشرين"[4].

بدأ الطيب صالح كتابة روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" عام 1962م، وانقطع عنها أربع سنوات، ونشرها في مجلة "حوار" البيروتية عام 1966م[5]. ويرى بعض الكتاب بأن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" تناولت قضية العلاقة والحوار بين الشمال والجنوب، والحديث عن التقاليد والثقافات الشرقية والغربية. وهذه الرواية تمثل تحديا صارخا للرؤية الاستشراقية إلى العالم العربي والشرقي ككل. وقد طغت شهرة هذه الرواية على روايته الأولى " عرس الزين" التي كتبت عام

[1]. مجلة "العربي" الصادرة من الكويت، العدد 560 يوليو 2005م.
[2]. نفس المرجع
[3]. كتابات سودانية العدد 47 أبريل 2009، ص: 101
[4]. نفس المصدر، ص: 168.
[5]. الطيب صالح عبقري الرواية العربية، ص: 196.

1962م، وعلى جميع أعماله الأخرى التي صدرت في سبعينات القرن العشرين. وسأتناول الحديث عن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" في الباب الثاني من هذا البحث بقدر من التفصيل.

وأما في مجال الصحافة فإنه كان يكتب عمودا أسبوعيا على عنوان "نحو أفق جديد" في مجلة "المجلة" التي كانت تصدر من لندن باللغة العربية. واستمر يكتبها لمدة عشر سنوات تقريبا. وخلال عمله في هيئة الإذاعة البريطانية إنه قام بمعالجة عديد من الموضوعات الأدبية والفنية. ومعظم المقالات التي كتبها كانت تنشر في الصحف العربية، وكانت تتناول قضايا الأمة العربية، وهموم وأوضاع الوطن العربي.

وخلاصة القول هي أن الترحال والتنقل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب أكسب الطيب صالح خبرات واسعة، وتجارب غنية في الحياة. وقد وظّفها الطيب صالح في كتاباته وأعماله الروائية، وخاصة في روايته الشهيرة "موسم الهجرة إلى الشمال". وفي معظم كتاباته إنه يتناول القضايا السياسية من الاستعمار والحديث عن الثقافات العربية والغربية والعلاقة بينهما، كما يتناول الحديث عن التباهي بتقاليد المجتمع السوداني والعربي. ونجد كذلك بأن الحنين إلى الوطن عنصر طاغ على معظم كتاباته. وبما أنه أقام ومكث لسنوات طويلة في بريطانيا، وزار بلدانا شرقية وغربية أخرى، فإن كتاباته تتطرق أيضا إلى الكلام حول الاختلافات بين الحضارتين الغربية والشرقية.

حاز الطيب صالح في عام 2005م على جائزة ملتقى القاهرة الثالث للإبداع[1]. ويرى النقاد بأن الفن الروائي للطيب صالح يتسم بالالتصاق والتغني بالأجواء والمشاهد المحلية والبيئات الريفية ويمتاز باللغة التي تلامس الواقع خالية من الرتوش والاستعارات، في شعرية صادقة رائعة، وانسياب

[1]. مجلة "العربي" الصادرة من الكويت، العدد 560 يوليو 2005م.

شعوري كبير. وقد ساهم الطيب صالح بإنجازاته الأدبية في تطوير الرواية العربية وبناءها الفني والشكلي، ودفعها إلى آفاق جديدة.

وظل الطيب صالح يكتب في الصحف والمجلات العربية، ويحاضر في النوادي الأدبية والمنتديات العلمية التي كان يحضرها حتى وافته المنية في يوم الأربعاء 18 فبراير عام 2009م في لندن. وقد ترك وراءه تراثا أدبيا غنيا وإنتاجات أدبية رائعة ستخلد ذكراه في مخيلة الأجيال التالية. طيب الله ثراه وأسكنه في فسيح جناته.

أعماله الأدبية

رغم أنه معروف بإنتاجاته الأدبية في مجال النثر إلا أنه نظم بعض الأشعار أيضا ولكن لم تنشر منها شيئا[1]. ونجد أن أول إنتاج أدبي له في النثر كان قصة قصيرة على عنوان "نخلة على الجدول" التي كتبها عام 1953م. وقد سبق بنا فيما مضى بأن الطيب صالح فاقت شهرته العنان ليست لأجل كثرة أعماله الأدبية، بل لأجل غناها الأدبي، وروعتها الفنية. فقد كان كما عرفنا من الكتاب المقلين، وأعماله الأدبية قليلة تعد على الأصابع وهي كما يلي:

1- عرس الزين (1962م)

2- موسم الهجرة إلى الشمال (1966م)

3- بندر شاه (في جزئين: ضوء البيت (1971م)، ومريود (1977م)

4- دومة ود حامد (مجموعة القصص القصيرة) (1953-1962)

5- الرجل القبرصي (القصة القصيرة) (1980)

وله كتب أخرى أيضا منها ما يلي:

1- منسي:إنسان نادر على طريقته

2- المضيئون كالنجوم

3- للمدن تفرد وحديث: الشرق والغرب

[1]. كتابات سودانية، العدد 47 أبريل 2009، ص: 68.

4- في صحبة المتنبي ورفاقه

5- في رحاب الجنادرية

6- وطني السودان

7- ذكريات المواسم

8- خواطر وترحال

الباب الثاني

رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح وسرد الاستعمار البريطاني في السودان

الفصل الأول: تاريخ السودان في العصر الحديث (نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين)

الفصل الثاني: حملة استرداد السودان من أيدي المهديين والحكم الإنجليزي فيه حتى الاستقلال

الفصل الثالث: رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" وسرد الاستعمار البريطاني في السودان

الفصل الرابع: الاستعمار البريطاني في السودان والغزو الثقافي

الفصل الأول

تاريخ السودان في العصر الحديث (نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين)

إن جمهورية السودان تقع في قارة إفريقيا وتمتدُّ مساحتها حوالي 2.5 مليون كيلومتر مربع ويبلغ عدد سكانها 18 مليون نسمة[1]. وهو بذلك يعد أحد أكبر الدول الأفريقية كما يأتي في المرتبة الحادية عشرة من بين أكبر دول العالم مساحة. يمتدُّ السُّودان على مساحة واسعة وشاسعة ما بين جنوب مصر، جارته في الشمال، وحتى المناطق الإستوائية في وسط إفريقيا. وهو يتباهى بوجود مختلف العرقيات وتنوع الثَّقافات والأديان في داخله، ولكن الإسلام يشكل الخلفية الثقافية لغالبية سكَّان السودان خاصة الأجزاء الوسطى والشَّمالية منه. فيما تتشكل ثقافة الجنوب وجنوب شرق وغرب السودان من الثقافات الأفريقية الخالصة بأقلية إسلامية. وقد هاجرت إلى السودان قبائل من مختلف المناطق والدول المجاورة واستوطنت أرضه وكونت لنفسها على مرور الزمن كيانات مستقلة لها ثقافتها وجذورها. والسودان يحتل مكانة مرموقة منذ العصر القديم لأجل موقعه الجغرافي وموارده الطبيعية. وهو كان من المراكز التجارية القديمة التي كانت نشطة تجاريا واقتصاديا وثقافيا. وكانت تربطه مع جارته مصر روابط اقتصادية وسياسية وثقافية. وقد أولى ملوك مصر وسلاطينها اهتماما كبيرا بأوضاع السودان السياسية والاقتصادية منذ الزمن الغابر.

ونجد في كتب التاريخ بأن العلاقات الثقافية والتبادلات التجارية والاقتصادية بين القطرين كانت قائمة وجارية منذ قديم الزمان. وبما أن نهر النيل الذي كان يسقي الحرث والنسل في كلا

[1]. تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، د. إسماعيل أحمد ياغي والشيخ محمود شاكر، ج 2، ص 47.

البلدين والبلاد المجاورة لهما، والذي كان يجري من داخل السودان وينحدر من أعالي النيل في السودان ويصل إلى مصر عن طريقه، فإن الملوك المصريين كانوا دائما ممن جعلوا السودان نصب أعينهم بغرض تأمين نصيب مصر من مياه النيل وتوفير المياه اللازمة للزراعة ولسكانها. وتوطدت هذه العلاقات وتوثقت في العصر الحديث إلا أن العلاقات بين القطرين شهدت مراحل خطرة وحرجة في العصر الحديث جراء التطورات الخطيرة التي مرّ بها العالم العربي والأفريقي بعد أن زحف إليهما الاستعمار الأوروبي عامة، والاستعمار البريطاني بصفة خاصة. وقد كان لمصر دور كبير في هذه المراحل التي تلت زحف الاستعمار في بناء العلاقات بين البلدين وتقرير مصيرهما. وإنَّ موقع السودان الجغرافي والإستراتيجي وغني موارده وثرواته الطبيعية جعلاه أحد محاور التنافس الاستعماري القديم في إفريقيا. وكذلك ظل السودان يمثل أحد أطماع الاستعمار الحدييث.

وقد حاول الاستعمار الحديث المتمثل في الإمبراطورية البريطانية فرض سياسة "فرق تسد" في السودان، ودبر مخططات حثيثة وشنيعة لتقسيمه وتجزئته بغية إضعافه وإضعاف دولة المسلمين فيه. وقد فرض المستعمِرون على السودان سياسة تقسيم البلاد فيما بين الجنوب والشمال منذ أول يوم من زحف الاستعمار الأوروبي إليه. وأخيرا انفصل جنوب السودان من السودان وأصبح دولة مستقلة في 9 يوليو عام 2011م بعد حرب دامية طويلة ذهب ضحيتها آلاف من السودانيين في الجنوب، وحصدت الأخضر واليابس في السودان، وذلك تحت ضغوط هائلة مارستها الدول الأوروبية المسيحية، علما بأنَّ جنوب السودان تقطنه الأغلبية المسيحية.

علاقة السودان بالعرب

يعدُّ السودان أحدث البلاد العربية أخذا بالطابع العربي الإسلامي إذ تسربت إليه القبائل العربية عن طريق البحر الأحمر ومصر، وانقسمت هذه القبائل العربية الوافدة إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى هي مجموعة الجعليين وهي أكثر المجموعات العربية نفوذا وعددا، وإنها انتشرت في وادي حلفا حتى جنوب أم درمان. والمجموعة الثانية هي مجموعة جهينة، وهم عرب وفدوا إلى مصر أوَّلا ثمَّ اتجهوا في القرن الرابع عشر الميلادي نحو السودان حيث استقروا في شرق السودان وعلى حدود الحبشة وفي شرق ووسط كردفان والمجموعة الثَّالثة هي الكواهلة وهم استوطنوا في العطبرة والنيل الأزرق وحول الأبيض وكردفان في الغرب.[1] وإنَّ هذه المجموعات القبلية كان لها دور فعَّال في أحداث السودان السِّياسية والاجتماعية والثقافية.

هذا، وقامت في السودان ثلاث ممالك إسلامية وهي: مملكة الفونج ودارفور ومملكة دنقلا، والفونج هي قبائل زنجية زحفت من الجنوب وأسلمت وحالفت مع القبائل العربية. وقد ظلَّ الفونج يعتمدون على مصر في غذائهم الروحي، فدرس نخبة من أبناء هذه المملكة في الجامع الأزهر وعادوا إلى بلادهم ينشرون بها ما تلقوه من علوم ومعارف دينية إسلامية.[2] وكذلك إنَّهم أيضا شجَّعوا القبائل العربية على استيطان ممالكهم، فاشتد ضغط القبائل العربية على السودان وازداد عدد أفرادها الذين استوطنوا في السودان وثبتوا عروبته. "وعندما بدأ القرن التاسع عشر كانت السلطنة الزرقاء (والتي عرفت أيضا باسم سلطنة الفونج وسلطنة سنار) قد وصلت حدا بعيدا في الفوضى

[1]. في تاريخ العرب الحديث، د. رافت غنيمي الشيخ، ص: 280.

[2]. المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، د. السيد رجب حراز، ص: 248.

والضعف، وأصبحت اسما على غير مسمى. وبالرغم من أن كثيرا من المناطق في السودان كانت تؤمن بحق هذه السلطنة الاسمي إلا أن الدولة لم تكن قادرة على بسط نفوذها على تلك الأقاليم. وكان زعماء القبائل قد أضحت لهم قوة مستقلة في بقاعهم، وخلت الهدايا والجزية التي كانوا يرسلونها لملوك السلطنة الزرقاء حتى أضحت خزينتها–كما كانت في أكثر عهودها– مع بداية القرن خاوية على عروشها".[1]

السودان تحت الحكم المصري

كان السودان مقسما وموزعا وغير مستقر، وكانت تتحارب على حكمه والاستيلاء عليه القبائل فيما بينهما حتى الفتح المصري على يد محمد علي في أوائل العشرينات من القرن التَّاسع عشر. وعلى الرغم من مجهودات مملكة الفونج الإسلامية لتوحيد السودان تحت سيطرتها إلا أنَّها باءت بالفشل أمام قوة دارفور. وفي ذلك يقول الدكتور محمد محمود السروجي في كتابه "دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر": "إذا نظرنا إلى الأوضاع التي كانت سائدة في السودان في ذلك الوقت، نجد أنها كانت مشجّعة على القيام بحركة الضمّ. فالسودان كان نهبا بين قبائل العربان التي انتزعت السلطة من أيدي حكامه الشرعيين، فمحمد علي وجد أن مصر أحق بتوحيد هذه البلاد تحت سيطرتها من هذه القبائل الغاصبة... هذا، فضلا عن أن السودان كان موئلا ومأوى للمماليك الذين فروا من وجه محمد علي بعد مذبحة القلعة، فوجودهم على حدود مصر الجنوبية يمثّل

[1]. تاريخ السودان الحديث، ضرار صالح ضرار، ص: 19

خطرا على مصر... وإلى جانب هذا هناك سبب آخر دعا محمد علي إلى التفكير الجدي في غزو السودان، ألا وهو ضمان مياه النيل".[1]

ومن الجدير بالذكر بأنه لم يكن مجيء قوات محمد علي إلى السودان سنة 1820م بداية الاهتمام المصري بالسودان، بل إنَّ العثمانيين هم الذين استولوا على بلاد "النوبة"، بعد احتلالهم لمصر واستقرارهم فيها. وقد قام الجيش المصري بمحاصرة المنطقة في عام 1820م. "بعد الاستيلاء على مصر وتثبيت سلطانه فيها، أخذ محمد علي باشا يعمل جاهدا لتوسيع رقاع البلاد التي يحكمها لأنه لم يكن قانعا بما لديه، وهي الأراضي المصرية. ومن الواضح أن محمد علي كان ينظر شرقا إلى الأراضي الحجازية، وغربا إلى ليبيا، وجنوبا إلى السودان حتى منابع النيل، كما زاد فيما بعد طموحه فشمل تهديده الإمبراطورية العثمانية شمالا"[2]. وانتهت الحرب في عام 1822م بانتصار كامل للقوات المصرية التي كانت تابعة في ذلك الوقت للإمبراطورية العثمانية، وأصبح الجزء الكبير من النوبة مقاطعة مصرية معروفة باسم السودان المصري. "بدأت جيوش محمد علي بغزو بلاد النوبة... واستطاع المصريون أن يتموا فتح بلاد النوبة، وأن يخضعوا هذه البلاد للنفوذ المصري المباشر، وكان دخولهم بربر سنة 1821م تأكيدا لفتح بلاد النوبة. ولأول مرة في تاريخ العلاقات بين مصر والسودان يتجاوز النفوذ المصري حدود بلاد النوبة، فقد غزا محمد علي الفونج في معاقلهم عن طريق الحملة التي أعدها لفتح سنار. وقد استطاعت هذه الحملة أن تضع حدا لسلطنة الفونج ففتحت سنار في 12/ يونيو سنة 1821م. بل بدا أن المصريين يريدون مجاوزة سنار في طريقهم نحو الجنوب، ثم توقف الزحف

[1]. دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، الدكتور محمد محمود السروجي، ص: 264
[2]. تاريخ السودان الحديث، ضرار صالح ضرار، ص: 22

عند فازوغلي في يناير سنة 1822م".[1] وتمَّ فتح أهم أجزاء السودان تقريبا في سنة 1825م. "ولم يهمل محمد علي غرب السودان، إذ دخل جيش الدفتردار كردفان سنة 1821م، وبدأ يصطدم بسلطنة دارفور، وامتد نفوذ محمد علي إلى شرق السودان، وخضعت هذه البلاد لحكمه المباشر منذ إتمام الفتح سنة 1825م".[2] ومنذ ذلك الحين كانت عملية الفتح قد استمرت في عهد محمد علي وخلفائه حتى استكمل في عهد الخديوي إسماعيل، وفي ظلِّ الحكم المصري تمَّ إنشاء عاصمة للسودان وهي مدينة الخرطوم سنة 1830م.[3] وقد استمرَّت هذه الدولة تحكم السودان حتى عام 1885م.

الحكم المصري في السودان: تحديث السودان والعمل للقيام بالوحدة الوطنية

حاول محمد علي وخلفاءه توطيد أسس الحضارة الحديثة والقيام بإرساء دعائم الوحدة الوطنية في السودان بعد الانتصارات العسكرية والفتوحات الميدانية التي أحرزوها. اهتموا بالزراعة اهتماما بالغا كون السودان بلدا ذا موارد طبيعية غنية. وأقاموا المؤسسات وفتحوا المدارس لتعليم أبناء السودان وتثقيفهم. وقد أدخلوا السودانيين في نظام الحكم الإداري والجيش الحكومي مما كان له أثر كبير في تيسير عملية الفتح واستقرار الحكم. وفي ذلك يقول الدكتور إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر في كتابهما "تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر": "خدم المصريون السودان من نواح كثيرة. فقد وحّدوا بقعة جغرافية واسعة تضمّ قبائل متباينة في اللون، والجنس، واللغة، والدين، والعادات، وأدخلوا إلى السودان الحضارة الحديثة، ونشروا العلم والمعرفة، ورفعوا المستوى الصحي والاجتماعي، وأوجدوا حكومة منظمة وعهدا مستقرا. وحسنوا الأوضاع الاقتصادية، فأدخلوا زراعة القطن، ونشروا استعمال

[1]. الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، الدكتور حسن أحمد محمود، ص: 349
[2]. نفس المصدر، ص: 349
[3]. في تاريخ العرب الحديث، د. رافت غنيمي الشيخ، ص: 282.

الملابس المنسوجة بدلا من الملابس الجلدية، ووحدوا السودان كله ومصر في سوق كبيرة واحدة. كذلك حمى المصريون السودان مدة من الزمن من أن تصبح مستعمرة أوروبية وأخروا حدوث ذلك قرنا كاملا."[1] وقد استطاع محمد علي أن يوطد الأمن ويحقق الوحدة الوطنية وأدخل كثيرا من مظاهر الحياة الحديثة إلى السودان، وأشرك السودانيين في شئوون الحكم والإدارة، فأنفق بسخاء لتحديث السودان وإنعاشها اقتصاديا وثقافيا بتعليم أبنائه".[2] ويكرّر نفس القول الدكتور محمد عبد الله عوده وإبراهيم ياسين الخطيب في كتابهما "تاريخ العرب الحديث": "عملت الإدارة المصرية على إصلاح أحوال المسلمين، فأنشأت حكومة قوية تتبع الحاكم في مصر مباشرة، وأسست مدينة الخرطوم لتكون عاصمة البلاد، وأشركت العناصر الوطنية في الحكم والإدراة... وفتحت المدارس، وزاد عددها في عهد إسماعيل، وطور محمد علي الزراعة، وأرسل بعض الفلاحين المصريين إلى السودان للمساهمة في تحسين طرق الزراعة، ومد الخديوي إسماعيل السكك الحديدية وشبكة مواصلات تلغرافية".[3]

[1]. تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر ج 2، الدكتور إسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكر، ص: 50
[2]. تاريخ العرب الحديث، الدكتور جميل بيضون والآخرون، ص: 91-92
[3]. تاريخ العرب الحديث، الدكتور محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب، ص: 103

الثورة المهدية

حاول محمد علي ومن تولوا الحكم بعده إصلاح أحوال السودان وتحسين أوضاعه وتعليم أبنائه وتثقيفهم وإقامة المؤسسات التعليمية والإدارية، "إلا أن سوء الأوضاع المالية في عهد الخديوي إسماعيل انعكست على أوضاع السودان أيضا. فانتشرت الرشوة بين الموظفين، واحتكرت الدولة تجارة بعض السلع، مثل العاج، وزادت الضرائب، وأثقلت كاهل السودانيين، فساءت الحالة الاقتصادية في البلاد، وزادت الأوضاع سوءا عندما لجأ الخديوي إسماعيل إلى الاستعانة بموظفين أوروبيين، فتضايق السودانيون، وجعلهم يأنفون لحكام غير مسلمين".[1] ويكرّر نفس القول الدكتور جميل بيضون والآخرون في كتابهم "تاريخ العرب الحديث": "دخلت السودان في الوحدة مع مصر في عهد محمد علي باشا في عام 1822م، وقد حقق المصريون للسودان أمرين، أولهما تحديثه، وثانيهما الوحدة الوطنية، إلا أن أوضاع مصر السياسية والاقتصادية المتدهورة، خاصة في عهد الخديوي إسماعيل وتوفيق، انعكست على السودان، حيث اشتدت الضائقة الاقتصادية، وعم الفساد الإداري، وقد زاد في ذلك استعانة الخديوي بعدد من المغامرين الأوروبيين، الذين اندفعوا إلى السودان لتحقيق أهداف دولهم الاستعمارية ومن هؤلاء السير "صموئيل بيكر" والذي عهد إليه الخديوي إسماعيل سنة 1869م إدارة مديرية خط الإستواء، واستمر بعده الجنرال غوردون، وكان في الواقع يوطد سياسة بلاده ونفوذها... ويمكن أن ترجع أسباب تلك الثورة إلى العنف الذي رافق الفتح البريطاني

[1]. تاريخ العرب الحديث، الدكتور محمد عبد الله عودة وإبراهيم ياسين الخطيب، ص: 103

والضرائب الفادحة التي فرضت وجبيت بالقوة... والإسراف في تعيين الأجانب في المراكز الرئيسية في البلاد الذين نكلوا بالسكان، والتدخل في الشؤون الدينية والحياة اليومية للسكان".[1]

وهكذا نرى بأن الظروف والملابسات والأوضاع كانت ملائمة لظهور ثورة تقاوم هذه الممارسات الخاطئة والعدوانية بحق الشعب السوداني وتحاربها، وتعمل لصالح السودان والسودانيين. ولأجل ذلك لما دعا قائد الثورة محمد أحمد المهدي الشعب السوداني للانضمام إلى صفّه في ثورته على حكم الأجانب في السودان، فإننا رأينا الشعب الذي ضاق ذرعا بالظلم والاضطهاد يلبّي دعوته وينقضّ على الحكم الأجنبي ويحاول تطهير بلاده من براثنه. ويقول الدكتور إبراهيم أحمد العدوى بهذا الصدد في كتابه "يقظة السودان" : "وعندما جهر المهدي بدعوته، وجد النفوس مهيّأة تماما في السودان لقبول مبادئه وتعاليمه. ذلك أن غوردون وعملاءه شوهوا التعاليم الإسلامية في البلاد، وأذلوا العرب حملة هذا الدين الحنيف إلى جيرانهم من الناس. فتطلعت الأبصار إلى المهدي تلتمس عنده الهداية والإرشاد، وتنتظر على يده الخلاص والنجاة. ثم إن الضربات القاصمة التي أنزلها غوردون بالقبائل العربية في السودان جعلت أفرادها يلتفون حول المهدي، وينتظرون ذلك اليوم الذي تعاد لهم فيه كرامتهم"[2].

ففي عام 1881م شهد السودان تطورا سياسيا خطيرا ومهما في تاريخه نتج عن اندلاع ثورة وطنية ضد حكم محمد علي وخلفائه بقيادة محمد أحمد المهدي، وذلك لأنَّ نظام الحكم الذي أسَّسه محمد علي باشا أدى إلى بعض الأخطاء التي استنكرها السودانيون. وهي تتمثل في القسوة الشديدة في التعامل مع السودانين وجباية الضرائب الباهظة والإدارة الجديدة المتمثلة في الحكم

[1]. تاريخ العرب الحديث، الدكتور جميل بيضون والآخرون، ص: 125،126
[2]. يقظة السودان، الدكتور إبراهيم أحمد العدوى، 49

المركزي الذي لم يألفه السودانيون. وكانت هذه الأسباب والعوامل التي جعلت أهل السودان يلتفون حول قيادة محمد أحمد المهدي وثورته. وكل ذلك قد أدّى إلى نجاح الثورة التي حقَّقت أوَّل انتصاراتها على قوات الحكومة المصرية في عام 1881م.[1]

وبعد ذلك انتصر الثوار في عدد من المعارك منها معركة شيكان التي هزموا فيها الجيش المصري بقيادة هكس باشا في نوفمبر 1883م. وفي ذلك يقول الدكتور إبراهيم أحمد العدوى في كتابه "يقظة السودان": "وساعدت الأحداث في مصر على نجاح ثورة المهدي، إذ احتلت إنجلترا القطر المصري سنة 1882م، ومنعت السلطات المصرية من إصلاح السياسة الخرقاء التي خلفها غوردون وراءه في السودان، ولذا ظلت النفوس السودانية ثائرة، وازداد تعلقها بالمهدي، وتفانت في نصرته. واعتقدت إنجلترا أن باستطاعتها الانفراد بالقضاء على المهدية، وتحقيق مآربها بعد ذلك في السودان. فأوفدت أحد رجالها وهو "هكس" على رأس حملة إلى السودان، ولكن المهدي قضى على هذا الجيش في وقعة شيكان يوم خمسة نوفمبر سنة 1883م، وسقط القائد البريطاني قتيلا. وكان لهذا النصر الباهر الذي أحرزه المهدي أثر كبير في أنحاء السودان".[2] ومن جانب آخر فقد أعطت معركة شيكان قوة دافعة ونفوذا كبيرا للثورة المهدية من النواحي السياسية والعسكرية، وبعد هذه المعركة بدأت الثورة تنتشر في شتى أنحاء السودان مثل دارفور وبحر الغزال وشرق السودان من سواكن حتى القلابات. وأصبحت قوة الثورة تتنامى وتزداد يوما بعد يوم في هذه الفترة. ولهذا السبب اضطرت بريطانيا لأن تتبع سياسة جديدة لمنع التدخل العسكري في السودان. "وقد سرت أخبار انتصارات قوات المهدي في كل أرجاء السودان وأدت إلى تدفق المؤيدين للمهدي، واضطر حاكم دارفور

[1]. تاريخ السودان الحديث 1820 – 1955، محمد سعيد القدال، ص: 175.

[2]. يقظة السودان، الدكتور إبراهيم أحمد العدوى، 51

(سلاتين باشا) للاستسلام، وكذلك حاكم بحر الغزال (فرانك ليبتون)، وهكذا أصبح السودان الغربي كله في يد المهدي".[1]

وقرَّرت بريطانيا في نهاية الأمر إخلاء السودان من القوات المصرية لتفادي هذا الوضع المعقد. ولذلك تمَّ تعيين البريطاني الجنرال غوردون بصفته حاكما عاما على السودان لتنفيذ هذه المهمَّة، وقد كانت الحكومة البريطانيَّة تثق فيه ثقة كبيرة خاصة وأنَّه قد عمل في السودان. إنَّه أصدر إعلانا للسودانيين من ثلاث نقاط هي تعيين المهدي حاكما على كردفان وتخفيض الضرائب إلى النصف والسماح بممارسة تجارة الرقيق، غير أن هذه الإصلاحات الظاهرية التي قام بها الجنرال غوردون لم تؤد إلى أي جدوى، فقد دخل الجيش المهدي الخرطوم في اليوم السَّادس والعشرين من شهر يناير من عام 1885م حيث تمَّ الاستيلاء عليها وقُتل الجنرال غوردون. "ولكن الفشل لازم غوردون، فلم يستطع إيجاد حكومة قوية ترفع من الروح المعنوية لسكان العاصمة، وكذلك عجزت دسائسه ومؤامراته في الخرطوم وما جاورها من جهات عن صد الجيوش المهدية المتدفقة على العاصمة، وذلك حتى تصل النجدات الإنجليزية لإنقاذه ومن معه من الحصار المتين المفروض عليه، ذلك أن عجلة الزمن سارت أسرع من مطامع غوردون، واستطاع المهدي أن يستولي على الخرطوم عنوة بعد حصار شديد، ولقي غوردون حتفه على أيدي أنصار المهدي".[2]

وسبق أن كانت الحكومة البريطانية قد أرسلت حملة عسكرية مكوَّنة من عشرة آلاف جندي بقيادة اللورد وولسلي،[3] إلا أن هذه الحملة العسكرية قد وصلت متأخرة، وتمكنت قوات المهدي من

[1]. تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، الدكتور عبد الله عبد الرزاق إبراهيم والدكتور شوقي الجمل، ص: 324
[2]. يقظة السودان، الدكتور إبراهيم أحمد العدوى، ص، 54،55
[3]. دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، د. محمد محمود السروجي، ص: 381

مهاجمة العاصمة وإسقاطها في 26 يناير عام 1885م. "وفي 26 مايو، 1884م... قررت الوزارة البريطانية إرسال حملة بقيادة اللورد ولسلي لإنقاذ غوردون، لكن الأمور أخذت تطورا سريعا. فقد أخذت قوات المهدي تضيق الخناق على الخرطوم في الوقت الذي كان غوردون قد علم بأخبار حملة الإنقاذ وكان يترقب وصولها بفارغ الصبر، وانتهى الأمر بسقوط أم درمان في يد قوات المهدي... وأصبح مركز الخرطوم حرجا للغاية... ولما علم قائد الحملة بأخبار مقتل غوردون وسقوط الخرطوم أبرق للحكومة البريطانية، وقد أحدث مقتل غوردون بهذه الطريقة هزة عنيفة في إنجلترا".[1] وباستيلاء قوات محمد أحمد المهدي على الخرطوم، قد بدأت صفحة جديدة في تاريخ السودان، وهي الفترة المعروفة بفترة الدولة المهدية والتي تمكنت من حكم السودان ثلاثة عشر عاما تمتد من سنة 1885م إلى عام 1898م.[2]

وبعد موت المهدي في يونيو عام 1885م تولى زمام الحكم في السودان عبد الله التعايشي الذي دخل في حروب عديدة ضد أهالى جنوب السودان مضيفا قطاعات كبيرة إلى السودان المصرية، منها محاولة الاستقلال عن مصر وتخليصها من الاحتلال الإنجليزي، وقد أدى هذا إلى فوضى اجتماعية واقتصادية في السنوات الأخيرة في السودان. وسنحت لبريطانيا فرصة ذهبية للقضاء على نفوذ المهديين، فتمَّ إرسال بعثة عسكرية ضد قوات عبد الله التعايشي تحت قيادة الجنرال هربرت كتشنر وقد حاصره في أم درمان وقتله في شهر نوفمبر عام 1898م، وانتهت بذلك دولة المهدية في السودان.[3]

[1]. تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، الدكتور عبد الله عبد الرزاق إبراهيم والدكتور شوقي الجمل، ص: 326

[2]. في تاريخ العرب الحديث، د. رافت غنيمي الشيخ، ص: 301-302.

[3]. دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، د. محمد محمود السروجي، ص: 390.

الفصل الثاني

حملة استرداد السودان من أيدي المهديين والحكم الإنجليزي فيه حتى الاستقلال

وقد رأينا فيما مضى بأن الثورة المهدية استطاعت في غضون سنوات سحق القوات البريطانية والمصرية في السودان وقامت بإجلاءها منه وسيطرت حكمها على الخرطوم، عاصمة البلاد التي أسسها المصريون وقاموا بتطويرها. ولم يكتف أنصار المهدي بإجلاء الأجانب فقط بل إنهم قاموا بصد الهجمات المتتالية التي كانت القوات البريطانية تقوم بها. وأخيرا سقط الخرطوم في أيدي المهديين عام 1885م، ونتج عن ذلك مقتل غوردون الحاكم البريطاني آنذاك في السودان، إلا أن القوى الاستعمارية ما فتئت تدبر المخططات والمؤامرات لاقتطاع أجزاء من السودان. فالفرنسيون والبلجيكيون والإيطاليون كانوا يحاولون كسب مناطق جديدة لبسط نفوذهم في السودان. ويقول الدكتور محمد عبد الله عوده في كتابه "تاريخ العرب الحديث" بهذا الصدد: "وإزاء هذه الأطماع الأوروبية في السودان قررت الحكومة البريطانية أن تسترد السودان بقوات مصرية يقودها ضابط إنجليز، واستطاعت الحملة العسكرية بقيادة الضابط الإنجليزي كتشنر أن تحتل أم درمان. (وعلى الرغم من) الشجاعة التي أبداها المهديون، فإنهم لم يستطيعوا مقاومة التفوق البريطاني المصري في العدد والعدة، والأسلحة الحديثة والمحظور بعضها دوليا".[1]

قررت الحكومة البريطانية في 12 مارس، 1896م أن ترسل حملة عسكرية بقيادة سردار الجيش المصري السير هيربرت كتشنر لاسترداد السودان من أيدي المهديين. وبدأت الحملة من وادي حلفا واستولت على عكاشة ثم فركة وكوشة، وكرمة. وفي 23 سبتمبر 1896م، استولت الحملة

[1]. تاريخ العرب الحديث، الدكتور محمد عبد الله عودة، والدكتور إبراهيم ياسين الخطيب، ص: 104

على دنقلة، وكان الجيش المصري أثناء تقدمه يمدّ خطوط السكك الحديدية من وادي حلفا عبر صحراء العطمور في اتجاه أبو حمد. وبعد نجاح حملة دنقلة أمرت الحكومة البريطانية كتنشر بالاستعداد للزحف جنوبا ونجحت الحملة في معركة العطبرة عام 1898م. وأدت هذه المعركة لزعزة معنويات جيش الخليفة. ووصل بعد ذلك كتشنر مع جيشه أم درمان، ففر الخليفة عبد الله التعايشي وبعض قوات جيشه تجاه الغرب، وبعد دخول كتشنر أم درمان قام بعمل يتنافى مع كل مبادئ الإنسانية، فقد أمر بنبش قبر المهدي وأجتز رأسه لكن بارنج أعاد الجمجمة حيث دفنت سرا في مقبرة في وادي حلفا. وقد منح كتشنر لقب لورد الخرطوم. وبعد موقعة أم درمان رفع كتشنر العلمين المصري والبريطاني جنبا إلى جنب على سراى الحكومة المخربة في الخرطوم وفقا للتعليمات التي تلقاها من كرومر، وقد أدى هذا لعاصفة من الانتقاد من الجنود والضباط المصريين".[1]

[1]. تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، الدكتور عبد الله عبد الرزاق إبراهيم والدكتور شوقي الجمل، ص: 335، 339

الحكم الثنائي في السودان أم سياسة "الغرم على مصر والغنم للإنجليز"

بعد استعادة السودان حرصت إنجلترا كل الحرص على أن تمد نفوذها إليه وحاولت كل المحاولة لأن تضمه لإمبراطوريتها الأفريقية. وقد بذلت جهدها لإبقاء زمام الحكم في يدها. وللحصول على أهدافها أبرمت اتفاقية الحكم الثنائي مع مصر والذي كان يبدو في الظاهر حكما ثنائيا إلا أن "إنجلترا هي التي كانت صاحبة النفوذ الأقوى، وقد بقيت هذه السيطرة الكاملة حتى عام 1936م، ليعود الجيش المصري للسودان، ليشارك الإنجليز بحكم السودان".[1] ويكرّر نفس القول الدكتور محمد عبد الله عوده في كتابه "تاريخ العرب الحديث": "لقد فرضت الحكومة المصرية اتفاقية سنة 1899م على السودان، وجعلت هذه المعاهدة من بريطانيا شريكا لمصر في حكم السودان.

وبموجب هذه الاتفاقية ألغيت السيادة العثمانية على القطر السوداني. وجاء في الاتفاقية "يعين الخديوي حاكم السودان بعد موافقة الحكومة البريطانية، ولا يفصل هذا الحاكم إلا برضاء إنجلترا، ويعاونه موظفون مصريون وبريطانيون، والواقع أنه لم يعد لمصر بمقتضى هذه الاتفاقية إلا نفوذ اسمي فقط، لأن الحاكم العام كان القائد للجيش في السودان وهو ضابط بريطاني. انفردت إنجلترا بحكم السودان... وأمعنت في سياسة فصل جنوب السودان عن شماله... وهكذا استأثرت بريطانيا بحكم السودان الفعلي تحت ستار الحكم الثنائي الذي لم تترك لمصر سوى الدور الثانوي، ولم تشركها في الحكم إلا لتكبد خزينتها الأموال الطائلة للإنفاق على المشروعات العامة فيه، بينما تستأثر هي بموارده الطبيعية وبخيراته الوافرة، فيكون "الغرم على مصر، والغنم للإنجليز".[2]

[1]. تاريخ العرب الحديث، الدكتور جميل بيضون والآخرون، ص: 126
[2]. تاريخ العرب الحديث، الدكتور محمد عبد الله عودة، والدكتور إبراهيم ياسين الخطيب، ص: 104، 105

وهكذا بدأ في تاريخ السودان عهد جديد وعجيب دام أكثر من نصف قرن، وذلك أنه تم توقيع اتفاقية في 19 يناير عام 1899م بين الحكومتين المصرية والبريطانية. وهذه الاتفاقية كانت تقضي بالسيادة المشتركة على السودان، وهكذا أصبح السودان تحت حكم ثنائي مصري وبريطاني، وفي الواقع كان لبريطانيا النصيب الأكبر من هذه السيادة المشتركة بل أن السودان كان تحت السيطرة البريطانية بشكل كامل وأن الشراكة المصرية كانت مجرد شراكة رمزية.[1]

ويمكن القول بأنَّ اتفاقية الحكم الثنائي الموقعة بين بريطانيا ومصر كانت قد رسخت الوجود الاستعماري البريطاني في السودان بصورة عامة. فلم تعد القوانين والقرارات الوزارية المصرية سارية المفعول في السودان وكذلك لم يبق شيء بالنسبة لمصر غير العلم، وبعض القوات المسلحة تحت قيادة بريطانيا، وازداد ألم المصريين عندما رأوا أن شريكهم (بريطانيا) يستقل في حكم السودان، وخلال فترة الحكم الثنائي جاء تسعة حكام بريطانيين على مسرح حكم السودان، ولكن بالرغم من ذلك لم تهتم حكومة السودان برفع مستوى السكان السودانيين أو التقدم بهم إلى استقلالهم الذاتي، فلم يكن لهم أي نصيب في الحكم على السودان بأي شكل من الأشكال، وكانت أبواب المناصب العالية مغلقة أمامهم تماما، وكان الإنجليز هم الذين يحتلون هذه المناصب العالية، بينما كان شركاؤهم المصريون في الحكم الثنائي يشغلون الوظائف المتوسطة فقط.

الثورات ضد المستعرين واستقلال السودان

وإذا أمعنا النظر في الفترة ما بعد الاحتلال البريطاني في السودان، وجدنا أن السودانيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا التدخل الأجنبي. وقد اندلع العديد من الحركات والثورات ضد هذا

[1]. تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ج 2، د. إسماعيل أحمد الياغي والشيخ محمود شاكر ص: 54.

الاحتلال. ونجد من حركات المقاومة السودانية التي ظهرت في السنوات العشر الأولى من القرن العشرين ثورة الفقيه محمد الأمين البرناوي التي اندلعت في منطقة شرق كردفان في عام 1903م. وثورة جمعية "اللواء الأبيض"[1] من أهم هذه الثورات. إلا أنَّ بريطانيا اتبعت سياسة القمع في السودان فيما يتعلَّق بحركات المقاومة، وهي السياسة التي سارت عليها في جميع أنحاء البلاد.

ونزلت الكارثة الكبرى على مصر والسودان إثر مقتل "لي ستاك" قائد الجيش المصري وحاكم السودان العام في 19 نوفمبر عام 1924م، فقام الجنرال اللنبي بتوجيه الإنذار الشديد الذي كان له أثر عميق في مصر والسودان، وطالب مصر بسحب قواتها من السودان خلال أربع وعشرين ساعة، فتمَّ الانسحاب في غضون أربعة أيام من 29 نوفمبر إلى 2 ديسمبر 1923م.[2]

ومنذ ذلك الوقت انفردت إنجلترا بحكم السودان حسب رغبتها وأطماعها حتى عام 1936م، حيث عقدت فيه معاهدة 1936م والتي كانت تقضي بسماحة المصريين حرية الانتقال إلى السودان والملكية والتجارة والتوظيف. وهذا يعني بأن الأمر عاد مرة أخرى إلى ما كان عليه قبل سنوات في زمن اتفاقية الحكم الثنائي. وفي الوقت نفسه عملت إنجلترا على فصل جنوب السودان عن شماله، وقد دبرت لذلك الغرض المؤامرات، بحيث لم يكن يستطيع أحد أن يسافر من شمال السودان إلى جنوبه إلا بسماح خاص من قبل الحكومة. وقد مثلت هذه المحاولة من قبل الإنجليز منذ عهد مبكر بأنهم يريدون أن يفصلوا السودان من مصر أولا، ثم يقوموا بتجزئته وتقسيمه فيما بعد. وإنهم قد نجحوا إلى حد كبير في زرع بذور التفرقة والنفور والتباعد بين أهل الجنوب والشمال.

[1]. تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، د. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل، ص: 354.

[2]. نفس المصدر، ص: 356.

وقد انتبه السودانيون المثقفون لهذا الخطر الكبير والشر المستطير الذي كان يحدق بهم، ولما رأو وأيقنوا بأن السودان يتم تحديده من قبل القوى الاستعمارية دون الرجوع إليهم، فإنهم اتفقوا على تأليف جمعية أدبية تمثل نشاطها في نادي الخريجين بأم درمان، وقد انعقد أول اجتماع لهذه الجمعية في 12 فبراير عام 1938م، إلا أن الحكومة السودانية اعترفت بهذه الجمعية كهيئة شعبية تمثل الخريجين فقط.[1] وقد كان نشاط هذه الجمعية محدودا حتى الحرب العالمية الثانية، وبعد ذلك اتجهت هذه الجمعية اتجاها جديدا، له دور كبير في تاريخ السودان وأحداثه، إذ أنها طالبت بمنح السودان بحدوده الجغرافية حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة.

وفيما بعد دخلت القضية السودانية مرحلة جديدة خلال عام 1951م – 1952م، إذ اتجهت الحكومة المصرية إلى عرض قضية السودان على مجلس الأمن ولكن فشلت محاولات الوصول إلى أي اتفاق مع بريطانيا عن طريق المفاوضات، وبعد ثورة 1952م رأت الحكومة المصرية أن علاج مشكلة السودان يكمن في الجلاء عن السودان، فتوصلت الأحزاب السودانية إلى اتفاق مع مصر في 20 أكتوبر عام 1952م، وصيغت هذه الاتفاقية بشكل مذكرة أرسلتها مصر إلى بريطانيا في 2 نوفمبر في نفس السَّنة، واقترحت مصر إعطاء السودانيين حق تقرير المصير في جو حيادي حر خلال فترة انتقالية ينتهي بانتهائها الحكم الثنائي، وتعود السيادة للشعب السوداني.[2] فاضطرت بريطانيا إلى الموافقة على هذا القرار، فتمَّ توقيع اتفاق بين الحكومتين (مصر وبريطانيا) في 2 فبراير عام 1953م. يتم بموجبه منح السودان حق تقرير المصير في خلال ثلاث سنوات كفترة انتقالية، فأجريت أوَّل

[1] . تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، د. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل، ص: 358.

[2]. تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، د. إسماعيل أحمد الياغي والشيخ محمود شاكر، ص: 64.

انتخابات نيابية في السودان في أواخر عام 1953م، وقد أعلنت السودان استقلالها رسميا في يناير 1956م وقامت بوضع النظام الجمهوري فيها، تم ترشيحها كعضو في الجامعة العربية في 19 يناير وكذلك في الأمم المتَّحدة في 12 نوفمبر من نفس العام.[1]

وبعد أن حصل السودان على الاستقلال، فإننا رأينا الحكومات المتعاقبة فيه سعت سعيا كبيرا إلى تحديث الدولة والاقتصاد، وخلق هوية وطنية سودانية مبنية على الثَّقافة العربية والإسلام. ومن هنا بدأ النزاع والصراع بين شمال السودان وجنوبه، والذي قد بذر بذوره المستعمرون البريطانيون. وبدأ المتمردون الجنوبيون يقاتلون لأجل الحصول على استقلال الجنوب. ولكنهم واجهوا العديد من الخلافات الداخلية فيما بينهم حتى توحَّدوا أخيرا تحت قيادة جوزيف لاجو.

هذا، وقد استولت على السلطة مجموعة من الضباط اليساريين تحت قيادة جعفر النميري في عام 1969م، وتمكنت هذه المجموعة من التغلب على تحديات الطائفية، ودخلت في صراع مع الحزب الشيوعى. وقد دفعها للبحث عن قاعدة دعم هامة لهم في الجنوب إثر التوقيع على اتفاقية سلام مع الجنرال جوزيف لاغو في أديس أبابا عام 1972م، ومنح الجنوب قدرا كبيرا من الحكم الذَّاتي الإقليمي وبحلول عام 1973م كانت قد تأسَّست دولة علمانية ونظام سياسي رئاسي في السودان.

وكان يهدف النميري إلى إضعاف وإنهاك قوة الجماعات السياسية التقليدية التي كان يظن بأنها يمكن لها أن تشكل تهديدا له في حكمه. وقد قام بإلغاء نظام الإدارة المحلية واستبدله بمجالس منتخبة سيطرت عليها النخب الإدارية والسياسية. وإضافة إلى ذلك، همّش التطور الاقتصادي، عددا

[1]. نفس المصدر، ص: 66.

كبيرا من الناس في السودان. بينما أدَّت خطة إنشاء قناة جونجلي لاستغلال مياه النيل بشكل أفضل إلى إثارة الامتعاض لدى الجنوبيين.

ونتيجة لهذا الاستبداد السياسي والتدهور الاقتصادي وفتور علاقته بالجنوب، اتجه النميري إلى إزالة التهديدات الموجهة ضد حكومته من قبل الأصوليين الإسلاميين والأحزاب الطائفية. كما اتجه لاحقا إلى مصادر أخرى للحصول على الدعم السياسي. ثم انضم زعيم حزب الأمة الصادق المهدي وحسن الترابي من الإخوان المسلمين إلى حكومة النميري، فتوسعت قاعدة الدعم التي كان يبتغيها. ومع زيادة الضغوط من القوى الشمالية الأخرى التي لم تكن تثق بقاعدة الدعم التي يملكها في الجنوب، أبطل النميري العمل باتفاق أديس أبابا في 1983م، ملغيا تعديلاته الدستورية للتخطيط لتوجيه عوائد النفط إلى الحكومة المركزية.

وصل استياء الجنوبيين إلى نقطة الانفجار عام 1983م، حيث شكل الجنرال السابق جون غرنغ جيش الحركة الشعبية لتحرير السودان في إثيوبيا، واندلعت في وقت لاحق حرب أهلية ثانية. وكان هدف جون غرنغ هو سودان جديد موحد وعلماني رغم أن معظم الفئات الشمالية الحاكمة ظلت رافضة لمثل هذا العرض وأن العديد من الجنوبيين ظلوا ملتزمين بالانفصال.

وتم فصل النميري عن الحكم في عام 1985م وأصبح الصادق المهدي رئيس الوزراء مرة ثانية في 1986م، وخلال الحرب الأهلية استخدمت الخرطوم بشكل متزايد الميليشيات القبلية مثل الميسيرية والرزيقات وغيرها في كردفان ودارفور لمحاربة الثوار. وكانت المنافسة السياسية تزرع بذور الشقاق بين حزب الأمَّة والحزب الاتحادي الديمقراطي والجبهة الإسلامية الوطنية بقيادة حسن الترابي

والحزب السياسي للإخوان المسلمين. وفي عام 1988م، أعيد العمل بالإدارة المحلية في العديد من مناطق الدولة بما في ذلك منطقة دارفور التي شهدت في الفترة اللاحقة حروبا دموية استمرت لسنوات حصدت أرواحا كثيرة. ومع إخفاق الجبهة الإسلامية الوطنية في تأمين موطئ قدم لها في دارفور أو الحفاظ على قاعدة شعبية بسبب تأثير حزب الأمَّة، حاولت الجبهة تقويض وحدة المجموعات العرقية والقبلية الكبرى بدعوة الناس إلى تجاوز الولاءات الضيقة والانتماء للإسلام.

وفي عام 1989م، قاد الجنرال عمر حسن البشير انقلابا عسكريا مطلقا بالتنسيق التَّام مع حسن الترابي والجبهة الإسلامية القومية. ويمر السودان في هذه الأيام بمرحلة حاسمة في استفتاء السودان الجنوبي حول تقرير المصير، والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو هل يوجد من العناصر المؤسساتية ما يبرر وجود دولة في الجنوب وكذلك يضمن لها شيئا من النجاح؟ فالجواب هو النفي، وأيضا واجهت حكومة سلفاكير ميارديت كثيرا من الانتقادات اللاذعة بأنه باء بالفشل الذريع في تحقيق التنمية في الإقليم.[1]

وهناك أسباب وعوامل عديدة لقضية السودان والتي سببت في نشوب الأزمة السياسية من جديد: من أهمها اختلال التنمية بين الشمال والجنوب وقيام دكتاتوريات على أساس ديني مما عمق الفوارق بين الحكومة ومواطنيها المسيحيين، وأطماع القوى الكبرى في منطقة حوض النيل الغنية بالأراضي الخصبة والثروات الهائلة ومعادنها وعدم قدرة الحكومة المركزية على السيطرة المطلقة على كامل محالها، وتغذية الدول المجاورة لأعمال الشغب والفتنة والصراع والقتال، وكذلك المد الصهيوني الذي يسعى للحصول على موطئ قدم له في شرق أفريقيا، والسبب الحقيقي لذلك كله أنه قام

[1]. مجلة النهضة، عدد 4، 2011م، الصادرة من ولاية كيرالا، الهند.

الاستعمار البريطاني بعد فصل السودان من مملكة مصر بمشروع تقسيم مناطق السودان، وبعد استقلاله ظهرت هذه الفكرة على الجنوبيين لفصل الجنوب عن شمال السودان وإقامة دولة مسيحية. وبالفعل تم تقسيم السودان بين الجنوب والشمال، وبذلك تحققت للمستعمرين مؤامراتهم التي دبّروها وخططوا لها قبل عقود من الزمن.

الفصل الثالث

رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" وسرد الاستعمار البريطاني في السودان

ذكرنا في الفصل السابق من هذا الباب تاريخ السودان الحديث، وعلى وجه التحديد تاريخ السودان في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وهي الفترة الأهم في تاريخ السودان الحديث إذ شهد هذا البلد في تلك الفترة زحف الاستعمار البريطاني إليه في وقت كانت القوى الاستعمارية الأوروبية الأخرى تحاول اقتطاع أجزاء من أراضيه الشاسعة والواسعة، حرصا منها على خلق مناطق نفوذ لها في قارة أفريقيا. وقد تبين لنا من خلال دراستنا لتاريخ السودان الحديث بأن هذا البلد العربي الغني بالثروات الطبيعية مرّ بمراحل خطيرة وحرجة في تاريخه الحديث، إذ ألفى نفسه محكوما بالإمبراطورية البريطانية والاستعمار البريطاني بشكل مباشر أو غير مباشر مما كانت له تداعيات خطيرة على الشعب السوداني وتقاليده وموروثاته وثقافاته ومعيشته واقتصاده.

وقد رأينا كذلك بأن السودان في العصر الحديث كانت تربطه روابط ثقافية وسياسية واقتصادية مع جارتها الشمالية مصر التي تولت حكم السودان وإدارته وتثقيف شعبه وتنميته وتطويره منذ أن فتحه محمد علي ومن تولوا الحكم في مصر بعده. إلا أن مصر لما وقعت هي نفسها في أيدي المستعمِرين البريطانيين، فإنها اضطرت لأن تقاسم أمر حكم السودان وإدارته مع الحكومة البريطانية. ونتيجة لذلك دخلت مصر في اتفاقية الحكم الثنائي في السودان مع إنجلترا التي كانت صاحبة النفوذ الأكبر في أحداث السودان وسياساته وإدارة شؤونه. وقد رأينا أيضا بأن أبناء السودان لم يقفوا

متفرجين على الأحداث في بلادهم، بل نراهم يواصلون مساعيهم وجهودهم للثورة ضد الاستعمار وعدوانه.

وفي أثناء هذه الفترة وجدنا أن أبناء السودان يقفون كالطود العظيم أمام القوة البريطانية بكل صمود وشموخ. فاندلعت ثورات ضد نظام الحكم الإنجليزي الاستعماري الغاشم، ووقعت احتجاجات ضد ظلمهم وعدوانهم. وأشهر هذه الثورات كانت "ثورة المهدي" عام 1881م، والتي اكتسحت البلد كله، وأوقعت هزيمة نكراء في صفوف المستعمِرين الذين كانوا يحكمون السودان مما نتج عن سقوط الخرطوم في أيدي المهديين ومقتل الحاكم الإنجليزي"غوردون" وجلاء الإنجليز من السودان. إلا أن الاستعمار البريطاني لم يهدأ أواره ولم تخمد جذوته، فإنه ما لبث أن عاد إلى السودان واستعمره وعبث في أراضيه فسادا وقتلا وتشريدا.

وقد قاد حملة استعادة السودان من أيدي المهديين القائد الإنجليزي الشهير هيربرت كتشنر الذي أمعن في القتل والتدمير. ونجد في رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" إشارات واضحة إلى كل هذه الوقائع. وقد أدت هذه الحملة البريطانية إلى وقوع السودان في أيدي الإنجليز عام 1898م.

هذا على الجانب السياسي والغزو العسكري للسودان، أما بالنسبة لسياسات المستعمِرين الثقافية وغزوهم الفكري والثقافي في السودان، فإنها لم تكن أقل خطرا وخطورة في نظر المستعمِرين والمستعمَرين معا. اهتمت الحكومة البريطانية بفتح المدارس والكليات لتعليم أبناء السودان وتثقيفهم بغرض إشراكهم في الحكم الرمزي وإعطاءهم وظائف حكومية صغيرة يعملون فيها لصالح

المستعمِرين. والهدف الآخر وراء سياسات المستعمِرين من فتح المدارس وتعليم العلوم العصرية لأبنائه، كان نشر اللغة الإنجليزية والثقافة الغربية. وقد وظّف المستعمِرون لهذا الغرض طائفة من المستشرقين والعلماء الأوروبيين الذين كانوا يعملون جاهدين لهذا الغرض.

وقد رصدت رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" كل هذه الوقائع التاريخية من الاستعمار والثورات المضادة له، وسياسات المستعمِرين الإقصائية والقمعية والعدوانية ضدّ أبناء الشعب السوداني. ويقول الدكتور خالد محمد غازي بهذا الصدد في كتابه "الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر": "موسم الهجرة إلى الشمال تعد من أشهر أعماله الروائية، بل كان هذا العمل سبب شهرته التي فاقت العنان. ونشرت لأول مرة في أواخر الستينيات من القرن الماضي في "بيروت"، وعدت من قبل مؤسسات ثقافية عالمية كبرى واحدة من أفضل مائة رواية في العالم خلال القرن العشرين... إنها قدمت أجوبة خاصة عن تساؤلات قديمة، متجددة باستمرار، على العلاقة بين الشرق والغرب: شرق الرضوخ وغرب الاستعمار، لكن ما كان مسكوتا عنه، أدبيا على الأقل، قبل "موسم الهجرة إلى الشمال" صار مصرّحا به علنا بعدها، لذلك فإن أحد أبرز عوامل تفوقها هو أنها كانت حقا رواية قضية".[1]

بحثت هذه الرواية في قضايا الاستعمار والصراع الحضاري بين الشرق والغرب طردا وعكسا، وناقشتها مناقشة حادة وصريحة. كما أنها أظهرت لنا الاستعمار في جميع أشكاله وأدواته وآلياته. وقدّمت لنا صورا للغزو العسكري المباشر للسودان على أيدي المستعمِرين، وصورا للغزو الثقافي والفكري من فتح المدارس وتعليم اللغة الإنجليزية وتوظيف أداة الاستشراق وخدمات المستشرقين.

[1]. الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر، الدكتور خالد محمد غازي، ص 12، 14

وإذا قرأنا الرواية فإننا نجد فيها إشارات واضحة وعبارات صريحة حول هذه القضايا وغيرها. وقد رصدت لنا هذه الرواية صور الاستعمار البريطاني من جميع أبعاده وزواياه. فبالإضافة إلى سرد وقائع الاستعمار البريطاني بالقوة والعتاد العسكري، إنها تقدّم لنا صور الغزو الثقافي والفكري في السودان. ولعلّ العبارة التالية من الرواية توضّح لنا هذا الأمر توضيحا كاملا. "البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود. وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول "نعم" بلغتهم".[1] ففي هذه العبارة ترمز البواخر والمدافع وسكك الحديد والجنود إلى الغزو العسكري المباشر للسودان بالقوة والعتاد العسكري، وترمز المدارس وتعليم اللغة الإنجليزية إلى الغزو الثقافي والفكري. فأولا سأبحث في هذا الفصل عن الاستعمار البريطاني للسودان والغزو العسكري المباشر بالقوة والعتاد العسكري وبعده سأدرس الغزو الفكري والثقافي للسودان على أيدي المستعمِرين.

الاستعمار البريطاني في السودان

لقد مرّ بنا فيما مضى بأن هذه الرواية تسرد الوقائع التاريخية للسودان في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وهي الفترة الحرجة التي نرى فيها الاستعمار البريطاني جاثما على صدر السودان بعد أن غزاه بالقوة والعتاد العسكري. والرواية تبدأ بعودة الراوي إلى السودان ولقاءه مع أهله وأناس قريته. وقد رأى بين من أتوا لاستقباله شخصا لم يكن يعرفه، وبعد التعرف عليه علم بأنه من مواليد الخرطوم عام 1898م، وهي نفس السنة التي سقط فيها السودان على أيدي المستعمِرين البريطانيين إذ زحف إليه الجنود البريطانيون يقودهم القائد البريطاني هيربرت كتشنر. سقط

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص 100

الخرطوم على أيدي القوات البريطانية الاستعمارية، وخمدت الثورة المهدية. وولادة بطل الرواية مصطفى سعيد في عام 1898م صادفت مع سقوط الخرطوم والسودان في أيدي المستعمرين. ولعلّ الراوي يشير إلى هذا الجانب حينما يتحدث عن مصطفى سعيد: "فتحت ورقة فإذا هي وثيقة، مصطفى سعيد، من مواليد الخرطوم، 16 أغسطس عام 1898 ... الأب متوفى، الأم فاطمة عبدالصادق، فتحت بعد ذلك جواز سفره، الإسم، المولد، البلد، كما في شهادة الميلاد. المهنة ((طالب)). تاريخ صدور الجواز عام 1916 في القاهرة وجدد في لندن عام 1926. كان ثمة جواز سفر آخر، إنجليزي، صدر في لندن عام 1929. قلبت صفحاته فإذا أختام كثيرة، فرنسية وألمانية وصينية ودنماركية"[1]. ويقول الكاتب جورج طرابيشي في كتابه "شرق وغرب، رجولة وأنوثة" بهذا الصدد: "لقد ولد مصطفى سعيد على سبيل المثال، في الخرطوم، في 16 آب 1898م. وهذا التاريخ لا معنى له، ككل تاريخ آخر، في المطلق. لكنه في سياق تاريخ السودان تاريخ خطير الدلالة: فقد ولد مصطفى سعيد في اليوم الذي بدأت فيه القوات الإنكليزية –بقيادة كتشنر– اجتياحها لدولة السودان".[2]

ظهرت هذه الرواية عام 1967م أي بعد أن أحرزت البلاد العربية والشرقية استقلالها، ولكن أحداث الرواية تقع في النصف الأول من القرن العشرين حينما كان الاستعمار الغربي البغيض جاثما على الأراضي الشرقية ويملي كلمتها على أهاليها. وفي ذلك الوقت كان وجدان الناس مليئا بالبغض ضد الاستعمار وسياسة المستعمرين في بلادهم. حيث كانوا في صراع دموي حقيقي مع الاستعمار وكانوا يحاولون إخراجه من بلادهم، ولذا نرى جذوة الانتقام والثأر عند بطل الرواية أشد وأقوى. فبطل الرواية مصطفى سعيد يريد أن يكيل للمستعمرين صاعا بصاع فهو يصيح فيهم:"إنني جئتكم في عقر

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص، 21
[2]. شرق وغرب، رجولة وأنوثة، جورج طرابيشي، ص: 144

داركم، قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ."[1] ويقول في مقام آخر"وأنا أحس تجاههم بنوع من التفوق ،فالاحتفال مقام أصلا بسببي، وأنا فوق كل شئ مستعمِر، إنني الدخيل الذي يجب أن يبت في أمره، حين جئ لكتشنر بمحمود ود أحمد وهو يرسف في الأغلال بعد أن هزمه في موقعة بترا، قال له "لماذا جئت بلدي تخرب وتنهب؟" الدخيل هو الذي قال لصاحب الأرض، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئا، فليكن أيضا ذلك شأني معهم."[2] وهنا نستطيع أن نرى ذكر القائد البريطاني كتشنر الذي أرسلته إنجلترا إلى السودان لاسترداده من أيدي المهديين بعد أن هزموا الإنجليز قبل سنوات وقتلوا الحاكم الإنجليزي "غردون" في ذلك الوقت. ونجد في صفحات كتب التاريخ بأن كتشنر وجنوده نكلوا بالسوادنيين المحليين تنكيلا، وساموهم سوء العذاب.

هذا، وقد كانت صور هذا الظلم والاضطهاد من قبل المستعمِرين حاضرة في ذهن بطل الرواية مصطفى سعيد، فهو يعلن عن خوضه في معركة شرسة حامية الوطيس مع الغرب المستعمِر، ويحاول أن ينتقم منه لكل ما قام به من ظلم وعدوان في وطنه الشرقي. فكما أنهم كانوا دخلاء مستعمِرين محتلين لبلاده، فهو يريد أن يلعب نفس الدور معهم، وفي ذلك يقول إدوارد سعيد في كتابه"الثقافة والإمبريالية" "إن الطيب صالح نجح بامتياز في كتابة رواية تتضمن خطابا موازيا لخطاب الاستعمار الذي قدّمه الروائي جوزيف كونراد في روايته "قلب الظلام."[3]

ونجد في الرواية أيضا بأن مصطفى سعيد جاء إلى الغرب ليغزوه مثلما غزوا بلاده، "أنا الغازي الذي جاء من الجنوب، هذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيا."[4] وفي ذلك يقول

[1] .موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص.100
[2] .نفس المصدر-ص.99
[3] .الثقافة والإمبريالية- إدوارد سعيد ص.212
[4] .موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص.160

الدكتور مصطفى عبد الغني في كتابه "الإتجاه القومي في الرواية العربية" إن مصطفى سعيد جاء إلى الغرب وتحت جلده عرق عربي عميق لايستطيع الخلاص منه قط، وقد سعى للخلاص من المناخ العربي، لكنه لم يستطع، ومن ثم حاول أن يلعب دور الآخر – الأعلى والأرقى – حاول أن يغزو الغرب، كما غزانا الغرب من قبل....حاول مصطفى إثبات تفوقه على الغرب بأن يعكس الأدوار، فبدلا من أن يغزونا الغرب في عقر دارنا، لأنه أقوى، نقوم نحن بغزو الغرب، نغزو نحن(هو) هذا الغرب في نسائه."[1]

وعند مصطفى سعيد بطل الرواية، يبلغ الثأر ذروته وتبلغ لعبة الدور المعاكس أقصاها حينما يصبح عبد الأمس إله اليوم فها هي إيزابيلا سيمور إحدى فرائسه تقول له "أنت إلهي لا إله غيرك."[2] وأيضا "اغتلنى أيها الغول الإفريقي ..احرقني في نار معبدك أيها الإله الأسود.دعني أتلوى في طقوس صلواتك العربيدة المهيجة"[3] وربما يصل الأمر إلى حد كون المنتقم سيدا وضحيته جارية له، آن هممند قالت له: "أنت مصطفى مولاي وسيدي وأنا سوسن جاريتك. هكذا كل منا اختار دوره في صمت، هي تمثل دور الجارية وأنا أمثل دور السيد.....قلت لها بصوت آمر: تعالى، فأجابتني بصوت خفيض:سمعا وطاعة يا مولاي.."[4]ويقول الدكتور محمد نجيب التلاوي: "أما الطيب صالح في (موسم الهجرة إلى الشمال) فأيقن بقوة المستعمِر...وأيقن بضعف المقاومة وقاد بروايته التعبير عن مرحلة الانتقام ورغبة الانتصار تراوده...ولذلك امتلأ حقدا على الآخر الأوروبي (المستعمر) بصورته الكريهة يقول مصطفى سعيد "نعم يا سادتي جئتكم غازيا في عقر داركم، قطرة من السم الذي حقنتم به

[1].الإتجاه القومي في الرواية العربية-د.مصطفى عبد الغني-ص،98
[2] .موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص،112
[3].نفس المصدر-ص،110
[4].نفس المصدر-ص، 146-147

شرايين التاريخ "ويتذكر بعض ما يزيد حقده على الآخر...:"إنني أسمع صليل سيوف الرومان في قرطاجة...البواخر مخرت النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود، وأنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم، إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوروبي الأكبر "إنه إنفجار الذاكرة الحاقدة لتلقيح الواقع الأوروبي بلهيب الحقد"[1].

وربما يتسائل شخص لماذا هذا الحقد والبغض للمستعمِرين؟ وماذا كان وراء الانتقام وطلب الثأر من جانب مصطفى سعيد؟ ولماذا كان هو مصمما على أن يثأر لنفسه ولوطنه ولشرقه ككل. والجواب عنه هو أن مصطفى كان يفعل ذلك ردا على كل ما قد قام به المستعمرون من ظلم وعدوان واستغلال في بلاده وفي كل البلاد الشرقية التي احتلوها واستعمروها. وفي ذلك يقول جورج طرابيشي في كتابه: "كان مصطفى سعيد يثأر بطريقته الخاصة للعشرين ألفا من السودانيين الذين سقطوا برشاشات كتشنر. وكان يثأر أيضا بطريقته الخاصة من مدرسة حضارة الاستعمار، مدرسة التدجين والمثاقفة، وبقدر ما كان الرجل الأبيض يزعم أن له مهمة حضارية في مجاهل القارة السوداء، كان مصطفى سعيد ينتصب كالطود- أو كالوتد- شاهد نفي. وإذا شئنا أيضا شاهد إثبات....فبقدر ما تركزت جهود الرجل الأبيض "البشرية" أو "التحضيرية" على ذهن جلد الرجل الأسود بقشرة براقة، كان دور مصطفى سعيد أن يكشط عنه باستمرار تلك القشرة. كان البرفسور ماكسويل فستركين في جامعة أوكسفورد، وعضو اللجنه العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البروتستينية في أفريقيا، يقول له "في تبرم واضح "أنت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوي، فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لأول مرة."[2]. ونجد في هذا القول

[1]. الذات والمهماز- التلاوي- د.محمد نجيب ص، 65-66
[2]. شرق وغرب، رجولة وأنوثة، جورج طرابيشي، ص: 154-155

للناقد جورج طرابيشي صور الاستعمار البريطاني العديدة في السودان من الغزو العسكري المباشر، والغزو الثقافي والفكري، وتوظيف جميع الوسائل المتاحة لفرض هيمنته السياسية والثقافية على السودان وأهله.

وهكذا نرى بأنه وراء حقد مصطفى سعيد على الغرب وكراهيته لهم قصة استعمار في العصرالحديث، وحروب طويلة دامية في الماضي البعيد. فالاستعمار وتداعياته على العالم الشرقي من أهم الدوافع التي أدت إلى حدوث نضال وصراع طويلين عنيفين،كما أن للموضوع بعدا تاريخيا قديما قدم تاريخ الشرق والغرب. فذاكرة بطل الرواية مصطفى سعيد مليئة بما قد مارسه الاستعمار من ظلم وعدوان على الشعوب المتبوعة المقهورة المستعمرة وسلب لحقوقها ونهك لأعراضها ونزف لمواردها. فهو دائما في شعوره الواعي واللاوعي لا يزال يشعر بما قد تمخض عنه الاستعمار من صراع ونضال وظلم وعدوان.

ونجد في صفحات الرواية العديدة ذكر مظالم المستعمرين على الشعوب المستعمرة، فهم كانوا يتصرفون في الأمور كيفما يشاءوا..كانوا يظلمون الناس ويقهرونهم ويجبرونهم على دفع العوائد أضعافا مضاعفة. وكانوا يتصرفون في الأمور كأنهم آلهة. "كان مفتش المركز الإنكليزي إلها يتصرف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند. وكانوا يتصرفون كالآلهة، يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد، ويتذمر الناس منا ويشكون إلى المفتش الإنكليزي وكان المفتش الإنكليزي طبعا هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرين الدخلاء"[1]. وفي مكان آخر في الرواية

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص، 57

نرى بأنه قد جرى حوار بين زميل لراوية الرواية اسمه منصور، ورجل إنجليزي اسمه رتشارد واستطرد الحوار إلى الحديث عن الاستعمار الأوروبي"سمعت منصور يقول لرتشارد: "لقد نقلتم إلينا مرض اقتصادكم الرأسمالي. ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات الاستعمارية نزفت دماءنا ولاتزال؟ "وقال له رتشارد: "كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا. كنتم تشكون من الاستعمار، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار المستتر، يبدو أن وجودنا بشكل واضح أو مستتر ضروري لكم كالماء والهواء."[1]

وقد سيطر الغرب بالاستعمار على أكبر مجموعة من الأراضي الشرقية وحولوها إلى مناطق نفوذ لهم وأنشأوا فيها مؤسسات وشركات لمصالحهم وحدهم لا لمصالح الناس المحليين وفي ذلك يقول مصطفى سعيد" وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول"نعم"بلغتهم، إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوروبي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في السوم وفي فردان، جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر من ألف عام"[2]ونرى في الرواية أن الاستعمار وسياسة المستعمرين لنهب ثروات العالم المستعمر وتغيير ثقافاته هي طاغية على فكر مصطفي سعيد، فيجد الراوي في غرفة مصطفي سعيد الخاصة عدة كتب كتبها بطل الرواية وكلها تتعلق بالاستعمار."اقتصاد الاستعمار، مصطفي سعيد، الاستعمار والاحتكار، مصطفي سعيد، الصليب والبارود، مصطفي سعيد، اغتصاب أفريقيا ،مصطفي سعيد."[3] كما أننا نجد في الرواية ذكر الأوروبيين الذين كانوا يستمعون إلى محاضراته وكان الحضور يضم عددا هائلا ممن عملوا في الشرق وساهموا بطريقة ما في الاستعمار الأوروبي البغيض."وبعد المحاضرة

[1]. نفس المصدر-ص، 63
[2]. نفس المصدر-ص، 100
[3]. موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص،138

التفوا حولي، موظفون عملوا في الشرق، ونساء طاعنات في السن مات أزواجهن في مصر والعراق والسودان ورجال حاربوا مع كتشنر واللنبي، ومستشرقون وموظفون في وزارة المستعمرات ومؤظفون في قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية."[1]

تصوير الاستعمار الأوروبي والصراع الحضاري في الرواية:

وبالإضافة إلى سرد الاستعمار الأوروبي وصوره وأشكاله في الرواية، حاول الطيب صالح أن يسرد أيضا قصّة الصراع الثقافي والحضاري الذي نتج فيما نتج عن الاستعمار الأوروبي الحديث ووقائعه وأحداثه، كما نتج عن الوقائع الاستعمارية الماضية. وهذا الصراع يتجلى في أقوال وتفوهات وأعمال بطل الرواية مصطفى سعيد في أوضح صورة وأجلها. فها هو بطل الرواية مصطفى سعيد يقول: "أنا الغازي الذي جاء من الجنوب، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيا، أنا الملاح القرصان وجين مورس هي ساحل الهلاك، ولكن لا أبالي"[2]. وهكذا نجد بطل الرواية يحدد غايته من اقتحامه للعالم الغربي ويتبنى موقفه تجاهه، إنه قد صمم على أن يفني حياته في سبيل أخذ ثأره من الشمال الأوروبي. ويقول الكاتب جورج طرابيشي في كتابه"شرق وغرب" بهذا الصدد: "جين مورس كانت عالما ومصطفي كان عالما، ولم يكن بين هذا العالمين من سبب غير الصراع وغير العنف. لم يكن هذا العنف ابن يومه، بل كان من موروثات التاريخ. على امتداد صفحات قصة حياته كان مصطفى سعيد يتحدث عن "جرثوم مرض عضال"، جرثوم مرض فتاك" له من العمر ألف عام، وليس مصطفى سعيد هو الذي دفع بآن هممند وشيلا غرينود إلى الانتحار، وليس مصطفى هو الذي قتل جين مورس، وإنما هي العدوى، عدوى الجرثوم القاتل "أصابتهن منذ ألف

[1].نفس المصدر-ص. 143-144
[2]. نفس المصدر-ص.160

عام" ماذا حدث قبل ألف عام؟ وما تلك الجرثومة؟ وماذلك المرض العضال؟ المرض مرض أوروبي، والجرثومة جرثومة "العنف الأوروبي الأكبر"، وقبل ألف عام عرض العنف الأوروبي أولى تظاهراته: الحملات الصليبية، في تلك الحملات كانت الجرثومة في طور الحضانة، وكان كل ما حدث في تلك الحملات الثماني قبل ألف عام مجرد إرهاص بما سيحدث في كبرى الحملات الصليبية: الحملة الاستعمارية."[1]

عند مصطفى سعيد جرثومة المرض الفتاك أصابت الأوروبيين قبل ألف عام، ويقول إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوروبي الأكبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل. ولما انتحرت الأوروبيات لم يكن وراء انتحارهن سبب غير سبب هذا لجرثوم الفتاك. وهذا ما قاله البرفسور ماكسول فستركين:"قال لهم إن آن هند و شيلا غرينود كانتا فتاتين تبحثان عن الموت بكل سبيل، وأنهما كانتا ستنتحران سواء قابلتا مصطفى أو لم تقابلاه....هاتان الفتاتان لم يقتلهما مصطفى سعيد ولكن قتلهما جرثوم مرض عضال أصابهما منذ ألف عام"[2] ويقول محي الدين صبحي بهذا الصدد:"ومصطفى سعيد يتبنى هذا التعليل ويضيف إليه أن دوره يقتصر على أنه هيج"كوامن الداء حتى استفحل وقتل" ولكن تبنيه لهذا الدور كان مدفوعا بحقد تاريخي على عنفهم هم الأوروبيين. فهو حقد إيجابي وإن كان اتخذ مظهرا سلبيا في البداية، مع النساء الثلاث اللواتي انتحرن، ثم تجلى بمظهر إيجابي فاجع في جريمة قتل ليست الغيرة وحدها هي الدافع إليها، وإذا تقصينا الحقد التاريخي في النفس الواعية وغير الواعية عند مصطفى سعيد وجدناه يتلخص في تصميمه على رد الأذى بأذى آخر: الأذى الجماعي، الأذى التاريخي، قبل الأذى الشخصي. الفتيات اللائي انتحرن لم يؤذنه، لم

[1]. شرق و غربن رجولة وأنوثة، دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية - جورج طرابيشي-ص،167-168
[2]. موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص،36

يؤذهن أذى شخصيا، وإنما حرك فيهن"كوامن الداء حتى استفحل و قتل"، فهو أذى جماعي أما جين مورس فقد آذته بشخصه فقتلها."[1]

ونرى نماذج عديدة للحقد التاريخي على العنف الأوروبي في شعور البطل اللاوعي في الرواية. ومن تلك النماذج قوله هذا "إنني أرى في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة وقعقعة سنابل خيل اللنبي وهي تطأ أرض القدس. البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود"[2] فهذا نموذج البعد التاريخي للصراع الحضاري الذي يظهر للبطل كأنه كتاب سجلت فيه أوراق الأحداث الماضية للعنف الأوروبي وهو يقلبها صفحة صفحة بداية من العنف الروماني القديم وصولا إلى العنف الاستعماري الأوروبي الجديد. ومن أروع أمثلة لهذا الصراع التاريخي بين الشرق والغرب ما يلفقه مصطفى سعيد من قصص تاريخية وأحداث قديمة موجودة في شعوره اللاوعي حينما يقول لإيزابيلا سيمور:"هذا إذن يفسر كل شئ، يفسر لقاءنا صدفة وتفاهمنا تلقائيا، كأننا تعارفنا منذ قرون، لا بد أن جدي كان جنديا في جيش طارق ابن زياد، ولابد أنه قابل جدتك، وهي تجني العنب في بستان في أشبيلية، ولابد أنه أحبها من أول نظرة، وهي أيضا أحبته. وعاش معها فترة ثم تركها وذهب إلى أفريقيا، وأنت جئت من سلالته في أسبانيا."[3]

ونجد في الرواية بأنه بعد أن اختلق مصطفى سعيد هذه القصة الطريفة ولفقها، عاد فذكر ما حدث في الماضي البعيد "وتخيلت برهة لقاء الجنود العرب لإسبانيا، مثلي في هذه اللحظة ،أجلس قبالة ايزابيلا سيمور،ظمأ جنوني تبدد في شعاب التاريخ في الشمال. إنما أنا لا أطلب المجد، فمثلي لا

[1].الطيب صالح:عبقري الرواية العربية-مجموعة مؤلفين –ص.47-48
[2] . موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص،99-100
[3] . موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص،45

يطلب المجد."[1] وحدث نفس الشئ لبطل الرواية مع آن همند التي قالت له:" أنت جميل تجل عن الوصف، وأنا أحبك حبا يجل عن الوصف، قلت لها بعاطفة أخافتني حدتها: وأخيرا وجدتك يا سوسن"...قالت بعاطفة لا تقل عن عاطفتي حدة. كيف أنسى دارنا في الكرخ في بغداد على ضفة نهر دجلة أيام المأمون؟.....ورغم إدراكي إنني أكذب، فقد كنت أحس إنني بطريقة ما أعني ما أقول، وإنما هي أيضا رغم كذبها فإن ما قالته هو الحقيقة."[2] ويقول محي الدين صبحي بهذا الصدد:"هذا الإحساس بأن الكذب والتهريج والتلاعب بالألفاظ والموقف هو وحده الحقيقة، وهو وحده وسيلة النفاذ إلى الحقيقة، هو لب الموقف كله. إنه سخرية تجمع بين التهكم والامتثال والتلاعب والتحقق، فإذا تابعنا التعليق الماضي وجدناه يقول:"كانت تلك لحظة من لحظات النشوة النادرة التي أبيع عمري كله. لحظة تتحول فيها الأكاذيب أمام عينيك إلى حقائق، ويصير التاريخ قوادا، ويتحول المهرج إلى سلطان."[3]

فهذه النماذج من الرواية تقدم لنا رؤية واضحة وصريحة للصراع الحضاري القديم بين الشرق والغرب والذي يتغلب على شعور البطل الواعي واللاواعي حتى أنه ما يلفقه من كذب و يعتبره من وهم و خيال يصبح حقيقة واقعة في الماضي البعيد والقريب والذي أثره ممتد إلى الحاضر الذي يعيشه، في ظلّ الاستعمار الأوروبي الحديث وتداعياته على العالم المستعمَر.

هذا، ونجد في الرواية بأن بطل الرواية مصطفى سعيد يمثل دور الرعيل الأول من المفكرين العرب الذين اصطدموا بالغرب اصطداما، وواجهوا الاستعمار الأوروبي في عنفوانه وذروته. فكانت

---

[1]. نفس المصدر-ص. 45

[2]. نفس المصدر-ص.144

[3]. الطيب صالح:عبقري الرواية العربية-مجموعة مؤلفين –ص. 52- 53

الصدمة لهم بمثابة تمزق الذات وتشتتها، ثم تلاهم الجيل الثاني من المفكرين الذين لم يكن احتكاكهم مع الغرب في مثل تلك الصدمة التي اصطدم بها الجيل الأول، فكان أثرها عليهم أقل حدة و أقل تمزقا. وهذا نفسه ما حدث لبطل الرواية وراويها. فمصطفى سعيد ولد في عام 1898م، وهو كما ذكرناه فيما مضى نفس العام الذي احتل فيه الإنكليز بلاده السودان، ولم يحرز السودان استقلاله إلا في عام 1956م. وبين العهد الاستعماري والاستقلال فترة 58 عاما. وأثناء هذه الفترة كانت بلاد البطل تناضل وتكافح من أجل الاستقلال. ولأجل ذلك نرى أن أثر الاستعمار على البطل كان كبيرا وكثيرا. فهو أيضا كان يناضل ولكن بطريقته الخاصة. كان يثأر من الإنكليز ويغزوهم في عقر دارهم. ويقول جورج طرابيشي في كتابه "شرق وغرب، رجولة وأنوثة: دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية": "مصطفى سعيد يمثل جيل الهجرة الأولى، والراوية جيل الهجرة الثانية، وهذه واقعة لها أثرها الحاسم في ما اتسمت به حياة الأول من اختلال واضطراب، وما اتصفت به حياة الثاني من اتزان واعتدال، فمصطفى سعيد باعتباره أول من تزوج إنكليزية، تلقى صدمة الاحتكاك بالغرب في مطلق عنفها وعريها. أما الراوية فقد كان وقعها عليه، باعتباره الثاني، أخف، وكان بالتالى أقدر على هضمها."[1]

[1]. شرق وغرب- جورج طرابيشي-ص- 176-177

الفصل الرابع

الاستعمار البريطاني في السودان والغزو الثقافي

إذا أخذنا قضية الصراع بين الشرق والغرب في الرواية العربية من ناحيتها السياسية وجدنا لها صورا وأنماطا وأشكالا عديدة. وهذه الصور والأشكال تبدو واضحة كلما يأتي الحديث عن الصراع السياسي في الرواية العربية. والكلام عن الصراع الحضاري في المجال السياسي يخلق في الذهن – بالضرورة– في شعور أبطال الروايات الوعي واللاوعي صورة للأحداث التاريخية القديمة من حروب صليبية واستعمارية ووقائع مؤلمة وحقائق تاريخية جديدة من الاستعمار الغربي الجديد وسياساته القمعية والعدوانية ضد الشعوب الشرقية المستعمرة. فالرواية العربية تجسد كل هذه الأحداث والوقائع وممارسات الغرب الاستعمارية تجسيدا جليا واضحا، كما أنها أصبحت مجلى لما قد تبناه الغرب من خلال دراسته للشرق وعاداته وقيمه ومعتقداته من مواقف ونماذج لإقامة الدليل علي مبدأه الاستعماري أو كما يقول الدكتور محمود حمدي زقزوق "إضفاء طابع التبرير العقلي علي المبدأ الاستعماري" فهو يقول:" لم تكن علاقة الاستشراق بالاستعمار–كمايظن–هي مجرد إضفاء طابع التبرير العقلي على المبدأ الاستعماري، بل كان الأمر كما يقوله إدوارد سعيد أيضا أبعد من ذلك و أعمق، فالتبرير الاستشراقي للسيادة الاستعمارية قد تم قبل حدوث السيطرة الاستعمارية على الشرق، وليس بعد حدوثها، فقد كان التراث الاستشراقي بمثابة دليل للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة علي الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها."[1] و الدكتور إدوارد سعيد الذي نقل عنه محمود حمدي زقزوق قوله قد ذهب إلى أبعد من ذلك وقال إن الشرق بالذات هوشبه اختراع أوروبي لإبقاء تمركزهم الأوروبي والهيمنة

[1].الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري-د-محمود حمدي زقزوق ص-50

الأوروبية على العالم من خلال رؤية وفكر وفلسفة وذنظام عالمى اختروعوه من عند أنفسهم، فها هو يقول في كتابه:"ولقد كان الشرق شبه اختراع أوروبي ،وكان منذ الزمن الغابر مكانا للرومانس، أي قصص الحب والمغامرات ، والكائنات الغريبة، والذكريات والمشاهد التى لاتنسى، والخبرات الفريدة الرائعة."[1]

ومع مرور الزمن لم يلبث الاستشراق أن أصبح مؤازرا للغرب في سياساتهم الاستعمارية ومعاونا لهم على نفوذهم السياسى والاقتصادى والثقافى في العالم المستعمر"وفي القرن التاسع عشر والعشرين أصبح للمستشرقين كيان أثقل وزنا، بسبب انحسار نطاق الجغفرافيا الخيالية والحقيقية في هذه الحقبة، ولأن العلاقة بين الشرق وأوروبا أصبحت تخضع للتوسع الأوروبى العارم طلبا للأسواق والموارد والمستعمرات، وأخيرا لأن الاستشراق كان قد اكتمل"تحوله الذاتي" من "خطاب علمي"إلى مؤسسة إمبريالية"[2]

فالاستشراق إضافة إلي كونه خطابا علميا لعب دورا آخر هاما ومؤثرا للغرب المستعمر في ممارساته الاستعمارية وتوسيع دائرة نفوذه في العالم كله. وحتى أننا نرى أن المستشرقين أصبحت غايتهم من وراء دراستهم للشرق وعاداته وأخلاقه وتراثه هى بث التشكيك والوهن والارتباك في قيم الشرق وفلسفة حياته ومن ثم إضعاف روح المقاومة والنضال في أهله كما أشار إلى ذلك الدكتور مصطفي السباعي"فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شئوونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات، ليتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموه، ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية

[1]. Orientalism-Edward Said page, 1
[2].الاستشراق -د. إدوارد سعيد ص- 173

والمعنوية في نفوسنا وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا، وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية، فنفقد الثقة بأنفسنا، ونرتمي في أحضان الغرب، وبذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم و ثقافتهم خضوعا لا تقوم لنا من بعده قائمة."[1]

فالاستشراق لم يكن يعني بدراسة الشرق وموروثه الحضاري فحسب، بل تجاوز ذلك إلى تقديم خبرات ومساعدات للغرب في عمليته لاستعباد العباد والبلاد كما أنه صار إحدى الوسائل الناجحة والناجعة في يد الغرب المستعمر للوصول إلى هدفه من إخضاع الشعوب وإذلالها وإيقاعها في شراك استعماره. ولم نمض طويلا حتى رأينا أن الاستشراق هوالذي أذاع في العالم فوقية الغرب المستعمِر ودونية الشعب المستعمَر.

ولعل ما نرى أو نقرأ من فكرة ودعاية "التمركز الأوروبي" أو "المركزية الأوروبية" ما يدل على هذا. وقد أشار إلى هذا الجانب الدكتور محمد نجيب التلاوي"...ثم بدأ الآخر رحلته الاستعمارية نحونا...ثم بدأ الآخر الاستعماري يتشكل في صور جديدة ، وتجاوز رغبته في القنص المالي و استغلال الموقع الجغرافي إلى أمور أخرى شكلت خطرا حقيقيا على الذات العربية عندما حاول إحلال لغته...ولما فشل روج للعامية...ثم بدأ الاقتراب من الموروث الثقافي العربي بكم من المستشرقين اندفعوا تحت لواء "المركزية الأوروبية للعالم" لا للاكتشاف والحيدة العلمية الخالصة، ولكن لإثبات تغلغل المد الأوروبي الثقافي في تلك الحضارة العربية بداية من اليونان...وكان من الطبيعي التعرض والتعريض بالتاريخ والعقيدة."[2] ويكرر الدكتور محمد نجيب التلاوي نفس الأمر في مكان آخر في كتابه" ومن المفترض أن الحضارات حلقات يسلم بعضها بعضا إلا أن (المهماز الأوروبي) هو

[1].الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم-السباعي د-مصطفي ص.21-21
[2].الذات والمهماز- التلاوي د-محمد نجيب ص،12

الذي حرك الصراع علي هذا النحو بما قدمه من صورة استعمارية بشعة، وبما قدمه من رؤية عنصرية تتمثل في المركزية الأوروبية للعالم وهي مركزية تسعى لتهميش دور الحضارات الأخر في العالم."[1]

ويظهر لنا من خلال ما قدمنا من ذكر للاستشراق وما قد قام به من تشويه لصورة الشعوب الشرقية وتقديم رؤى وأفكار ونشر آراء و أيدولوجيات لإخضاع الشعوب الشرقية وإذلالها، أن الاستشراق قد لعب دورا هاما في تمهيد الأرضية للتغلغل الاستعماري في البلاد الشرقية. فرأينا ما رأينا من مأساة وخراب ودمار جره إلينا الاستعمار الأوروبي. من ثم ظهور هذا الصراع بين الشرق والغرب على الصعيد السياسي.

وقد تجلت صور هذا الصراع بين الشرق والغرب في الرواية العربية في أوضح صورتها حتي أن الشمال والجنوب قد تحولا إلى رمزيين قويين للغرب والشرق، الأول يرمز إلى الغرب المستعمِر مع ممارساته العدوانية وسلوكياته الاستعلائية الفوقية، والثاني يرمز إلى الشرق المستعمر الذي عاني من ضربات الاستعمار الغربي المتتالية. ولما قيض للشرق أن ينهض نهضته ويفكره في أمره ومصيره و يناضل ضد الاستعمار، بدأ يحاول أن يثأر من المستعمر وسياساته الاستعمارية الظالمة فظهر ما ظهر من صراع سياسي كبير أثره لا يزال ممتدا حتى اليوم وقد أشار إلى ذلك الدكتور حسن عليان في كتابه: "ففي الوقت الذي يحن فيه الغربي إلى الشرق العربي فإن حنينه لا ينبع من روح مغامرة التعرف إلى الشرق، بل ينبع من مصالحه الاستراتيجية في السياسة والاقتصاد، واحتلال الوطن العربي، ومن رغبته في شل فاعلية الشرق ليظل تابعا له، وساحة لمنظومة مصالحه في الوقت نفسه فإن العربي

[1] نفس المصدر ص ،43

يحن إلى الغرب مسوقا برغبته في التعرف إليه، وإلى مقومات حضارته الجديدة وفواعلها، ووفق رؤيته الدونية في البداية التي تجبره على اتباع سيده بصورة أو بأخرى."[1]

إلا أن هذا الاتباع والإحساس بالدونية ما عتم أن تحول إلى إحساس بالانتماء إلى هوية ثقافة ممتازة، وشعور بالفخار والفوقية أمام الغرب المستعمر المتعالي. وفي ذلك يقول محمد راتب الحلاق في كتابه:"...فالقابل الشرقي لابد أن يتحول إلى الفعل، وفعله يبدأ بالعودة إلى أصوله –بأصولية معينة– والفاعل الغربي سيتحول حينئذ إلى قابل يذهب إليه الشرقي مندهشا ثم مساجلا...ثم محاورا...وإذا استمر الغربي في تعنته و استعلائه وتكبره فقد يذهب إليه مقاتلا."[2]

ونجد في رواية"موسم الهجرة إلى الشمال"للطيب صالح نماذج لما قد ذهب إليه إدوارد سعيد والآخرون من الرأي بأن الشرق هو بمثابة مكان للرومانس عند المستشرقين، فها هي آن هموند يقول عنها مصطفي سعيد بطل الرواية "رأتني فرأت شفقا داكنا كفجر كاذب، كانت عكسي تحن إلى مناخات استوائية، وشموس قاسية، وآفاق أرجوانية، كنت في عينيها رمزا لكل هذا الحنين."[3] وتكرر نفس القول شيلا غرينود"لسانك قرمزي بلون الغروب في المناطق الإستوائية،كنت لا أشبع منها ولا تشبع مني....ما أروع لونك الأسود، لون السحر والغموض والأعمال الفاضحة"[4]ونجد نفس الأمر في أمكنة عديدة من الرواية.

هذا، والحديث عن الاستعمار في الرواية ليس مقصورا على القضايا السياسية وحدها كما أن الحديث عن الا ستعمار وتداعياته على العالم المستعمر وذكر الاستشراق وتشويهه لتاريخ الشرق

[1].العرب والغرب في الرواية العربية د-حسن عليان ص،237
[2].دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر-الحلاق محمد راتب-ص،21
[3].موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح ص،33
[4]. موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح ص،140

وتمويهه للصورة الشرقية لم هذا كله هو جل ما اهتمت به الرواية، بل جاوزت ذلك وحاولت أن تعطينا صورا واضحة للصراع الحضاري سواء أكان الأمر يتعلق بالسياسة أم بالثقافة. وذلك لأن الرواية العربية هي نشأت في وقت كان الاستعمار على ذروته، وفي عنفوانه، وكان يحاول أن يهدم الثقافات المحلية ويبني على أساسها بل أنقاضها ثقافاته وبذلك يسيطر على الشعوب المستعمرة ثقافيا مثل سيطرته عليه سياسيا وعسكريا وقد جند الاستعمار لذلك العمل طائفة من المستشرقين درسوا الشرق ومعتقداته وأخلاقه وأديانه وشوهوا صورته واتصفوه بالتزمت والقيود والأغلال كما أشار إلى ذلك الدكتور مصطفي السباعي:"ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوسنا، وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث وما عندنا من عقيدةوقيم إنسانية فنقد الثقة بأنفسنا ونرتمي في أحضان الغرب نستجدي منه المقاييس الأخلاقية والمبادئ العقائدية، وبذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعا لاتقوم لنا من بعدها قائمة".[1]

نعم، هذا الخضوع الروحي والديني والثقافي للغرب هو ما كان المستعمرون يحاولون أن يبقوا الشعوب المستعمرة فيه أينما حلوا مثلما تم لهم الخضوع السياسي والعسكري. ولأجل ذلك نرى الغرب يحاول دوا نشر قيمه وفلسفته وثقافته وفلسفة حياته وإضعاف القيم المحلية والروح المعنوية والدينية لدى الشعوب المستعمرة كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه"الشرق الجديد" حيث يقول:"فإنما نشر الغرب حيث ذهب حضارة استعمارية قامت على إضعاف الروح المعنوي في الشعوب التي نزلت بها، وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس في تلك الشعوب،كما نشرت فيها روحا مادية

[1]. الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم-السباعي د-مصطفي ص.22

قتلا للإيمان بكل المعاني السامية أو المثل العليا توطيدا للاستعمار وآثاره. وهذا الروح المادي هو ما يعمل المستعمرون نشره أنى ذهبوا،لأنهم يرونه الصلة الوحيدة التي تربط الحاكم بالمحكوم في كل أمة ليس بين الحاكم والمحكوم فيها صلات لغة أو جنس أو دين."[1]

هذا هو أحد النماذج للممارسات الاستعمارية العدوانية الثقافية على الشعوب الشرقية والمستعمرة وهي حقيقة ثابتة في كتب التاريخ الحديث والفكر الحديث ولنرى كيف انعكس ذلك كله في هذه الرواية التي صورت الغزو الثقافي من قبل المستعمِرين. وإذا أردنا أن نرى انعكاسات هذا الصراع والغزو الثقافي في الرواية، فما علينا إلا أن نقلب صفحات الرواية. وسنجد فيها كما هائلا من الأفكار والرؤى ضد الاستعمار والغزو الثقافي الغربي للشعوب الشرقية وفيها ذكر محاربة هذا الاستعمار الثقافي وإعادة الروح الدينية والمعنوية في نفوسنا وإعادة الثقة بديننا وقيمنا و فلسفتنا وفكرنا والرجوع إلى أصلنا وجذورنا الثقافية.

[1].الشرق الجديد-د.محمد حسين هيكل ص،69

دعوى مهمة تحضير الشعوب والغزو الثقافي

إذا ما سردت رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" الاستعمار البريطاني في السودان وتداعياته على الشعب السوداني، فإنها في نفس الوقت تسرد دعوى مهمة تحضير الشعوب الأفريقية والآسيوية التي ادّعى بها المستعمرون الأوروبيون. وقد تناولت الرواية الحديث عن دعوى المستعمرين هذه لتحضير الشعوب، وما صاحبه من غزو ثقافي وفكري، وما نتج عنه من اختلال وانشطار في الذات الشرقية المستعمَرة. والرواية هي تمزج بين سردها للاستعمار الأوروبي السياسي والعسكري، والاستعمار الفكري والغزو الثقافي. فكما نجد في الرواية ذكر العساكر والجنود الأوروبيين، ومؤسسات الاستعمار، وآلياته وأدواته، ففي نفس الوقت نجد فيها ذكر المستشرقين وفتح المدارس الإنجليزية، وتعليم الأبناء المحليين اللغة الإنجليزية، وفرض وإبقاء الهيمنة الثقافية الغربية على الأناس المحليين. وكذلك نجد فيها الكلام عن إرسال الجمعيات التبشيرية إلى المستعمَرات الأوروبية لغرض تغيير ثقافات الرجال المحليين.

وعند قراءتنا للرواية نجد بأن المستعمِرين البريطانيين كانوا قد أتوا إلى السودان مدفوعين بأجندتهم الاستعمارية لفرض هيمنتهم السياسية والثقافية على البلاد الشرقية بما فيها السودان. وأجندتهم كانت تضمّ الغزو العسكري والسياسي، والغزو الفكري والثقافي معا. وفي ذلك يقول الدكتور عبد الرحمان محمد إيدي النور في كتابه " Tayeb Salih's Season of Migration to the North: An Ideo-Literary Evaluation": "والقراءة الدقيقة للرواية ترينا بأن الاستعمار كان يحمل معه أجندته العلنية والسرية معا. وأجندته العلنية كانت هي —كما ادعوها– تحضير المحليين، إلا أن

الأجندة الخفيّة فكانت تتمثل في غزو أذهان الناس وعقولهم، واستغلال مواردهم. وكانت هذه الأهداف الاستعمارية قائمة على أساس الفرضية بأنه إذا ما تمّ غزو شخص ذهنيا، فإن جميع قوته وموارده ستكونان تحت سيطرة الغزاة. الهيمنة الذهنية والفكرية والأيدلوجية كانت هي المركبات الخطيرة لهذه الأجندة الخفيّة... وقد وظّف الاستعمار أداة التعليم للحصول على هذه الأهداف الواضحة".[1]

وإذا ما نظرنا في الرواية، فإننا نجد هذه الأجندة العلنية والسرية للمستعمرين واضحة في أتم صورها وأشكالها. ونرى في الرواية بأن بطل الرواية مصطفى سعيد الذي لما كان يحاكم عليه في المحكمة في جريمة قتل، فإن أستاذه البروفيسور ماكسول فستركين الذي كان يدافع عنه في المحكمة يقول له: "أنت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوى، فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك، كأنك تخرج من الغابة لأول مرة. ومع ذلك، فها هو يستعمل كل مهارته ليخلصني من حيل المشنقة".[2]

ويظهر من هذا الاقتباس المذكور أعلاه بأن الإنجليز كانوا يهدفون من وراء دعاويهم للمهمة الحضارية، السيطرة على المحليين وغزوهم الفكري والثقافي. وسرد الأحداث في الرواية يتناول أيضا الحديث عن فتح المدارس والكليات من قبل الإنجليز في السودان لتعليم أبناءه اللغة الإنجليزية وتثقيفهم بالثقافة الغربية. وهنا أذكر نفس المشهد للمحكمة. وهنا يقول مصطفى سعيد: "البواخر

[1]. Tayeb Salih's Season of Migration to the North: An Ideo-Literary Evaluation, Dr. Abdel Rahman Mohd Yeddi Elnoor, P. 248

[2]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 86

مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود، وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول "نعم" بلغتهم".[1]

وهنا نرى الطيب صالح يمزج بين الاستعمار العسكري والغزو المباشر المتمثل في ذكر المدافع والجنود، وبين الاستعمار الثقافي والغزو الفكري المتمثل في ذكر فتح المدارس والكليات وتعليم اللغة الإنجليزية والثقافة الغربية. ونتيجة لذلك، أدى هذا الاستعمار الثقافي والغزو الفكري إلى خضوع الناس للمستعمرين، وفقدان روح المقاومة لدى المحليين. فلم تبق لديهم إلا أن يقولوا "نعم" على كل ما كان يقوم به المستعمرون، لأنه قد تمت لهم السيطرة على المحليين فكريا وسياسيا وثقافيا.

والرواية تسرد منذ بداية صفحاتها رحلة مصطفى سعيد الدراسية منذ عهد طفولته في السودان إلى أن أرسل إلى إنجلترا ودرس في إحدى جامعات لندن، ونبغ في دراسته وعلمه حتى صار أستاذا فيها. وعند الحديث عن دراسة مصطفى سعيد في عهد طفولته في السودان، فإننا نرى الرواية تصوّر تصويرا دقيقا لذلك المشهد الذي نرى فيه المؤظفين البريطانيين يجوبون بلاد السودان، راكبين الفرس للبحث عن أبناء السودان، وتسجيل أسمائهم في المدارس التي أنشأوها وحاولوا بذلك تعليمهم وتثقيفهم بالثقافة الغربية. إلا أننا نرى في الرواية بأن السودانيين كانوا يتوجسون خيفة من هذا التعليم الإنجليزي، وكانوا يظنّونه شرا وخطرا عليهم وعلى تقاليدهم وتراثهم. ولأجل ذلك نرى أنهم كانوا يخفون أولادهم من المؤظفين الإنجليز، وحتى أن الأولاد بأنفسهم كانوا يفرون منهم. ولنرى ماذا يقول بطل الرواية مصطى سعيد: "كان ذلك أول عهدنا بالمدارس، أذكر الآن الناس كانوا غير راغبين

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 87

فيها. كانت الحكومة تبعث أعوانها- يجوبون اللاد والأحياء، فيخفي الناس أبناءهم. كانوا يظنونها شرا عظيما جاءهم مع جيوش الاحتلال. كنت ألعب مع الصبية خارج دارنا، فجاء رجل على فرس ، في زي رسمي، ووقف فوقنا، جرى الصبية، وبقيت أنظر إلى الفرس وإلى الرجل فوقه. سألني عن اسمي فأخبرته. قال لي كم عمرك، فقلت له لا أدري. قال لي: "هل تحب أن تتعلم في المدرسة؟ قلت له: ما هي المدرسة؟ فقال لي: بناء جميل من الحجر وسط حديقة كبيرة على شاطئ النيل، يدق الجرس وتدخل الفصل مع التلاميذ وتتعلم القراءة والكتابة والحساب ... ثم قال الرجل: حين تكبر و تخرج في المدرسة وتصير مؤظفا في الحكومة".[1]

وهكذا نرى بأن المستعمرين البريطانيين اعتنوا بفتح المدارس والكليات في السودان اعتناءا كبيرا. وكان هدفهم هو تثقيف المحليين بالثقافة الغربية، وأيضا تأهيلهم ليكونوا مؤظفين في المناصب الحكومية التابعة للإدارة الإنجليزية الاستعمارية. ويبدو من هنا أيضا بأن سياسة التعليم الاستعمارية كان هدفها هو تخريج جيل من المؤظفين المحليين وتوظيفهم في الوظائف الصغرى التابعة لإدارة الإنجليز. وفي ذلك يقول المأمور المتقاعد في الرواية: "قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم في السودان قفزا. كان بالفعل كأنه يسابق الزمن. بينما ظللنا نحن بعده في كلية غردون أرسل هو في بعثة إلى القاهرة، وبعدها إلى لندن. كان أول سوداني يرسل في بعثة إلى الخارج، كان ابن الإنجليز المدلل... وكنا نطلق عليه بخليط من الإعجاب والحقد "الإنجليزي الأسود". وعلى أيامنا كانت اللغة الإنجليزية

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 22

هي مفتاح المستقبل. لا تقوم لأحد قائمة بدونها. وكلية غردون كانت مدرسة ابتدائية. كانوا يعطونها من العلم ما يكفي فقط لملء الوظائف الحكومية الصغرى".[1]

ولعل الدكتور عبد الرحمان محمد إيدي النور يشير إلى هذا الجانب في كتابه "Tayeb Salih's Season of Migration to the North: An Ideo-Literary Evaluation "، وهو يقول: "وقد أعطوا بعضا منهم ذلك المستوى من التعليم الذي كان يكفي لملء الوظائف الإدارية. ويذكر المأمور بأن التعليم الكولونيالي كان فقط لأجل ملء الوظائف الحكومية الصغرى في المؤسسات الإدارية الكونيالية. وقد حاولوا بهذا التعليم لأن يجعلوا الناس المحليين يفكرون مثل الإنجليز، ويعتمدون عليهم في المدى البعيد".[2]

وهكذا نرى بأن هذه الرواية سردت الاستعمار الأوروبي البريطاني الحديث في السودان من جميع نواحيه وأشكاله. فكما هي سردت الاستعمار السياسي والعسكري للسودان، فإنها في نفس الوقت سردت الاستعمار الفكري والغزو الثقافي فيه. وهي بذلك حاولت أن تقدّم لنا صورا وأشكالا واضحة للاستعار الأوروبي والصراع الحضاري والثقافي بين الشرق والغرب أو بين الجنوب والشمال.

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 49-50

[2]. Tayeb Salih's Season of Migration to the North: An Ideo-Literary Evaluation, Dr. Abdel Rahman Mohd Yeddi Elnoor, P. 250

الباب الثالث

رواية "قلب الظلام" وسرد الاستعمار البلجيكي في الكونغو

الفصل الأول: تاريخ بلاد الكونغو في العصر الحديث وزحف الاستعمار الأوروبي إليها

الفصل الثاني: التكالب على أفريقيا في القرن التاسع عشر ومؤتمر برلين وقيام دولة الكونغو

الفصل الثالث:دولة الكونغو الحرة ومظالم المستعمرين في الكونغو حتى الاستقلال

الفصل الرابع: رواية "قلب الظلام" وسرد الاستعمار الأوروبي البلجيكي في الكونغو

الفصل الخامس: سرد الإمبراطورية وفكرة تحضير الشعوب في الرواية

الفصل الأول

تاريخ بلاد الكونغو في العصر الحديث وزحف الاستعمار الأوروبي إليها

تاريخ بلاد الكونغو حافل بأمجاد وأحداث تاريخية كبيرة للقبائل التي عاشت هذه البلاد، وحكمتها قبل زحف الاستعمار إليها. وقد كتب المؤرخون بأن أول اتصال للكونغو مع الغرب بدأ منذ أوائل القرن الخامس عشر الذي شهد فيه الكونغو زحف الاستعمار البرتغالي إلى أرضها. وبما أن دولة الكونغو الواقعة في أفريقيا الوسطى كانت غنية بالثروات الطبيعية والأراضي الخصبة والموارد الغنية، فإن المطامع الأوروبية فيها لم تزل قائمة ومستمرة منذ ذلك الحين. وأول دولة أوروبية وصلت بلاد الكونغو واكتشفتها من بين الدول الأوروبية هي البرتغال التي تراكمت لديها خبرات وطموحات في اكتشاف واستغلال البلدان المجاورة للكونغو. ولما دخلت القوى البرتغالية إلى بلاد الكونغو، فإنها تذرّعت في سياساتها لاستغلال أراضيها واستنزاف مواردها بدعوى تحضير شعوبها وإدخال التعليم والحضارة إلى أرضها، وإدخال التطورات الحديثة إليها.

وقد سعى البرتغاليون منذ أول يوم دخولهم في بلاد الكونغو إلى إدخال عدد كبير من سكّانها في الدين النصراني، وقد عملوا جاهدين لذلك الغرض. ولم ينتبه ملوك الكونغو إلى هذه المخططات والمؤامرت في البداية إذ كانوا مستريحين إلى ما وجدوه من أدوات الحضارة الجديدة، وما حصلوا عليه من بعض وسائل العيش الحديثة، إلا أن تجارة الرقيق لأجل مساعدة مستعمراتها في أمريكا الجنوبية في البرازيل وغيرها، واستنزاف موارد الكونغو أثارت انتباه ملوك الكونغو فيما بعد، بعد أن رأوا في سياسات البرتغاليين الاستعمارية ما ينهك دولتهم، ويرهق شعوبهم، ويضعف

مملكتهم. فبدأوا يندمون ولا ساعة مندم، ولا مناص لهم من الاعتراف بالحقيقة الطارئة عليهم، والاستسلام للأوضاع الجديدة التي وجدوا أنفسهم فيها وهي أن بلادهم لم تعد تبق تحت سيطرتهم. فقد انطلق السهم، وخرجت البلاد من أيديهم، وصار الأمر في أيدي المستعمرين البرتغاليين.

إلا أن حكم البرتغاليين لم يكن مطلقا وبدون منازع للأبد. فإنه ما لبثت البرتغال أن وجدت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر القوى الأوروبية الأخرى التي بدأت تتزاحمها وتتصارع وتتحارب فيما بينها لبسط نفوذها في القارة الأفريقية. وبذلك بدأت المنافسة الشديدة فيما بين القوى الأوروبية المتمثلة في القوى الألمانية والبريطانية والفرنسية والإيطالية والبلجيكية وغيرها. وقد صادف ظهور وبزوغ هذه القوى الأوروبية مع ضعف وانحسار القوة البرتغالية. ولم يمض بنا وقت طويل حتى رأينا فرنسا وإنجلترا تتقاسمان فيما بينهما أكبر مساحات أرضية أفريقية بفعل قوتهما العسكرية وثروتهما الاقتصادية الضخمة. إلا أن القوى الأوروبية الأخرى في القرن التاسع عشر بدأت تداعبها طموحات توسعية واستعمارية في اقتطاع أراض أفريقية بغرض توفير المواد الخام لشركاتها وجلب الموارد لمواطنيها. ولتحقيق هذا الهدف بدأت تكثّف جهودها التي كادت أن تفشل طموحات وأهداف القوتين الأوروبيتين الكبيرتين الفرنسية والبريطانية آنذاك، وكادت تنذر بتعميق الفجوة بين القوى الأوروبية الأخرى لو لا قيامها بترتيب أوراقها ولم شملها ودخولها في حوار في مؤتمر برلين عام 1884م لتقسيم أفريقيا فيما بينها. وهذا الحدث الخطير والكبير يعرف في تاريخ العصر الحديث بـ "التكالب على أفريقيا". وقد اجتمعت في مؤتمر برلين 13 قوى أوروبية بحثت عن قضية تقسيم أفريقيا فيما بينهما لمدة أربعة أشهر.

وكان مما جاء في مؤتمر برلين هو أن إدارة دولة الكونغو قد أعطيت للملك البلجيكي ليوبولد الثاني الذي حكمها لمدة 23 سنة من 1885م إلى سنة 1908م. وقد شهدت فترة حكمه لبلاد الكونغو أحداث تاريخية مؤلمة ومأساوية بحق الشعب الكونغولي. وقد عانى الشعب الكونغولي في تلك الفترة من المآسي وأنواع التعذيب مما يندى لها جبين الإنسانية ومما يشيب لها الولدان. وقد نرى في كتب التاريخ لتلك الفترة بأنه لأجل كسب أرباح مضاعفة من الموارد والثروات الطبيعية الموجودة في الكونغو، أجبر المستعمِرون العاملون تحت تصرف الملك ليوبولد الثاني، السكان المحليين لحياة تعيسة وقاسية. وقد جاء في تقارير الصحفيين والمكتشفين والكتاب الأوروبيين —ومنهم الروائي جوزيف كونراد– الذين زاروا الكونغو، ذكر المساوئ والمظالم بحق الشعب الكونغولي، إلى حد أن أيدي وأرجل بعضهم كانت قد قطعت. وقد اضطر السكان المحليون إلى أن يموتوا جوعا ومرضا وظلما. وهذه التقارير أثارت ضجة كبيرة في الأوساط الحكومية في الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية مما نتجت عنه ضغوط دولية أدت إلى تخلي الملك ليوبولد الثاني عن حكم دولته المعروفة بـ "دولة الكونغو الحرة". وبالتالي تم ضمّ بلاد الكونغو إلى مستعمرة بلجيكية في عام 1908م. وقد استمر حكم بلجيكا لبلاد الكونغو إلى عام 1960م حيث حصلت فيها دولة الكونغو على استقلالها. إلا أن الاضطرابات والفوضى السياسية لم تزل تتخلل بعض فترات الاستقرار والتطور في عهد ما بعد الاستعمار.

الكونغو في العهد القديم

دولة الكونغو تقع في وسط أفريقيا، ومساحتها الأرضية تقدر بـ1.5 مليون مربع ميل، وهي بذلك تشكّل ثالث أكبر دولة أفريقية.[1] والمنطقة التي تقع فيها بلاد الكونغو كانت غنية بالثروات المعدنية والطبيعية منذ الزمن الغابر. وهي للآن تتباهى بالغطاء الحرجي الكبير والكثيف في وسط أفريقيا. ويجري فيها نهر الكونغو الذي هو أحد الأنهار الكبيرة في أفريقيا، والذي تصبّ فيه روافد عديدة في طريق جريانه إلى المحيط الأطلنطي. وتوجد فيها جبال شامخة وغابات كثيفة. كما هي تحمل في أراضيها ثروات ضخمة للمعادن الثرية من أمثال الذهب، والألماس، والنحاس والمغنيسيوم والكوبالت والمعادن الطبيعية الأخرى. وفي ذلك يقول ديفيد رينتون والآخرون في كتابهم بأن بلاد الكونغو "تمتلك الاحتياطات الكبيرة للذهب والنحاس والألماس واليورانيم وأيضا النفط... والكوبالت والمغنيسيوم والفضة...والقهوة والشاي والمطاط وكل هذه الأشياء تستورد من هذه البلاد"[2].

والسكان الأوائل لهذه المنطقة من وسط أفريقيا كانوا يعيشون في الغابات، وكانوا يقتاتون على الفواكه والحبوب التي كانوا يجنونها ويجمعونها في الغابات، كما كانوا يصطادون الحيوانات، ويعيشون حياة التنقل والترحال داخل الغابات وضواحيها. وهؤلاء كانوا يعرفون بـ "الأقزام"، – وأبناؤهم حتى الآن يعيشون في الغابات– وذلك كان قبل 2500 سنة قبل المسيح "هؤلاء هم السكان الأوائل المعروفون في المنطقة، وهم كانوا يعيشون في الغابات الواقعة في شمال وشرقي شمال البلاد".[3]

---

1. Colonialism in the Congo: Conquests, Conflict and Commerce, Sarah Kreckel, P 2.
2. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P.1.
3. Ibid, P. 7.

وقد شهدت المنطقة مهاجرة أناس إليها من جانب الحدود الشمالية والغربية للبلاد في القرون الأخيرة قبل الميلاد. وقد عرف هؤلاء الرجال المهاجرون باسم "بانتو". وفي ذلك يقول المؤرخ جورجيز نزونجولا ناتالاجا في كتابه "The Congo from Leopold to Kabila: A People's History": "بلاد الكونغو تقع في منطقة واسعة يقطنها رجال تربطهم إنتماءات ثقافية ولغوية. ومعظهم يتحدثون بلغات "بانتو"، والأغلبية الناطقة بلغات "بانتو" دخلت البلاد قبل قرون عديدة في سلسة من المهاجرات التي تسببت في تشريد السكان الأصليين الذين يعرفون بالأقزام، والذين يوجدون في عدد ضئيل في بعض مناطق الغابات النائية. وتعيش في الكونغو حوالي 250 مجموعة عرقية، وهي تتقاسم فيما بينها تقاليد ثقافية عديدة." [1]

وأخيرا نجد الطبقة الثالثة للرجال المعروفين بـ "نيلوتو" الذين أتوا إلى وسط أفريقيا من المنطقة التي تعرف الآن بالسودان، وقد أتوا معهم بالخبرات في الزراعة وصيد الأسماك ورعي الحيوانات. ومع مرور مئات من السنين، تداخلت رجال "بانتو" مع "نيلوتو"[2]. وهؤلاء هم السكان الأوائل للمنطقة، والذين كانت معيشتهم بسيطة، وأوضاعهم الاقتصادية والسياسية لم تكن مستقرة. إلا أنهم مع مرور الأيام والسنين، وبفضل احتكاكهم مع البلدان المجاورة واستخدامهم للآلات الزراعية والأدوات اليدوية بدأوا يكوّنون لأنفسهم نوعا من الكيان الذي بدأ يشتغل بالنشاطات التجارية، والذي بدوره أدى إلى ظهور المملكات وحتى الإمبراطوريات. "وفي حوالي 700 قبل الميلاد بدأت تجارة النحاس على مساحة 1500 ميل فيما بين منطقة كاتانجا والبحيرات الشمالية. وكانت هذه التجارة تشكل بداية ظهور القيادات. ورعي الحيوانات شجّعت على ظهور المملكات والإمبراطوريات، ولا نعرف إلا

[1] The Congo from Leopold to Kabila: A People's History, Georges Nzongola Ntalaja, P 14.
[2] Colonialism in the Congo: Conquests, Conflict and Commerce, Sarah Kreckel P 2 .

قليلا عن تطوّر المجتمعات إلا أننا نرى نظاما متقدما قد بدأ يتطوّر لتقسيم العمل فيما بين الرؤساء، والقساوسة والأطباء... والمملكات الأولى تشمل مملكة"لوبا" والتي تم تأسيسها في بداية القرن السادس عشر... ومملكة "باكونغو" التي تأسست حوالي القرن الرابع عشر عند فوهة النهر، وكانت تشمل أجزاء من بلاد "أنجولا" اليوم كما كانت تشمل الكونغو كما نراها اليوم".[1]

وهكذا نرى بأنه منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد، ظهرت المملكات بعد أن ازداد عدد السكان، وامتزجت المجتمعات الصغيرة بعضها مع البعض. وكانت هناك ثلاث مملكات كبيرة في أفريقيا الوسطى. وهي مملكة "لوبا" ومملكة "لواندا" ومملكة "كونغو". واستغلت هذه المملكات الفرص التجارية المتاحة لها، وبدأت تكسب أرباحا كبيرة في تجارة النحاس والمعادن والثروات الطبيعية الأخرى. وقد أدى كل ذلك إلى ظهور وتوسع الشبكات التجارية مع ما يصاحب ذلك من انتشار التقاليد الثقافية. وأحيانا كانت الشعوب المتجاورة تتحارب فيما بينهما للسيطرة على الأراضي والموارد، إلا أننا نرى بأنه في أغلب الأحيان كانت هذه العلاقات التجارية ودّية وآمنة.

الاستعمار البرتغالي لأفريقيا الوسطى

لقد رأينا فيما مضى بأن النشاطات التجارية بدأت تنشط في أفريقيا الوسطى في حوالي القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد شهدت تلك الفترة ظهور المملكات والإمبراطوريات في أفريقيا الوسطى جراء ازدهار التجارة ونشاطاتها. وفي أثناء تلك القرون بدأت القوى الأوروبية ورجالها يكتشفون مناطق جديدة وقارات جديدة في العالم الجديد. ومن بين تلك القوى الأوروبية التي ركّزت

[1]. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P. 8-9

عنايتها على مهمة الكشوف الجغرافية للبلدان الأفريقية والآسيوية والأمريكية هي بلاد البرتغال التي كانت قد اكتشفت بلدانا ومناطق جديدة في أفريقيا وآسيا، وأدخلتها في مناطق نفوذ لها. وما لبثت أن وصلت الكشوف البرتغالية في أفريقيا إلى وسط أفريقيا التي أغرت البرتغاليين ومن حذا حذوهم من المستعمرين فيما بعد بثرواتها المعدنية ومواردها الطبيعية. وفي ذلك يقول ديفيد رينتون والآخرون في كتابهم: "وفي عام 1482م، ديجو كاما أصبح أول أوروبي يزور منطقة "الكونغو الحديثة" لما وصل فوهة نهر الكونغو وأبحر لبعض الأميال في أعلى النهر. وقد أثار هذا النهر انتباهه... وأحس ديغو كاو بأهمية نهر الكونغو كطريق للنقل والتجارة. وقد أقام عمودا حجريا كعلامة على هذا الاكتشاف البرتغالي، وادّعى بأن نهر الكونغو والأراضي المحيطة به هما ملك للملك البرتغالي. واعتبر كاو نفسه بأنه هو الذي قام باكتشاف هذه المناطق، إلا أن مملكة "باكونغو" كان لها ملك يحكمها واسمه كان "نزنجانا ناكوو".[1]

وقد أدى اكتشاف هذا النهر الكبير وهذه البلاد الغنية بالثروات في وسط أفريقيا إلى قيام البرتغال بصرف أنظارها إليها واستغلال مواردها ودعم شركاتها وبيع سلعها المنتجة في البرتغال. كما قام البرتغاليون بنشر الدين النصراني والثقافة الغربية بين أهل بلاد الكونغو. وفي ذلك يقول الدكتور فرغلي على تسن هريدي في كتابه "تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: الكشوف- الاستعمار- الاستقلال": "منذ أن اكتشف ديجو كاما نهر الكونغو، ونشاط البرتغاليين الكشفي في هذا الإقليم كبير، وكما حدث في الحبشة قاد القساوسة الكاثوليك ورجال الدين في الكنغو محركة الكشف الجغرافي، ففي عام 1540م وصلت حركة كشفية إلى المدينة التي عرفت فيما بعد باسم سان

[1]. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P 12

سلفادور (San Salvador) والتي تبتعد عن الساحل ما يقرب من 200 ميل، حيث اعتنق ملكها وبعض مواطنيها الدين الجديد، الأمر الذي ساعد المبشرين والقساوسة على سرعة الحصول على كثير من المعلومات عن هذه المنطقة، غير أن عملهم توقف عام 1570م بسبب تعرض الكونغو لغزو قبائل جاجاس "Jaggas" ومن ثم لم يستطيع البرتغاليون أن يستأنفوا نهضتهم الكشفية في الكنغو بعد ذلك إلا في خلال القرن السابع عشر".[1]

واتضح لنا مما سبق بأن البرتغاليين وجهوا أنظارهم إلى الكونغو والدول المجاورة لها بهدف استغلال الموارد الطبيعية الموجودة فيها، وأيضا بهدف تأمين طرق النقل والحركة والتجارة في ذلك الجزء من المنطقة. وقد سعوا منذ أول يوم دخولهم في أفريقيا الوسطى لعقد الاتفاقيات والمعاهدات مع زعماء القبائل والملوك الحاكمين في المنطقة، حتى نرى المكتشف الأول البرتغالي ديجو كامو يلتقي مع ملك مملكة باكونغو "نازنجا ناكوو" ويشجّعه على أن يرسل سفراءه إلى ملك البرتغال. وبالتالي قام الملك "ناكوو" بفتح مملكته أمام البرتغاليين، واستقبل المبشّرين والجيش البرتغالي والتجار البرتغاليين. "رجال الكونغو كانوا يريدون أن يحصلوا من خلال التجارة مع أوروبا على الآلات الأوروبية مثل السفن التجارية والمطابع وأكثر من ذلك، الاستفادة من الإخصائيين في مجال الطب والتعليم وبناء السفن والملاحة. وعلى الجانب الآخر، كان البرتغاليون صارمين لأن يستغلوا تفوقهم الاقتصادي الذي أحرزوه من خبراتهم وعملهم في البحر، وبفضل أسطولهم البحري التجاري الكبير وسيادتهم في البحر. والسيادة على البحر كانت تتطلب عقد المعاهدات مع الذين كانوا يسيطرون على طريق نهر

[1]. تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: الكشوف- الاستعمار- الاستقلال، الدكتور فرغلي على تسن هريدي، ص 53

الكونغو وما وراء ذلك. ومثل هذه الاتفاقيات كانت بمثابة كارثة لأية علاقة حقيقية بين الكونغو والبرتغال".[1]

ولم يكن هدف البرتغاليين والمكتشفين الأوروبيين الآخرين وراء دخولهم الأراضي الأفريقية هو استغلال الفرص التجارية وكسب الأرباح الباهظة من خلال هذه التجارة غير المتكافئة بين البرتغال والكونغو وحده فقط، بل إنهم كانوا يهدفون وراء ذلك نشر الدين المسيحي والثقافة المسيحية في محاولة منهم طمس الهوية الثقافة والتقاليد المجتمعية والقبلية التي توارثها الكونغوليون أبا عن جد، وفرض هيمنتهم السياسية والاقتصادية والثقافية على المدى الطويل. وقد كانوا يحاربون الدول الإسلامية القائمة بدول الجوار بهدف كسر شوكتها، وإضعاف قوتها، وإبقاء سيطرتها وهيمنتها على الأراضي الأفريقية في تلك المنطقة. وقد نجح المستعمرون في محاولاتهم هذه إلى حد كبير كلما توغلوا ودخلوا في كل بقعة أرضية من البقاع الأفريقية. وبالمثل نرى البرتغاليين لما دخلوا بلاد الكونغو، فإنهم بالإضافة إلى إقامة شركاتهم ومحطاتهم التجارية والبحرية، كانوا قد حاولوا إدخال عدد كبير من الناس المحليين في الدين النصراني. ونرى نفس التجربة تتكرّر في بلاد الكونغو لما دخل إليها البرتغاليون مما كانت لها آثار دينية وثقافية كبيرة وواسعة في أفريقيا الوسطى إلى درجة أن دخل أحد ملوكها في الدين المسيحي. وفي ذلك يقول ديفيد رينتون والآخرون في كتابهم: "وبعد الزيارات المتعاقبة فيما بين عام 1491م وعام 1500م، اعتنق "نازنجا ناكوو" بنفسه الكاثوليكية، وكان ذلك بداية أول أسرة حاكمة كاثوليكية في أفريقيا. وفي عام 1506م خلفه نازنغا مبينا آفونسو لسدة الحكم. وكان آفونسو رجلا فطنا ومثقفا، والذي ظنّ بأن بلاده ستستفيد من بعض الأشكال المحددة للتعليم

[1]. Challenge of the Congo, Kwame Nkrumah, P. 2

الأوروبي، والعلوم الأوروبية...والأسلحة الأوروبية والبضائع الأوروبية. والتحدي الماثل أمامه كان يتمثل في السماح بالتحديث المنتقي، والأخذ بأفضل العلوم الغربية والمعرفة الأوروبية، والرفض لما هو أسوأ، ونبذ الظلم والجشع".[1]

وقد تبين لنا مما سبق بأن ملوك مملكة الكونغو بدأو يستقبلون البرتغاليين منذ ذلك العهد الغابر ظنا منهم بأن العلوم والبضائع والسلع والأسلحة الأوروبية الحديثة ستمكّنهم من إحكام سيطرتهم على بلادهم ومحاربة أعدائهم في البلدان والمناطق المجاورة، والذين كانوا يتربصون بهم الدوائر. إلا أن التجارة غير المتكافئة بين مملكة الكونغو والبرتغال لم تكن لتفيدهم وتفيد شعوبهم، ولم تكن لتضمن لهم الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي الذي تمنّوه وطمحوا إليه. وذلك لأن البرتغاليين كانوا يطمحون إلى استغلال الموارد البشرية والثروات الطبيعية الضخمة الموجودة في الكونغو. وإضافة إلى ذلك كانوا يريدون أن يجعلوا من الكونغو محطات تجارية واقتصادية كبيرة يخرجون منها إلى بلدان مجاورة لاكتشافها وبسط نفوذهم فيها.

والهدف الآخر الذي طمحوا إليه هو إدارة ومساعدة المستعمرات البرتغالية الأخرى في أمريكا الجنوبية والبلدان الأخرى في أفريقيا. وقد كانوا في حاجة إلى الأيدي العاملة الرخيصة لبناء وتطوير مستعمراتهم في البرازيل والمغرب والبلدان الأخرى. وقد ظنّوا بأنهم لو وصلوا إلى بسط نفوذهم في أفريقيا الوسطى وإحكام سيطرتهم فيها، فإن ذلك سيضمن لهم تلك الأيدي العاملة الرخيصة. ولم يمض بنا وقت طويل حتى رأينا البرتغاليين ينخرطون في تجارة الرقيق في أفريقيا الوسطى على نطاق واسع. وفي ذلك يقول الدكتور فرغلي علي تسن هريدي في كتابه: "وقد تمكن المكتشفون البرتغاليون

[1]. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P 12

والأسبان الأوائل والذين يعتبرون روادا لتجار الرقيق من الاتصال بسكان السواحل في غربي أفريقيا، والتودد إليهم لإقامة محطات أو مستودعات للمؤن تأخذ منها السفن المبحرة جنوبا حول أفريقيا في طريقها إلى مراكز التجارة الغنية في جزر الهند الشرقية وآسيا ما تحتاج إليه من مؤن، وبعد هؤلاء المكتشفين وصل الإرساليون ثم تبعهم السياسيون، ومن العجيب أن كثيرين من حكام غربي أفريقيا كانوا يتبادلون التمثيل السياسي وبعض البلاد الأوروبية مثل بشونة ومدريد والفاتيكان في روما... إذا كان البرتغاليون هم أول من بدأ تجارة الرقيق في القرن السادس عشر، إلا أن هذه التجارة بلغت مداها في بريطانيا، حتى أن الملكة إليزابيث الأولى شاركت الجلابين في تجارتهم هذه وإعارتهم بعض سفن أسطولها".[1] ويقول في مكان آخر في كتابه: "وقد تحولت محطات تموين السفن ومستوطنات الإرساليات في القرن السابع عشر على طول ساحل أفريقيا الغربي إلى نقط حصينة لحجز الرقيق، ثم ترحيلهم إلى العالم الجديد، وقد استمر الأوروبيون يحتلون هذه المستوطنات المحصنة والتي كانت فوق أكمات يمكن الدفاع عنها أو على جزر قريبة من الساحل لا يمكن الأفريقيين مهاجمتها، ومن هذه النقط الحصينة بدأت تجارة الرقيق المنظمة، وبدأت تتسع وتتحول إلى تجارة شاملة، عصبتها الإنسان من ناحية أفريقيا، والمدافع والذخيرة وبعض السلع المصنوعة أو المأكولات أو الذهب أو بعض المعادن من جانب الأوروبيين الذين كانوا أيضا يقايضون على الرقيق بالأسلحة والخمور وبعض السلع الاستهلاكية".[2]

وهكذا نرى بأنه بعد الزيارات والمعاهدات التي عقدها البرتغاليون مع ملوك الكونغو، فإنهم بدأو يستنزفون الموارد والثروات الطبيعية في ذلك البلد على نطاق واسع. وشهدت تجارة الرقيق نشاطا

[1]. تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: الكشوف- الاستعمار- الاستقلال، الدكتور فرغلي علي تسن هريدي، ص 78
[2]. نفس المرجع، ص 90

واسعا كبيرا، حتى أن ملوك الكونغو أنفسهم بدأو يشعرون بالخطر الكبير الذي يدهمهم جراء نقص الأيدي العاملة في بلادهم، وخلو الأسر من الرجال والأفراد العاملين. ولما أيقنوا بأن الخطر قد استفحل، والشر تطاير، وأصبحت الأمور في بلادهم في حرج شديد، فإنهم اضطروا لأن يكتبوا إلى الملوك البرتغاليين يرجون منهم إلغاء تجارة الرقيق أو التخفيض في نشاطاتها. "ومع مرور الزمن نشاطات البرتغاليين بدأت تقلق "مملكة باكونغو"، وازداد قلقها بعد أن وسّع البرتغاليون في تجارة الرقيق وامتهنوها. وقبل مجيئهم كان الرقيق جزءا من الاقتصاد المحلي وأحيانا يتم تبادلهم، لكن هذه التجارة لم تكن محور اقتصاد المنطقة قط. وتحت الحكم البرتغالي، ازداد عدد الرقيق، وتضاعف دورهم الاقتصادي".[1]

وقد تبين لنا من هذا بأن البرتغاليين اتخذوا من تجارة الرقيق نشاطا تجاريا كبيرا. وقد مر بنا أيضا بأن حاجتهم إلى الرقيق والأيدي العاملة كانت شديدة، إذ كانوا يحتاجون إلى الرقيق لممارسة نشاطاتهم الاستعمارية والتجارية وإدارة مستعمراتهم في البلدان المختلفة على سبيل المثال في دولة المغرب التي كانوا يملكون فيها الأراضي الواسعة، وأيضا للعمل في مستعمراتهم في البرازيل التي كانوا يرسلون الرقيق إليها لأعمال الحفر والتعدين، وحصاد القهوة. وكانوا يرسلون هؤلاء العمال إلى المزارع في البلد الكاريبي أيضا. ولكي يستمر العمل والنشاط التجاري في هذه البلاد النائية، فإن البرتغاليين انخرطوا في تجارة الرقيق لضمان الأيدى العاملة الرخيصة المنتظمة. وقد اتخذ البرتغاليون سياسة خلق وإثارة فتنة بين الكونغو وبين المملكات والمناطق المجاورة اعتقادا منهم بأن أي عنف واقتتال سيؤديان في نهاية الأمر إلى ازدياد عدد الرقيق. إلا أن ملك مملكة "باكونغو" آفونسو لما رأى هذه الممارسات

[1]. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P.13

الخطيرة بحق شعبه، فإنه كتب إلى الملك البرتغالي هذه الرسالة الآتية: "كل يوم يقوم التجّار باختطاف رجالنا...أولاد هذه البلاد، وأبناء حكّامنا وضباطنا، وحتى الرجال من أسرتنا... نحن نحتاج في هذه المملكة إلى القساوسة ومعلمي المدراس فقط ولا نحتاج إلى البضائع إلا إذا كانت خمرا... وأملنا أن لا تكون هذه المملكة مكانا لتجارة ونقل الرقيق".[1]

إلا أن هذه الرسالة لم يكن لها أي أثر ذي بال. فقد ضعفت قوة ملوك الكونغو في ذلك الوقت. وبدأو يواجهون تحديات خطيرة تهدّد بقاءها. وأخيرا اندلعت حروب أهلية دامية داخل بلاد الكونغو. وقد نجح البرتغاليون في كسب مناطق نفوذ لهم في البلاد المجاورة للكونغو. ولم تتوقف تجارة الرقيق بل ازداد نشاطها. وزادت الطين بلة ظهور القوى الأوروبية الاستعمارية الأخرى على الساحة الدولية والأفريقية وزحفها إلى القارة الأفريقية وتغلغلها في بلدانها. وهذه القوى بدأت تهدّد القوة البرتغالية وبدأت تزاحمها من كل جانب. وقد حاولت القوة البرتغالية مواجهتها، إلا أنها لم تستطع الصمود أمام هذه القوى الأوروبية المتمثلة في القوة البريطانية والفرنسية والإيطالية والألمانية والبلجيكية وغيرها.

[1]. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P. 13

الفصل الثاني

التكالب على أفريقيا في القرن التاسع عشر ومؤتمر برلين وقيام دولة الكونغو

قد اتضح لنا مما سبق بأن البرتغال كانت هي أول قوة أوروبية خلقت لنفسها وجودا كبيرا وحضورا واسعا في القارة الأفريقية منذ القرن الخامس عشر الميلادي، بعد أن اكتشف الرحالة والمكتشفون البرتغاليون المناطق الجديدة والعديدة في غرب ووسط وشرق أفريقيا. وقد استغل البرتغاليون الفرص التجارية الكبيرة المتاحة لهم، ولم يهتموا بتطوير أو تحديث البلاد الأفريقية إلا بقدر ما قد يعود بالنفع لهم، كما أنهم لم يستطيعوا أن ينفضوا عنهم غبار وقائع الظلم والاضطهاد والمساوئ التي ارتكبت ضد الناس المحليين. وقد كانوا أول من استفادوا من تجارة الرقيق وإرسال الأرقاء إلى مستعمراتهم في دول العالم الجديد التي اكتشفوها، واستوطنوا فيها، وأقاموا فيها المزارع التي كانت تدر لهم أموالا باهظة وأرباحا وافرة. إلا أن القوة البرتغالية لم تكن لتبقى قوة وحيدة مؤثرة وفاعلة في أحداث وتاريخ القارة الأفريقية للأبد. فقد جرّبت بعد سنين طويلة منافسة قوية وشديدة ومؤثرة من قبل الدول الأوروبية الأخرى التي بدأت تداعبها طموحات استعمارية في القارة الأفريقية، بهدف خلق وكسب مناطق نفوذ لها تضمن لشركاتها ومصانعها المواد الخام والموارد والثروات الطبيعية التي كانت تزخر بها الأراضي الأفريقية. وقد صادف هذا التنافس الأوروبي الشديد من جانب القوى الأوروبية الأخرى ضعف واضمحلال القوة البرتغالية. وفي ذلك يقول الدكتور فرغلي على تسن هريدي في كتابه: "اتخذت الدول الأفريقية سياسات معينة تجاه البرتغال في مؤتمر برلين، وكان المؤتمر قد عقد نتيجة للمعاهدة الإنجليزية البرتغالية سنة 1884م بخصوص حقوق السيادة في حوض

الكونغو، واقترحت وزارة الخارجية البرتغالية عقد مؤتمر للدول الاستعمارية، ومن ثم كان مؤتمر برلين الذي تمخض عنه سلسلة من الأحداث استمرت حتى سنة 1914م كان معظمها في غير صالح البرتغال. اشترك في المؤتمر إنجلترا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال، وبالرغم من التاريخ الاستعماري الحافل للدولة الأخيرة فقد كانت هي الوحيدة التي خرجت خاسرة من الصفقة، ومرجع ذلك إلى سمعتها الاستعمارية السيئة التي لطختها مساءات القرون من تجارة الرقيق والإهمال".[1]

وعلى الرغم من سقوط وانهيار حلفاءها، والخسائر الفادحة التي منيت بها، إلا أن القوة البرتغالية أبقت اهتمامها في المنطقة. "وفي منتصف القرن التاسع عشر قام التجّار العرب والتجّار السواحليون وتجار "نيام ويزي" من بلاد تانزانيا الحالية باختراق أعالي الكونغو من جانب الشرق، وبدأو نشاطاتهم التجارية في تجارة الرقيق والعاج. وبدأ ينشط فيه الأدب العربي ويزدهر، والذي كان يصف الرحلات في شمال ووسط أفريقيا. وقد أقام بعض التجار دولهم فيها. وقد حكم تاجر معروف باسم محمد بن الحمد أو تيبوتيب من زنجبار معظم أجزاء شرق الكونغو في التسعينيات من القرن التاسع عشر (1890)".[2]

وفي القرن التاسع عشر بدأنا نرى سيلا جارفا للاستعمار الأوروبي يتدفق من كل حدب وصوب. وبدأ الأوروبيون يتنافسون فيما بينهم لاقتطاع الأراضي الأفريقية، وهو ما عرف في التاريخ الحديث بـ"التكالب على أفريقيا"، الأمر الذي كاد أن يُغرق الدول الأفريقية والدول الأوروبية كلتيهما في صراع دموي ومستمر، وفي دوامة من الاقتتال والعنف والتشريد. "وكانت الدول ذات الأثر الفعال

[1]. تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: الكشوف- الاستعمار- الاستقلال، الدكتور فرغلي علي تسن هريدي، ص 113
[2]. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P. 15

في تلك الفترة هي إنجلترا وفرنسا والبرتغال، وكانت البرتغال تدعي سيطرتها على مناطق شاسعة من القارة منذ أيام مجدها في فترة الكشوف الجغرافية في القرن السادس عشر، لكن احتلالها الفعلي لهذه المناطق لم يكن فعالا ومؤثرا. وبدأت إنجلترا تعيد هذه الأمجاد في أذهان البرتغاليين، خصوصا بعد أن ظهرت نوايا الملك ليوبولد ملك بلجيكا في حوض الكونغو، فشجعت بريطانيا دولة البرتغال على إحياء هذه الإدعاءات القديمة في المنطقة... إلا أن مجرد تفكير بريطانيا في إعطاء هذه المنطقة الحيوية من أفريقيا كان عاملا قويا في دفع عجلة التكالب على القارة الأفريقية".[1]

وهذا التكالب على القارة الأفريقية نشأ وتفاقم جراء الجشع الأوروبي، والطمح الغربي، والتنافس المحموم بين الدول الأوروبية على امتلاك المناطق الجديدة في العالم وخاصة في أفريقيا. ولم تقتصر آليات الاستعمار على السيطرة العسكرية أو التجارية أو الاقتصادية وحدها فقط، وإنما تخطى الأمر ذلك وتجاوزه إلى ضمّ بعض المناطق الجديدة إلى الدول المستعمرة الأوروبية ضما كاملا مثلما فعلته فرنسا في الجزائر، أو إيطاليا في ليبيا. واستخدم الأوروبيون أحيانا وسيلة عقد المعاهدات مع رؤساء القبائل الأفريقية، كما استخدموا دعاوي تحضير الشعوب لتحقيق الأهداف والمصالح والتوسعات الاستعمارية. وفي ذلك يقول الدكتور فرغلي على تسن هريدي في كتابه: "وكانت تلك هي صورة الصراعات البسيطة قبل أن تفجر ألمانيا مشكلة التكالب على أفريقيا بعد الثورة الصناعية التي كانت تتطلب الحصول على مناطق المواد الخام وسوق لتصريف المنتجات الصناعية، وكانت الحاجة تتطلب أن تصبح منافذ القارة وخصوصا أنهارها حرة أمام جميع الدول، وزاد من عوامل التكالب، السعي لبناء الإمبراطوريات وتحقيق الأمجاد القوية، وتطبيق نظريات العنصرية وسيادة الرجل

[1]. تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: الكشوف- الاستعمار- الاستقلال، الدكتور فرغلي على تسن هريدي، ص 115

الأبيض، ثم السيطرة وبسط النفوذ، كل هذه العوامل كانت كفيلة بخلق جو من الشكوك نحو نوايا الدول الأخرى التي ساورت الدول الأوروبية سببا في جعل الأوروبيين يسعون للجلوس سويا للتفاهم على مائدة المفاوضات على عملية تنظيم التقسيم، وبشكل لا يحدث الفرقة والتعارض أو التصادم العسكري".[1]

ومن الجدير بالذكر بأن القرن التاسع عشر قد شهد موجة جديدة للاكتشاف الأوروبي للقارة الأفريقية ومجاهلها وبلادها وشالاتها وأنهارها وثرواتها. فمع بداية القرن التاسع عشر، ظهر للعيان ضعف القوة البرتغالية. وبدأت تزاحمها في امتلاك المناطق الجديدة واكتشاف البلاد الأفريقية النائية قوى استعمارية جديدة بما فيها بريطانيا وفرنسا وألمانيا. ولكن بريطانيا كانت هي صاحبة النفوذ الأكبر من بين جميع هذه الدول الأوروبية بفضل قوتها الصناعية وقواعدها البحرية وضخامة وقوة عتادها العسكري. وقد بدأ المكتشفون البريطانيون يكتشفون مناطق القارة الأفريقية ومجاهلها، وبدأو يبحثون عن طرق الأنهار التي قد تسهّل لهم وسائل النقل والتجارة. ومن بين أشهر المكتشفين البريطانيين الذين زاروا بلاد الكونغو والبلاد الأفريقية الأخرى هو ديفيد لفنجستون والذي "اشتهر باكتشافه لجنوب أفريقيا في أربعينات القرن التاسع عشر. وكلما اتجه إلى الأمام مدفوعا بعمله التبشيري، فإنه وجد لديه رغبة وطموحا كبيرين للسفر بعيدا وعميقا في داخل القارة. ومهمة لفنجستون كانت تدفعها عوامل عديدة: العمل الإنساني، والاعتقاد بعملية التحضير الناتجة عن التجارة، وأيضا الفكرة بأن أفريقيا هي مكان مساحة جديدة تنتظر بداية تاريخها. وقامت وزراة

[1]. تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: الكشوف- الاستعمار- الاستقلال، الدكتور فرغلي على تسن هريدي، ص 116

الشؤون الخارجية بدعم مهمته. وكانت الحكومة تأمل بأن أي اكتشاف جديد سيفتح أرضا واسعة للتجارة ونشر الدين... وقد قدّم لفنجستون عمله هذا كمهمة تحضيرية كبيرة".[1]

وفي عام 1866م خرج ديفيد لفنجستون في رحلة اكتشافية جديدة وأثناء هذه الرحلة قام باكتشاف نهر "لوالابا" الذي يقع حاليا في جنوب شرق الكونغو. ولم تكن لديه أية وسيلة يخبر بها أوروبا عن اكتشافه الجديد. ومضت ثلاث سنوات ولم يكن هناك أي خبر عنه. وذاعت شائعات بمقتله. وأثناء هذه الفترة، طلب من شاب أمريكي صحافي يعرف باسم هنري استانلي للبحث عن لفنجستون. وقد كانت هذه المهمة فرصة كبيرة بالنسبة لهذا الصحافي الأمريكي الذي أمضى حوالي عشرين سنة في أفريقيا، وقد صار فيما بعد أحد الرجال الذين ساعدوا في تأسيس الدولة البلجيكية باسم "دولة الكونغو الحرة" في بلاد الكونغو.

وقد فتحت هذه الاكتشافات الجديدة آفاقا واسعة وعوالم جديدة للقوى الاستعمارية الأخرى التي بدأت تتجه نحو أفريقيا الوسطى وما جاورها من البلدان بغرض إحكام سيطرتها عليها، والاستفادة من ثرواتها المعدنية ومواردها الطبيعية. ولكن هذه الموجات الاكتشافية الجديدة شهدت أيضا فترات تصادم المصالح الكبيرة فيما بين الدول الأوروبية المستعمِرة، الأمر الذي نتج عنه ما عرف فيما بعد بـ"التكالب على أفريقيا"، حيث تنازعت الدول الأوروبية وفق هذه التجربة الجديدة لأجل الحصول على مناطق نفوذ جديدة لها.

[1]. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P. 17

مؤتمر برلين وقيام دولة الكونغو الحرة

لقد مرّ بنا فيما سبق بأن عددا من الدول الأوروبية بدأت تحلم بطموحات استعمارية واسعة في القارة الأفريقية، وقد ساعدتها في مهمتها الاستعمارية اكتشافات الرحالين والمكتشفين وتقاريرهم، إلا أن طموحات ومصالح الدول الأوروبية الطامحة إلى امتلاك المناطق الجديدة، والطامعة في خيرات وثروات القارة الأفريقية، كانت متباينة ومتضاربة، الأمر الذي خلق لهذه الدول مشكلة كبيرة. وكادت الأمور أن تنفلت من أيديها وتخلق صراعا دمويا كبيرا فيما بينها لو لا قيام هذه الدول الأوروبية بعقد مؤتمر في مدينة برلين الألمانية لتقسيم القارة الأفريقية فيما بينها.

وهكذا نرى بأن التكالب على أفريقيا أدى إلى عقد مؤتمر برلين الذي شاركت فيه 13 دولة أوروبية بحثت عن قضية حرية الملاحة وحرية التجارة وحرية النقل في حوض نهر الكونغو، والاعتراف بدولة الكونغو الحرة لصالح الملك البلجيكي ليوبولد الثاني. وقد قدّم هذا المؤتمر بعض التوصيات المهمّة التي كان من شأنها تخفيف حدة التوتر بين الدول الأوروبية. هذا المؤتمر انعقد فيما بين نوفمبر 1884م إلى فبراير 1885م بحضور مندوبي الدول المشاركة في المؤتمر. وفي ذلك يقول الدكتور عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: "انعقد المؤتمر في مدينة برلين في الفترة من 15 نوفمبر 1884م إلى 26 فبراير 1885م. وحضره مندوبو أربع عشرة دولة هي النمسا، والمجر، وألمانيا، وبلجيكا، وإيطاليا، وهولندا، والبرتغال، وروسيا، وإسبانيا، والسويد، والنرويج، وتركيا، والولايات المتحدة، وبريطانيا. عقد هذا المؤتمر عشر جلسات كاملة، وناقش المؤتمر خلال جلساته الرئيسة مسألة حرية التجارة في حوض نهر الكونغو، وهي القضية التي استغرق بحثها حوالي أسبوعين، وانتقل المؤتمر بعد ذلك إلى بحث

قضية حرية الملاحة في حوض نهر الكونغو والنيجر واستغرقت شهرا كاملا....وهكذا تم في مدينة برلين ومن دون حضور ممثلين عن الدول الأفريقية وضع أسس تقسيم القارة الأفريقية، وذلك التقسيم الذي لم يضع في الاعتبار توزيعات القبائل والعشائر، فحوّل أفريقيا إلى وحدات قزمية صغيرة صارت الأساس للحدود الأفريقية الحالية".[1]

وكان مما هدف إليه المستعمرون وراء عقد وتنظيم هذا المؤتمر هو تفادي الاشتباكات أو الصراعات فيما بين الدول الأوروبية نفسها، الطامعة في ثروات الكونغو. وقد نجح المؤتمر في تحقيق وإنجاز هدفين أساسيين. وهما "أولا: قيام دولة حرة كبرى في قلب أفريقيا الإستوائية تكون من الناحية الاسمية مفتوحة لكل الشعوب، وبعيدة عن المنافسات الدولية، وثانيا: وضع المؤتمر أسس التنظيمات الاقتصادية المتعلقة بالمناطق الداخلية في القارة، وقد أيّد المؤتمر في قراراته في مبادئ الحرية والمنافسة الشريفة على عكس النظم الاستعمارية البالية، كما أتاح المؤتمر الفرصة لتقسيم القارة شمالي وجنوبي خط الإستواء بطريقة لا تحدث خلافات طاحنة بين الدول الاستعمارية كتلك التي صاحبت استعمار الأمريكيتين حيث تم تقسيم القارة بشكل سليم".[2]

وبالإضافة إلى تحقيق هذين الهدفين الأساسيين، صدرت قرارات في شكل ميثاق عام تضمن 38 مادة، ووقع عليه مندوبو الدول المشاركة في المؤتمر ما عدا الولايات المتحدة الأمريكية. ومن أهم المواد التي أقرّها وأصدرها المؤتمر:

1- تقرير حرية التجارة في حوض الكنغو.

[1]. المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، الدكتور عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، ص، 20-21
[2].نفس المرجع، ص، 21

2- الإلتزام بحرية الملاحة في نهر الكنغو والنيجر.

3- الاعتراف بدولة الكونغو الحرة، التي أصبحت فيما بعد من ممتلكات بلجيكا.

4- العمل على إلغاء تجارة الرقيق ومطاردتها والقضاء عليها.

5- عدم فرض أية دولة حمايتها على منطقة ساحلية في غرب أفريقيا دون أن تعلن ذلك للدول الأخرى الموقعة على هذا الاتفاق.

6- عدم إعلان أية دولة الحماية على منطقة من القارة الأفريقية دون أن تكون هذه الحماية مؤيدة باحتلال فعلي للمنطقة".[1]

وهكذا نرى بأن التكالب على أفريقيا من قبل الدول الأوروبية قد بات أمرا مفروغا منه في القرن التاسع عشر. وقد كان يخشى بأن يؤدي التنافس الاستعماري بين هذه القوى الأوروبية إلى صراعات وحروب فيما بينهما مما دفع القوى الأوروبية إلى الجلوس على طاولة المفاوضات التي عقدها مؤتمر برلين والتي استمرت لشهور عديدة. وأسفرت هذه المفاوضات والمباحثات فيما بين القوى الاستعمارية عن ضعف وانحسار وانكماش القوة البرتغالية في أفريقيا، وظهور القوى الأوروبية الجديدة التي شملت كلا من ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا وإنجلترا وفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية، إلا أن إنجلترا وفرنسا فازتا بكسب أكبر وأوسع مساحات أرضية في القارة الأفريقية مقارنة بالدول الأوروبية الأخرى.

[1]. تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: الكشوف- الاستعمار- الاستقلال، الدكتور فرغلي على تسن هريدي، ص، 118-119

ومن الطريف والمهم أن نذكر بأن إحدى مواد الاتفاقيات التي وقع عليها ممثلو الدول المشاركة في مؤتمر برلين كانت تشمل الحديث عن حرية الملاحة في نهر الكونغو، وحرية التجارة في حوض نهر الكونغو والنيجر. ومن هنا نستطيع أن نعرف أهمية وجوهرية قضية بلاد الكونغو. وبما أن القوى الأوروبية كلها كانت تتنازع فيما بينهما لأجل السيطرة على بلاد الكونغو لأجل وقوعها الجغرافي المهم، وثرواتها الطبيعية ومعادنها الكثيرة، وأيضا لتوفيرها سهولة نقل الرجال والبضائع عن طريق الملاحة في حوض نهر الكونغو، فإن القوى الأوروبية أرادت أن تعطيها للملك البلجيكي ليوبولد الثاني الذي كان قد أظهر رغبة شديدة في إحكام سيطرته عليها. وفي ذلك يقول الدكتور فرغلي علي تسن هريدي في كتابه: "استطاع الملك ليوبولد أن يظفر من المؤتمر بنصيب الأسد، لكن الدول الأخرى التي اضطرت بقبول قرار المؤتمر الخاص بقيام دولة الكونغو الحرة، وعلى رأسها إدارة هيئة الكونغو الأعلى التي يرأسها الملك ليوبولد– لم تلبث أن ردت على هذا الإجراء بسرعة وطريقة عملية، فبريطانيا استولت على ميناء (لاجوس) في نيجيريا، وعلى (بتشوانا لاند) ثم ما لبثت أن ضمّت نيجيريا كلها إلى أملاكها، وفرنسا كان ردها أنها وجهت عناية خاصة للبعثة الكشفية إلى الكونغو. وهكذا أسلمت اتفاقية برلين التي وقعتها الدول الأوروبية حوض نهر الكونغو الشاسع إلى منطقة جديدة، أطلق عليها اسم دولة الكونغو الحرة، وبهذا حكم ليوبولد الثاني ملك بلجيكا دولة تترامى أطرافها إلى مليون كم مربع".[1]

[1]. تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: الكشوف- الاستعمار- الاستقلال، الدكتور فرغلي على تسن هريدي، ص، 119

الفصل الثالث

دولة الكونغو الحرة ومظالم المستعمرين في الكونغو حتى الاستقلال

لقد مرّ بنا فيما سبق بأن المكتشفين الأوروبيين في القرن التاسع عشر بدأوا يسافرون إلى أفريقيا الوسطى بهدف اكتشافها بإيعاز من بعض الدول الأوروبية أو بعض المؤسسات الحكومية لبسط نفوذها فيها والحصول على المواد الخام الرخيصة لشركاتها التي بدأت تشهد صناعة ثورية كبيرة وأيضا للبحث عن أسواق جديدة لبيع سلعها الاستهلاكية وبضائعها المنتجة في شركاتها. ومن المكتشفين المعروفين في هذه الموجة الاكتشافية الجديدة نجد المكتشفين الكبيرين هم ديفيد لفنجستون وهنرى استانلي. وقد اكتشف الأخير نهر الكونغو والمناطق المجاورة، وبالتالي قدّم تقريره إلى الإمبراطورية البريطانية يغريها ويوضّح لها فيه عن وجود الثروات الطبيعية الضخمة وفرص التجارة الوافرة، إلا أن إنجلترا لم تعره وتقاريره عن الكونغو أي اهتمام. فوجّه هنري استانلي أنظاره بعد ذلك إلى شخص آخر كانت تداعبه طموحات واسعة في كسب مناطق لصالح بلجيكا في أفريقيا. وهذا الشخص هو الملك البلجيكي ليوبولد الثاني الذي كان يتابع بكل اهتمام كل ما كان يجده من تقارير وكتابات الرحالين والمكتشفين ومغامراتهم في أفريقيا. وأخيرا استلفتت انتباهه مغامرات الصحافي الأمريكي هنري استانلي الذي اشتهر بفضل جهوده الكبيرة ومساعيه المضنية للبحث عن المبشر البريطاني ديفيد لفنجستون في نوفمبر عام 1871م. ونحن نعرف بأن استانلي سافر من منطقة زنجبار إلى نهر الكونغو فيما بين 1874م و1877م. وهدفه وراء ذلك كان كسب منطقة الكونغو لصالح بريطانيا العظمى. وبما أن بريطانيا لم تظهر أي رغبة في مشروع استانلي، فإن الملك البلجيكي

ليوبولد أخذ الحكم على هذه المنطقة الشاسعة في الكونغو كمشروع ذاتي له، ورغّب استانلي لأن يكون وكيلا له في محاولته ومهمته لاستعمار الكونغو والسيطرة عليه. وفي ذلك يقول جاسون كيه استيرنز في كتابه: Dancing in the Glory of the Monsters: The Collapse of the Congo and the Great War of Africa

"منذ قرون كانت الكونغو قد كسبت إعجاب الأجانب بها. وهي تقع في قلب قارة أفريقيا، وتقع فيها غابات كثيفة وكبيرة، وكانت دائما مرتبطة بالعنف والاضطهاد. وفي عام 1885م حيث سارعت فيه القوى الاستعمارية الغربية وتنافست فيما بينها لبسط نفوذها على أكبر مساحة أرضية في أفريقيا، ففي ذلك العام ادّعي الملك ليوبولد الثاني البلجيلكي بأن بلاد الكونغو هي ستكون تحت ملكيته الذاتية. إنه أنشأ "دولة الكونغو الحرة" كمنطقة لتجارة خاصة له. وفي الوقت الذي تضاعفت فيه تجارة المطاط في التسعينات من القرن التاسع عشر، أصبحت البلاد مصدرا هاما للمطاط لصناعة إطارات الدراجات والسيارات. وقد أنشأ الضبّاط المستعمرون نظاما غاشما للعمل الإجباري. وقد قتلوا أثناء تلك الفترة مئات الألوف من الناس أو قطعوا أيديهم وأرجلهم. ودفعوا الملايين منهم إلى حافة المجاعة أو الموت من الأمراض".[1]

وقد تبين لنا مما مضى بأن اكتشاف استانلي لنهر الكونغو وتقاريره عن وجود ثروات معدنية وطبيعية ضخمة في الكونغو في أفريقيا الوسطى أثار اهتمامات الأوروبيين. وأخيرا وجدت تقارير وخبرات استانلي صدى كبيرا عند الملك البلجيكي ليوبولد الثاني، والذي كان يتمنى لأن يكسب مناطق نفوذ لبلاده بلجيكا منذ زمن. وكانت عنده كما ذكرنا طموحات واسعة لامتلاك أراضي

[1]. Dancing in the Glory of the Monsters: The Collapse of the Congo and the Great War of Africa, Jason k. Stearns, P 6-7

أفريقية. "طغت فكرة الاستعمار لصالح بلاده على شخصية الملك ليوبولد الثاني. وبما أنه كان مفكرا ومحبا للوطن وحاد البصيرة، فإن رؤيته كانت أوسع من رؤية معظم أهل بلاده، ومعرفته بالعالم الخارجي كانت واسعة. وكان قد زار مصر، وأبحر في النيل. وكان قد سافر إلى الشرق الأوسط والشرق الأدنى... وسافر إلى الشرق الأقصى، إلى سريلانكا، والهند، وبورما، والهند، والصين".[1]

وهكذا نرى بأن طموحات الملك ليوبولد الثاني كانت واسعة وكبيرة. ولما وجد الفرصة مؤاتية له فإنه حاول جهد مستطاعه أن يستغلها استغلالا كاملا. وقد مرّ بنا بأنه وجد في شخصية المكتشف الأمريكي هنري استانلي شخصا قديرا يساعده في مهمته لتحويل الكونغو إلى بناء إمبراطوريته الضخمة التي كان يتمنّاها ويحلم بها. وفي ذلك يقول الدكتور زاهر رياض في كتابه"استعمار أفريقية": "يعزى إنشاء دولة الكونغو الحرة أو بمعنى أصح مستعمرة الكونغو البلجيكي إلى مجهودات وإرادة شخص واحد هو الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا. وهو لم يسع إلى إنشاء هذه الدولة لمجده الشخصي أو لمجد دولته بقدر ما سعى إلى مصلحته الشخصية، بل إلى منفعته المادية والمالية دون غيرها. فقد كان منذ حداثته واسع المطامع ذا شخصية قوية".[2]

وأخيرا واتته الفرصة التي انتظرها لسنوات عديدة. ففي عام 1876م دعا الملك "جغرافيي أوروبا وعلماءها إلى مؤتمر في بروكسل حمل اسم المؤتمر الجغرافي العالمي لدراسة إمكانات الاستفادة من هذه الفرصة. وسرعان ما تألفت (الجمعية الدولية لكشف أفريقيا وإدخال الحضارة فيها، International Association for the Exploration and Civilizing of Africa)، وهي جمعية مركزية

[1]. Britain and the Congo Question: 1885-1913, S.J.S Cookey, P.4
[2]. استعمار أفريقية، الدكتور زاهر رياض، ص، 143

ذات فروع لكل منها اختصاصات مرجعها هذه الجمعية الدولية وبدأت هذه الجمعية تعمل بسرعة. فأرسلت أكثر من بعثة إلى شرق أفريقيا".[1]

لقد ذكرنا فيما مضى بأن الملك ليوبولد الثاني استفاد من خبرات المكتشف هنرى استانلي استفادة كبيرة. وقد جعله عميلا له في مهمته الاستعمارية، وقد أرسله مرة أخرى إلى الكونغو وأفريقيا الوسطى لإبرام اتفاقيات مع القبائل والمملكات المحلية الموجودة فيها، وأيضا لإنشاء محطات تجارية وعقد المعاهدات مع الزعماء الوطنيين. "ولم تكن الرحلة الأولى لستانلي لتثير أنظار أحد ما دام الكشف هو الهدف لها. ولكنه ما إن ذهب في الرحلة الثانية وبدأ يعقد المعاهدات ويؤسس المراكز حتى بدا أن الهدف هو الاستعمار والاستثمار. ومن ثم قامت البرتغال لتذكر العالم بحقوقها القديمة بصفتها أول من كشف مصب هذا النهر منذ القرن الخامس عشر، وسعت البرتغال لدى إنجلترا لتعترف لها بهذا الحق، ونجحت في ذلك. وعارضها في ذلك فرنسا، التي بدأت تقف من كل المشروعات البريطانية موقف المعارضة منذ أن احتلت إنجلترا مصر. ولذا ظهر الخلاف بين الدول مما دعا بسمارك إلى عقد مؤتمر برلين كما ذكرنا، لاسيما وقد اعترفت فرنسا بمركز الجمعية بعد أن منحتها حق الأفضلية في حالة اضطرار الشركة إلى بيع أملاكها".[2]

وقد شكلت بلاد الكونغو والسيطرة عليها إحدى التحديات الكبرى التي ناقشها مؤتمر برلين عام 1884م، وقد سعى الملك ليوبولد الثاني سعيا كبيرا وحاول كسب موافقة جميع القوى الأوروبية المشاركة في المؤتمر من أجل إحكام سيطرته على الكونغو. وبهدف تمويل مشروعه الاستعماري، قامت

[1]. نفس المصدر، ص، 144
[2]. استعمار أفريقية، الدكتور زاهر رياض، ص، 144-145

جمعية الكونغو الدولية التي قام بإنشاءها الملك ليوبولد الثاني لشرعنة حكمه في الكونغو بالسيطرة على تجارة المطاط والعاج. وقد منحت لبعض الشركات الكبرى ومنها تلك التي أنشأها الملك ليوبولد الثاني بنفسه، السماح بالاشتغال بالتجارة في هذه الموارد إلا أنها كانت مطالبة لأن تدفع نسبة من الأرباح إلى الملك البلجيكي. وكان من أعمال هذه الشركات بناء السكك الحديدية، وطرق النقل والمواصلات الأخرى. وللحصول على أكبر قدر من الأرباح، دفعت هذه الشركات السكان المحليين إلى العمل الإجباري. وكانت تجلب الضرائب منهم بشدة. وكان أصحاب هذه الشركات والوكلاء التجّار يعاملون المحليين والعمال بقساوسة في حال لم يتمكنوا من دفع حصتهم من الضرائب المفروضة عليهم.

مظالم حكم الملك ليوبولد الثاني في الكونغو وتقارير الكتاب والناشطين الحقوقيين

قد مرّ بنا فيما مضى بأنه لما تحققت للملك البلجيكي ليوبولد الثاني أمنيته للسيطرة على بلاد الكونغو، فإنه سارع إلى كسب أرباح أكبر من خلال استغلال الموارد الطبيعية والمعدنية الموجودة فيها. إنه أنشأ الشركات التي كانت تعمل لصالحه، وعقد معاهدات مع القوى الأوروبية لكسب وضمان الشرعية لحكمه، وأيضا لكسب رضاها وموافقتها. وقد ادعى الملك ليوبولد بأنه ينوي تحضير الشعب الكونغولي وإدخال المدنية الحديثة والحضارة الحديثة إلى المجتمعات الكونغولية. إلا أن هذه الدعاوى المزيّفة كانت قد قدّمت لتلميع صورة حكمه الغاشم في الكونغو، وإخفاء الصورة الحقيقية وراء استعمار هذه البلاد. "وقد صرّح البلجيكيون بأن هدفهم الأول من دخولهم بلاد الكونغو هو إلغاء تجارة الرقيق. لكننا نرى بأنه حتى نهاية الاحتلال البلجيكي، فإنه قد تم إرسال 15 مليون

شخص تقريبا من رجال الكونغو عن الطريق الغربية وحدها، و10 مليون منهم ماتوا أثناء الطريق لأجل المعاملة القاسية التي تعرضوا لها".[1]

ومن المظالم التي تعرّض لها الشعب الكونغولي هي قتلهم وتشريدهم على أيدي المستعمِرين البلجيكيين، والتي بسببها عانى الشعب أنواعا من التعذيب والاضطهاد والظلم، حتى أن أيدي بعض الناس المحليين كانت قد قطعت لعدم تمكنهم من جمع المطاط ودفع الضرائب المفروضة عليهم. ويذكر بعض المؤرخين بأنه قد قتل فيما بين 8 مليون شخص إلى 10 مليون شخص. وحتى أن بعض المؤرخين قارنوا هذه المظالم ضد الشعب الكونغولي بمظالم الهولوكوست. وفي ذلك يقول المؤرخ جورجيز نزونجولا ناتالاجا في كتابه "The Congo from Leopold to Kabila: A People's History" : "وبالإضافة إلى العاج، جمع المطاط أدى إلى انخفاض عدد الرجال في القرى وارتكاب أبشع الجرائم ضد الإنسانية في الكونغو. والقرى التي لم تكن تريد أو لم تكن تستطيع إكمال الحد اليومي المحدد للإنتاج، كانت تتعرض للاغتصاب، والإحراق، وقطع الأعضاء البدنية والقتل... وأدى هذا كله إلى وفاة عدد كبير من الناس في نسبة الهولوكوست، والذي كان يقدر بحوالي 10 مليون شخص في الكونغو... وعدد الرجال الذين كانوا يقدرون فيما بين 20 و30 مليون نسمة في بداية العهد الاستعماري، كان قد انخفض إلى 8.5 مليون شخص في 1911م و10 مليون في عام 1924م، وفقا لبيانات الإحصاءات الرسمية".[2]

[1]. Challenge of the Congo, Kwame Nkrumah, P.6
[2]. The Congo from Leopold to Kabila: A People's History, Georges Nzongola Ntalaja P.22

"المطاط الأحمر"

منذ عام 1890م بدأت تجارة المطاط تنشط على نطاق واسع في الدول الأوروبية بعد أن تم اختراع الإطارات للسيارات ولإنتاج البضائع الأخرى. فبالإضافة إلى جمع العاج، أصبح جمع المطاط من الأشجار موردا أساسيا من الموارد التي استغلها المستعمرون. ولضمان إنتاج المطاط أكثر فأكثر، إنهم أجبروا الناس المحليين إلى الخروج في الغابات لجمعه. وقد استخدموا الضباط السود المحليين لمراقبة العمال أثناء عملهم. وفي حال وقوع الثورات أو العصيان، كانوا يرسلون هؤلاء الضباط السود المحليين إلى القرى لقمعها، وكثيرا ما كانت تقع أحداث القتل والتعذيب. وفي بعض الأحيان الضباط البيض هم بأنفسهم كانوا يقومون بهذه الأعمال الشنيعة بحق الشعب الكونغولي. "وقد أطلق منتقدو الحكم البلجيكي على هذا النظام بـ"المطاط الأحمر"، كأن أشجار المطاط كانت قد نبتت وكبرت على دماء المقتولين في حكم الملك ليوبولد الثاني".[1]

إلا أن هذه المظالم بحق الشعب الكونغولي لم تكن لتكون محجوبة عن أنظار العالم طويلا، مهما حاول ليوبولد الثاني إخفاءها وحجبها. فقد بدأت تقارير بعض الصحفيين تتقاطر إلى الصحف الأوروبية والأمريكية مما أثر في الرأي العام، ودفع القوى الأوروبية إلى بحث هذه القضية المأساوية. ومن بين الذين أثاروا هذه القضية هم آرثر كونان دويل في كتابه" The Crime of Congo"، وروجر كيسنت، القنصل البريطاني في الكونغو، في كتابه، وأيضا مارك توين والآخرون.

[1]. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P 29

حركة الإصلاح البلجيكي وتحول الكونغو إلى مستعمرة بلجيكية حتى استقلال البلاد

وقد أثارت هذه التقارير من قبل القائمين على حركة الإصلاح البلجيكي، والكتابات من قبل الكتاب والصحفيين عن مظالم المستعمرين البلجيكيين في عهد حكم الملك البلجيكي ليوبولد الثاني، ضجة كبيرة في الأوساط الحكومية الأوروبية، مما أدى إلى ظهور نداءات لانتزاع حق الحكم الذاتي في الكونغو من الملك البلجيكي ليوبولد الثاني. وقد أثيرت هذه القضيّة في دوائر الدبلوماسية الأوروبية وأمام البرلمانات الأوروبية مما نتج عنه إنهاء دولة الكونغو الحرة واعتبار الكونغو مستعمرة بلجيكية. "وأثيرت المسألة أمام مجلس العموم البريطاني في سنة 1903م على أثر تقرير كتبه القنصل البريطاني عما يجري في الكونغو من أعمال، حض القنصل الحكومة فيها على وجوب التدخل لوقف هذه الأعمال المنافية لقرارات مؤتمر برلين. كما أثيرت المسألة أمام البرلمان البلجيكي، فكان أن أصدر الملك قرارا بتأليف لجنة تحقيق في أكتوبر سنة 1904. وقد باشرت اللجنة عملها وكتبت تقريرها في سنة 1905 اعترفت فيه بكل هذه المساوئ، وإن كانت قد عللت بعض هذه القسوة بأنها كانت الوسيلة الوحيدة لاستغلال ثروات هذا الجزء من أفريقيا. فكان من أثر ذلك أن بادرت الحكومة بتقديم قانون بالضم، ولكن البرلمان اعتبر هذا القانون توصية لا يمكن الموافقة عليها إلا بعد تنظيم العلاقة بين الحكومة وهذه المستعمرة الجديدة والمستعمرات التي قد تتلوها. وشغلت الحكومة بوضع هذه النظم حتى إذا كانت سنة 1908 وافق البرلمان البلجيكي على إنهاء دولة الكونغو الحرة، وإنهاء

العمل بقرارات برلين واعتبار الكونغو مستعمرة بلجيكية تديرها الحكومة على أن ترفع إلى البرلمان تقريرا سنويا عنها".[1]

من مستعمرة بلجيكية عام 1908 حتى الاستقلال

وهكذا نرى بأن حكم الملك البلجيكي ليوبولد الثاني في الكونغو انتهى في عام 1908م. وبذلك تحولت دولة الكونغو الحرة إلى مستعمَرة بلجيكية منذ عام 1908م حتى استقلالها في عام 1960م. ومن الجدير بالذكر أن الكونغو وإن كانت قد تخلصت من الحكم الذاتي لليوبولد الثاني البلجيكي، إلا أنها لم تستطع أن تتخلص من الاستعمار واستغلال المستعمرين البلجيكيين لمواردها وثرواتها. وقد رأينا في تلك الفترة بأن المستعمرين البلجيكيين واصلوا استغلال الثروات الطبيعية في الكونغو، لما يقرب من ستتة عقود. وقد استمر توافد البلجيكيين على الكونغو للعمل في الإدارات الحكومية. وقد عقدت اتفاقيات ومعاهدات مع الشركات البلجيكية الأوروبية الكبرى التي واصلت نشاطاتها التجارية. واستمر المبشرون نشاطاتهم الدينية في أرجاء البلاد المختلفة.

وكذلك نجد بأن مظالم المستعمرين ومساوئهم ضد الناس المحليين لم تتوقف. فقد استمرت على حالها. وقد وجد الكونغوليون أنفسهم في أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة. ولم يمض بنا وقت طويل حتى رأيناهم يثورون ضدّ المستعمرين البلجيكيين. وقد شهدت الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية احتجاجات وثورات ضد المستعمرين الأوروبيين في جميع المستعمرات الأوروبية تقريبا. وقد حصلت معظم البلدان المستعمرة على استقلالها في تلك الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية.

[1]. استعمار أفريقية، الدكتور زاهر رياض، ص، 148

ونفس الشيئ حدث في الكونغو أيضا. فقد عيل صبر المحليين، وضاقوا ذرعا بمظالم ومساوئ المستعمرين البلجيكيين، فبدأو يثورون ضد المستعمرين، وحاولوا إنشاء جمعيات وأحزاب وقيادات سياسية محلية تحارب المستعمرين كي تجليهم عن بلادهم. وأخيرا وبعد تضحيات كبيرة وجهود مكثفة وحثيثة حصل الكونغوليون على استقلال بلادهم في 30 يونيو عام 1960م.

الفصل الرابع

رواية "قلب الظلام" وسرد الاستعمار الأوروبي البلجيكي في الكونغو

لقد مرّ بنا في الفصل الماضي بأن أفريقيا صارت بمثابة رقعة شطرنج بالنسبة للاعبين المستعمرين الأوروبيين الذين تهافتوا على اقتطاع أراضيها، وتكالبوا على تقسيمها فيما بينهما. وقد وصل هذا التكالب المحموم على أفريقيا إلى ذروته في القرن التاسع عشر حيث بدأت القوى الأوروبية الكبرى تندفع نحو القارتين الأفريقية والآسيوية بهدف استغلال ثرواتهما واستنزاف مواردهما، وأيضا لإبقاء وفرض الهيمنة السياسية والثقافية الأوروبية عليهما. وقد وظّف المستعمرون لهذه الغايات جميع الوسائل المتاحة لهم، واختاروا جميع الطرق والسبل للوصول إلى أهدافهم. إنهم لم يتحرزوا عن ارتكاب أبشع الجرائم بحق الشعوب المستعمَرة لإحكام سيطرتهم وهيمنتهم على تلك البلاد. وقد أشركوا بعض المحليين في إدارتهم للبلاد لذرّ الرماد في العيون. إنهم مارسوا كل ما مارسوه من ظلم واضطهاد وعدوان باسم تحضير الشعوب، إلا أن هذه الإدعاءات ما لبثت أن زالت وفقدت لمعانها أمام وقائع القتل والتدمير والتشريد التي ارتكبوها بحق الشعوب المستعمَرة.

وقد تبيّن لنا من خلال دراستنا لتاريخ بلاد الكونغو في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بأن هذا البلد كان دائما تحت أنظار المستعمرين وأطماعهم. وقد أرسلوا بعض المكتشفين والعلماء لاكتشاف أفريقيا الوسطى، بما فيها بلاد الكونغو لاستغلال مواردها الطبيعية الغنية الموجودة فيها. كما اتضح لنا عند استعراضنا لحياة جوزيف كونراد وتجاربه ورحلاته بأنه بنفسه سافر إلى بلاد الكونغو في نهاية القرن التاسع عشر وبالتحديد عام 1890م. وكانت تلك الفترة قد شهدت أحداثا

جساما ومؤلمة بالنسبة لأهل الكونغو. فقد كان الاستعمار البلجيكي من حكم الملك ليوبولد الثاني جاثما على صدر الكونغو. وقد أقام فيها الملك ليوبولد الثاني "دولة الكونغو الحرّة" التي تم إنشاؤها بمناسبة مؤتمر برلين عام 1884م، والذي أسفر عن تقسيم القارة الأفريقية فيما بين الدول الأوروبية المختلفة. ووقعت بلاد الكونغو في يد الملك ليوبولد الثاني الذي أقام "دولة الكونغو الحرة"، وحقّق لنفسه أمنيته التي طالما تمنّاها وحلم بها. وقد عقدت معه القوى الأوروبية الكبرى حرية التجارة والملاحة في بلاد الكونغو وحوض نهر الكونغو. وبالتالي بدأت الشركات التجارية الأوروبية الكبرى تمارس نشاطاتها التجارية بشكل منظم في بلاد الكونغو. وبدأ التجار الكبار والمحاسبون والوكلاء الأوروبيون يتوافدون إلى بلاد الكونغو لممارسة تجارتهم بكل حرية ونشاط. إلا أن الملك ليوبولد الثاني كونه صاحب النفوذ الأكبر والأوسع في بلاد الكونغو انتهج سياسة استغلال موارد الدولة على نطاق واسع. ولم يهتم المستعمرون البلجيكيون في فترة حكم الملك ليوبولد الثاني بتطوير أو تحديث بلاد الكونغو إلا بالقدر الذي كان ينفعهم. إنهم استغلوا الموارد الطبيعية والمعدنية استغلالا كبيرا. وأجبروا المحليين على العمل الإجباري وأرسلوا عددا كبيرا منهم إلى بلاد نائية كأرقاء. وفرضوا عليهم الضرائب فوق ما كانوا يستطيعونه. وإضافة إلى هذا الاستغلال الاقتصادي والمعاملات غير الإنسانية للشعب الكونغولي، إنهم بدأو يهمشونهم ثقافيا وسياسيا واجتماعيا. ونسطيع أن نقدّر مدى معاناة المحليين على أيدي المستعمرين البلجيكين من تقارير الصحفيين والكتّاب الذين زاروا الكونغو وشاهدوا وقائع الظلم والاضطهاد، فكتبوا عنها ونشروها في البلدان الأوروبية وفي العالم كله، مما أثار ضجة كبيرة في الأوساط السياسية. ومن الكتاب الذين كتبوا وسردوا وقائع الظلم والاضطهاد

والمساوئ التي ارتكبها المستعمرون البلجيكيون هم هنرى استانلي وآرثر كونان دويل ومارك توين وجوزيف كونراد وغيرهم من الكتاب.

رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد

تعتبر رواية "قلب الظلام" لكاتبها جوزيف كونراد من أهم وأشهر الروايات الإنجليزية في الأدب الإنجليزي الحديث. أثار جوزيف كونراد في هذه الرواية قضايا الاستعمار وعدوانه، وسرد وقائع الظلم والاضطهاد التي تعرّض لها الشعب المستعمَر في ظل الاستعمار البلجيكي في الكونغو. كما بحث كونراد في هذه الرواية عن قضايا التهجين وانشطار الذات وقضية الأنا والآخر. وتحدث فيها الكاتب أيضا عن معاناة الناس المحليين بسبب العمل الإجباري الذي فرضه عليهم المستعمرون.

وقد قسّمت الرواية النقّاد منذ صدورها إلى طائفتين. فنرى طائفة من الكتاب والنقاد تعدّ الرواية مناهضة للاستعمار وتداعياته المدمّرة، وتظنّ بأنّها تقع ضدّ الاستعمار. أما الطائفة الثانية من النقّاد فهي ترى بأن رواية جوزيف كونراد هذه جاءت في تأييد ودعم الاستعمار، وإضفاء طابع الشرعية على المبدأ الاستعماري، وذلك نظرا إلى الفترة التي كتبت فيها الرواية. ونحن نعرف بأن هذه الرواية كتبها جوزيف كونراد في عهد التصعيد الاستعماري البريطاني، في وقت كانت القوى الأوروبية الاستعمارية الأخرى تتزاحم وتتضارب مصالحها لأجل الحصول على مستعمرات جديدة، وكسب مناطق نفوذ لها في الأراضي الأفريقية والآسيوية.

فالرواية أساسا هي سرد لواقع تاريخي وأحداث تاريخية وقعت في بلاد الكونغو، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حينما كان يحكمها الملك البلجيكي ليوبولد الثاني فعبث

فيها فسادا. وقد زارها جوزيف كونراد في عام 1889م، وشاهد الأحداث فيها بأم عيونه، فسرد عن تجاربه في هذه الرواية. وفي ذلك يقول جوزيف كونراد نفسه: "رواية "قلب الظلام" هي سرد لتجربة تتخطى قليلا (قليلا جدا) عن حدود الحقائق الواقعية للقضية لأجل تحقيق الهدف الشرعي الكامل- كما أعتقد- لإظهارها لأذهان القرّاء".[1]

تبدأ الرواية بحكاية مارلو لقصّته التي تحدث له أثناء رحلته إلى بلاد الكونغو بسفينة تجارية يقودها في نهر الكونغو، وهو يعمل لصالح شركة بلجيكية. وفي المشهد الأول من الرواية، نرى مارلو راوية الرواية يجلس على متن قارب "نيلي" الذي كان راسيا على نهر "التايمز" بلندن. ويجلس مع مارلو ثلاثة أشخاص آخرين، بينهم "محام" و"محاسب رئيسي" و"مدير الشركة". ويجلس معهم مارلو وهو يسرد قصّة تجربته في بلاد الكونغو التي زارها وشاهد الأحداث فيها. وقد عقد تشارلي مارلو أثناء سرده مقارنة بين نهر "التايمز" ونهر "الكونغو"، وأيضا بين الاستعمار الأوروبي الحديث وبين استعمار الروم لإنجلترا في العهد القديم. ومرارا يطلق على أفريقيا وخاصة بلاد الكونغو بالمظلمة والمتوحشة، والناس فيها بالمتوحشين والبدائيين. ويبدأ مارلو في بداية حكايته بأنه منذ صغره كان مولعا بالنظر في خرائط العالم، وكان يحلم بأن يزور المناطق التي كان معجبا بها.

ويتحدث مارلو أثناء سرده لحكايته وقصة رحلته في بلاد الكونغو بأنه شاهد أثناء سفره على نهر الكونغو وفي المحطات التجارية التي أنشأها المستعمرون الخراب والدمار عند محطة التجارة. ويسافر مارلو بعد ذلك إلى المحطة المركزية للشركة. ولما يصل هناك، يجد سفينة غرقى، ويضطرّ لأن ينتظر لعدة شهور. وبعد ترميم السفينة يسافر مارلو والآخرون معه بالسفينة إلى المحطة الداخلية للشركة

[1]. Joseph Conrad: An Anthology of Recent Criticism, edited by, Lalitha Ramamurthi, C.T. Indira, P.33

للعثور على كورتز، بطل الرواية (مدير المحطة الشهير وأحد وكلاء الشركة للتجارة في العاج والمطاط والذي اشتهر بتجارته الرابحة وسنوات خبرته في الكونغو) والعودة به إلى أوروبا بعد أن ذاع خبر مرضه وتشتته الذهني وتدهوره النفساني والجسدي. وما إن تقترب سفينة مارلو من هذه المحطة الداخلية، حتى يهاجمهم الأفارقة المحليون، مما أدى إلى مقتل أحد الرجال المحليين السود الذين كانوا يسافرون مع مارلو. ويلتقي مارلو عند المحطة شخصا روسيا يعمل هناك لكورتز. وهذا الروسي يخبر مارلو بأن كورتز بدأ يتصرف كأحد الآلهة للناس المحليين الأفارقة، وبأنه هو الذي أمر بالهجوم على السفينة القادمة المقتربة لأنه لم يكن يريد أن يعود إلى أوروبا. وكورتز بطل الرواية الذي كان مريضا منذ شهور، يموت أثناء سفر العودة إلى أوروبا. والكلمات الأخيرة التي لفظها كورتز بطل الرواية قبل موته هي "الرعب، الرعب". ويمرض تشارلي مارلو أيضا، لكنه ينجو بنفسه بعد معاناة طويلة. وبعده يرسل إلى أوروبا. وقبل أن يموت كورتز، ينشأ بينه وبين مارلو نوع من أواصر الصداقة. وبالتالي يعطي كورتز لمارلو بعض الرسائل الشخصية والأوراق التي كانت معه. وبعد عودته من أفريقيا ومعافاته من مرضه، يذهب مارلو إلى خطيبة كورتز ليعطيها الرسائل التي أعطاها إياه كورتز. وأثناء زيارته لبيتها، تبين له بأنها لم تكن تعرف عن كورتز إلا أنه مثالي ذهب إلى أفريقيا. ولم تكن على علم بأن خطيبها كورتز كان يُعبد من قبل المحليين مثل الإله. بينما مارلو كان عندها، فإنه يذكر لها بلا عمد بأنه سمع الكلمات الأخيرة لخطيبها قبل موته. وعند سماعها لهذا القول، طلبت من مارلو من أن يذكر لها تلك الكلمات. وبعد تردد قصير يذكر لها بأن كلماته الأخيرة كانت اسمها. وبعد ذلك يغادر مارلو بيت خطيبة كورتز. ويختتم مارلو قصّته بقوله لسامعيه بأنه لم يستطع أن يهيأ نفسه ويجهّزها ليخبرها عن أحداث خطيبها الحقيقية ووقائع حياته الواقعية.

هذه هي قصّة الرواية باختصار. وهي كما رأينا تسرد قصة عن الرحلة، وتحكي حكاية عن المغامرة في أفريقيا، وبالتحديد أفريقيا الوسطى حيث تقع فيها بلاد الكونغو. وهي المنطقة التي اشتهرت ليست فقط لأجل الاكتشافات التي قام بها هنري استانلي والمكتشفون الآخرون، بل لأجل مؤتمر برلين لعام 1885م، والذي اعترف بوجود "دولة الكونغو الحرّة" كممتلك ذاتي للملك البلجيكي ليوبولد الثاني. وقد مرّ بنا فيما سبق بأن ذلك العهد كان عهد المنافسة الدولية الشديدة لأجل الحصول على مناطق نفوذ وثروات وموارد في القارة الأفريقية.

وهذه الرواية تجسّد أحداث الاستعمار وفضائحها وفضائعها تجسيدا واضحا وجليا، كما هي تخبرنا عن التدهور الإنساني والانهيار الخلقي والجسدي وتفشي المرض النفسي الذي منى به المستعمرون في أفريقيا. كما هي تقدّم لنا صورا واضحة عن التنافس التجاري الشديد والتكالب المحموم فيما بين القوى الاستعمارية الأوروبية وشركاتها التجارية التي كانت قد أنشأت لنفسها محطات تجارية في الكونغو لاستغلال مواردها، وأرسلت وكلاءها التجّار ومدراء شركاتها لكي تستمر تجارة العاج والمطاط والنحاس والمعادن الطبيعية والموارد الطبيعية الأخرى. وذلك كله على حساب بلاد الكونغو وأناساها المحليين الذين كانوا قد تعرّضوا لأعمال الظلم والاضطهاد على أيدي المستعمرين والضباط السود والمرتزقة المحليين.

رواية "قلب الظلام" وتجربة جوزيف كونراد الذاتية في الكونغو

تعالج رواية "قلب الظلام" القضايا العديدة بما فيها القضايا النفسية والميتافيزقية وقضية المعاناة الإنسانية، إلا أن تيمة الاستعمار البلجيكي مركزية وواضحة. والقصّة بنفسها تدور حول الأحداث

والوقائع التي وقعت في دولة الكونغو التي سافر إليها جوزيف كونراد في عام 1890م، ومكث هناك لعدة شهور، وشاهد عن كثب الممارسات الاستعمارية العدوانية في عهد حكم الملك البلجيكي ليوبولد الثاني. ونجد في الرواية إشارات واضحة إلى تجاربه الذاتية في الكونغو التي سافر إليها كقبطان لسفينة تجارية تعمل لصالح شركة بلجيكية تجارية. وأثناء مكوثه في الكونغو، كان جوزيف كونراد يدوّن في مذكّرته كل ما كان يراه ويشاهده أو يختبره من تجارب وأوضاع في بلاد الكونغو. وقد نسج في الرواية قصّته بناء على ما رآه وجرّبه، وأيضا بناء على ما قرأه من تقارير وكتب حول ممارسات استعمارية بلجيكية عدوانية في الكونغو. وفي ذلك يقول جوناح راسكن في مقال له بعنوان "Imperialism: Conrad's Heart of Darkness": "مؤثرات عديدة لعبت دورها في تأليف هذا الكتاب، بعضها شخصية وبعضها اجتماعية وأخرى سياسية. وما الذي يثير الاهتمام بصفة خاصة هو أن كونراد نقل التجربة الذاتية إلى قصّة تحمل أهمية ثقافية وتاريخية عامة".[1]

ومما يشدّ الانتباه في الرواية هو أن قصّتها تتطابق في أكثر من مكان مع أحداث ووقائع كاتبها الذاتية وتجاربه الشخصية في الكونغو. وقد يبدو أحيانا بأن راوية الرواية "تشارلي مارلو" هو نسخة من جوزيف كونراد نفسه، حيث يسرد مارلو في الرواية أيام عهد طفولته وولوعه بالكشوف الجغرافية وإعجابه بكتابات الرحالين والمغامرين الأوروبيين الذين كان قد قرأ كتبهم في عهد طفولته. وقد كان شغوفا بكتاباتهم إلى حد أنه كان ينوي أن يختار نفس الطريقة ونفس المنهج ونفس الحياة التي اختاروها في حياتهم. ولعل اختياره لمهنة البحارة بالسفن كان فيه نوع من روح تلك المغامرات التي قرأها في كتب الرحالين. فترسبت في مخيلته صور هذه المغامرات وأراد أن يعيشها بنفسه في

[1]. Imperialism: Conrad's Heart of Darkness, Jonah Raskin, P. 115

حياته. وقد ذكر كونراد في كتبه ومذكراته بأنه كان ينظر في الخرائط في عهد طفولته معجبا بأمكنة بعيدة من قارات العالم المختلفة من أستراليا وأفريقيا وآسيا. وفي الرواية نجد الراوي "تشارلي مارلو" يحكي لسامعيه بأنه في عهد طفولته كان ينظر في الخرائط ويحلم بزيارة الأماكن التي كانت تعجبه، وكان يتمنّى لمشاهدتها. وهو يقول بأنه مرة رأى في الخرائط بعض الأماكن في أفريقيا الوسطى التي كانت فارغة، وكان يريد أن يزورها. وهكذا عند المقارنة بين التجربة الذاتية لجوزيف كونراد في عهد طفولته وفي فترة عمله في الكونغو، وبين تجربة وحكايات مارلو، فإننا نجد تشابها كبيرا. ويقول الكاتب جيفري ميئرس في كتابه بهذا الصدد: "المادة المحببة لجوزيف كونراد في عهد طفولته كانت مادة "الجغرافيا"، وكان يتلذذ بالنظر في الخرائط وقراءة الحملات الكشفية لأفريقيا في كتابات مونغو فارك في نيجيريا وجيمس بروس في أثيوبيا... وريتشارد بورتون وجون اسفيك في أفريقيا الوسطى. ولما كان في العاشرة من عمره، فإنه ألقى نظرة في خريطة لأفريقيا ووضع إصبعه على مكان فارغ يمثل لغزا يصعب حله في تلك القارة. وقد أخذ عهدا لنفسه بوثوق تام وجرأة فائقة... بأنني إذا كبرت فإنني سأذهب إليه".[1]

ويظهر لنا من هذا الاقتباس المذكور أعلاه بأن جوزيف كونراد بنفسه كان مولعا بالنظر في الخرائط وقراءة كتابات الرحالين والمكتشفين الأوروبيين في عهد طفولته. وقد لازمته اهتماماته هذه منذ عهد طفولته إلى أن كبر وزار الكونغو وشاهد الأحداث والفظائع الاستعمارية بأم عيونه. وهذه هي الخلفية الأساسية للتجربة الذاتية التي جرّبها جوزيف كونراد في حياته. ولنرى الآن ماذا يقول راوي الرواية "تشارلي مارلو" لسامعيه وهو يحكي بينهم قصته وحكايته وتجربته في الكونغو. "والآن

[1]. Joseph Conrad: A Biography, Jeffrey Meyers, P. 91-92

أذكر بأنني في صغري كنت مولعا بالخرائط. فقد كنت ألقى النظر لساعات في خرائط أمريكا الجنوبية، وأفريقيا، أو أستراليا، وأكون مغرقا في التفكير في عظمة الكشوف. وفي ذلك الوقت كانت هناك مساحات فارغة وخالية في الأرض، وعندما نظرت في الخريطة في إحداها والتي كانت تبدو جذّابة (ولكن جميعها كانت تبدو هكذا) فقد كنت أضع إصبعي وكنت أقول لنفسي، إذا ما كبرت، فإنني سأذهب إليها. والقطب الشمالي كان أحد هذه الأماكن كما أذكر،... وكانت هناك أمكنة أخرى منتشرة حول خط الإستواء،... وكنت قد ذهبت إلى بعضها... لكن كان هناك مكان كبير– أكبر وأكثر فراغا هكذا كان يقال، وكنت أجري وراءه".[1]

وهكذا نرى بأن في قصّة "تشارلي مارلو" راوية الرواية وقصّة حياة كاتبها جوزيف كونراد وتجاربه في الحياة تشابها كبيرا حتى يخيّل إلى المرء بأن جوزيف كونراد هو بنفسه كان يعبّر عن تجاربه في روايته. ولعل هذا هو ما يدخل في ذلك الإطار الفني القصصي الذي يطلق عليه النقّاد ب"رواية السيرة الذاتية" حيث يسرد فيها الكاتب تجاربه في حياته ويضيف إليها ويحذف منها في قالب روائي قصصي وفق مقتضيات الفن ومتطلبات آلياته الفنية وأساليبه السردية.

هذه التجربة من حياة جوزيف كونراد في عهد طفولته التي ذكرتها كانت تتعلق بمرحلة من حياته التي لم تنضج فيها رؤيته، ولم تكتمل فيها عنده الصورة القاتمة الحقيقية للمستعمرات الأوروبية التي جرّبها وخبرها وسمع عنها وقرأها في كتب المؤرخين والمكتشفين والكتاب والصحفيين فيما بعد. ولما نضجت رؤية جوزيف كونراد بعد مرور سنوات، وتم اكتشاف أفريقيا الوسطى على أيدي المكتشفين الأوروبيين، فإنه سافر إليها حقّا كما قال تمنّى لنفسه في صغره. ولما كبر جوزيف كونراد

[1]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 8-9

وبدأ يعمل في السفن التجارية، ويسافر إلى البلدان الآسيوية والأفريقية والأمريكية، فإنه جرّب تجارب جديدة في الحياة غير ما جرّبها في أوروبا، وغير ما قرأها في كتابات الرحالين. وقد حملته إحدى هذه السفن التجارية إلى بلاد الكونغو عام 1889م، والتي كان يحكمها كما ذكرنا الملك البلجيكي ليوبولد الثاني منذ عام 1885م. وقد رأى وشاهد فيها جوزيف كونراد في تلك الفترة عن كثب المساوئ الاستعمارية ضد المحليين وجنايات المستعمرين بحق الشعب الكونغولي. كما عانى جوزيف كونراد في الكونغو الأمراض التي أنهكت قواه وأجبرته على العودة إلى إنجلترا بعد ستة شهور من مكوثه فيها.

وما الذي أكمل لديه الصورة القاتمة عن حكم الملك ليوبولد الثاني لبلاد الكونغو، هو قراءته لكتابات الصحفيين والكتّاب الذين أماطوا اللثام عن وقائع الفضائح والفظائع لحكمه ضد المحليين، وكشفوا النقاب عن المظالم التي تعرّض لها الشعب الكونغولي في ظل الاستعمار البلجيكي. وفي ذلك يقول جيفري ميئرس في كتابه: "والشهرة الكبيرة التي أذاعتها المغامرات الحالية للصحفي والمكتشف البريطاني هنري مورتون استانلي أثارت اهتمام كونراد في قلب الظلام. في عام 1871م، وجد استانلي الدكتور لفنجستون في قلب القارة. وبعد خمس سنوات، إنه اقتحم القارة من الساحل الشرقي واكتشف مسار نهر الكونغو. وفي عام 1889م، إنه وجد وعاد بأمين باشا الألماني والذي كان حاكما لمنطقة إستوائية في جنوب السودان، والذي كان يعيش في عزلة بعد الثورة المهدية عام

1882م. وفي الفترة ما بين 1879- 1884 عمل استانلي لصالح الملك البلجيكي ليوبولد الثاني كمكتشف وإداري، وساعد في تعزيز مكانة الملك بتقاريره الدعائية عنه".[1]

ويتبيّن لنا من هذا الاقتباس المذكور أعلاه بأن جوزيف كونراد كغيره من معاصريه كان قد قرأ التقارير الصحفية والكتابية التي كان قد أعدّها وكتبها المكتشفون لبلاد الكونغو والكتاب الذين زاروها ورأو الأحداث فيها. وهذه التقارير والكتابات عن بلاد الكونغو والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأحوال الشعب فيها في ظل الاستعمار البلجيكي، قد أفادت جوزيف كونراد كثيرا، وأمدته بمواد خصبة للكتابة الإبداعية، وأطلعته على الأحداث والوقائع فيها. وهكذا نرى بأنه الآن قد اتضحت للطفل (جوزيف كونراد) الذي كان ينظر في الخرائط في عهد طفولته، معالم وأسماء وجغرافيا البلاد والمساحات في أفريقيا الوسطى التي كان يجدها فارغة في طفولته. ولكن لما كبر ووصل إلى عهد شبابه، فإنه بدأ يقرأ الكتب والاكتشافات الجديدة عن أفريقيا الوسطى. وإذا ما ننظر فيما يقوله مارلو في سرده لحكايته عن الكونغو، فإننا نجد إشارات واضحة إلى الاكتشافات الجديدة. "وحقا، الآن لم تبق هي مساحة فارغة. قد صارت الآن ملآنة منذ صغري بالأنهار والبحيرات والأسماء. لقد انتهى كونها مساحة فارغة للغز يثير الاهتمام مثل رقعة بيضاء لطفل يحلم بها في عظمة وهيبة. لقد صارت مكانا للظلام. ولكن كان في داخلها نهر. وكان هذا النهر بصفة خاصة نهرا كبيرا جدا. وقد تراه في الخريطة فيبدو لك كأنه حية كبيرة، رأسها في البحر، وجسمها

[1]. Joseph Conrad: A Biography, Jeffrey Meyers, P.92

ملتوٍ وبعيد في بلد واسع، وذيلها غائب في عمق الأرض... ثم علمت بأنه كانت هناك شركة كبيرة للتجارة في ذلك النهر... لماذا لا أحاول أن أقود إحدى السفن... والحيّة قد سحرتني".[1]

وإذا ما نقارن بين ما شاهده جوزيف كونراد وقرأه من الحديث عن الكشوف الجديدة في أفريقيا الوسطى بما فيها بلاد الكونغو ونهر الكونغو الذي صار فيما بعد إحدى الطرق البحرية للملاحة والتجارة، وبين حكاية راوية الرواية تشارلي مارلو، فإننا نرى بأن قصة مارلو وتجربته هي قصّة جوزيف كونراد نفسه وتجربته نفسه. ففي عهد طفولته بدت له أفريقيا في الخرائط مساحات كبيرة بدون أسماء ومعالم واضحة. أما في عهد شبابه وبعد اكتشاف الكونغو، فقد بدت صورة الكونغو كبلد له أنهار وأسماء ومحطات تجارية واضحة.

ومن الجدير بالذكر بأن جوزيف كونراد سافر إلى بلاد الكونغو بعد عودته من البلاد الشرقية الآسيوية المختلفة والتي أمضى فيها أكثر من ست سنوات. ويقول مارلو راوي الرواية نفس الشيئ: "وعدت حاليا كما تتذكرون إلى لندن بعد رحلات طويلة في المحيط الهندي، والمحيط الهادئ، والبحر الصيني–كلها في الشرق– بعد ست سنوات أو ما يقاربها".[2]

سرد الاستعمار البلجليكي لبلاد الكونغو في رواية "قلب الظلام"

قد رأينا فيما مضى بأن جوزيف كونراد نسج خيوط القصة في روايته "قلب الظلام" مستمدا موادها من تجاربه الذاتية وأيامه التي أمضاها في بلاد الكونغو. ومزج جوزيف كونراد تجاربه في الكونغو فيما بعد بما قرأه واطلع عليه من مظالم وعدوان تعرض لها الشعب الكونغولي على أيدي المستعمرين.

[1] Heart of Darkness, Joseph Conrad, P 9.
[2] Ibid, P 8.

وقد كتب عن ذلك جوزيف كونراد في مقدمته لروايته هذه حيث يقول فيها: "رواية "قلب الظلام" هي سرد لتجربة تتخطى قليلا (قليلا جدا) عن حدود الحقائق الواقعية للقضيّة لأجل تحقيق الهدف الشرعي الكامل –كما أعتقد– لإظهارها لأذهان القرّاء".[1]

والقضية التي يشير إليها جوزيف كونراد في الاقتباس المذكور أعلاه هي قضية الاستعمار وتداعياته المدمرة على الشعوب المستعمرة. وقد كتب جوزيف كونراد رسالة إلى ناشر الرواية، –وهو "وليام بلاكوود"–، حيث يقول فيها: "والعنوان الذي أنا أفكر فيه هو"قلب الظلام"، لكن السرد ليس كئيبا. وجريمة عدم الكفاءة والمنفعة الشخصية المحضة أثناء القيام بأعمال التحضير في أفريقيا هي فكرة لها مبرراتها. وهذا الموضوع هو موضوع يرتبط بعصرنا بوضوح".[2]

ويتّضح لنا من هذين الاقتباسين المذكورين أعلاه بأن جوزيف كونراد قام بسرد حكاية الاستعمار وأحداثه ووقائعه في بلاد الكونغو في هذه الرواية. وهو يقول بوضوح وصراحة بأن عمله هذا لا يخرج عن حقيقة هذه الوقائع إلا قليلا. ومن المهم أن نذكر بأن جوزيف كونراد سافر إلى الكونغو في عام 1890م بعد أن عاد من رحلاته وأسفاره إلى البلاد الشرقية، إلا أنه كتب هذه الرواية بعد عقد من الزمان تقريبا في عام 1899م. وقد ظهرت أثناء هذه الفترة تقارير الصحفيين البريطانيين والأمريكيين والأوروبيين والتي كانت تجرّم ممارسات وأعمال الملك ليوبولد الثاني في الكونغو، وتوضّح للناس حقيقة دعوى التحضير والتثقيف الزائفة، والتي اختارها المستعمرون

[1]. Joseph Conrad: An Anthology of Recent Criticism, Edited by Lalitha Ramamurthi, C.T. Indra, P. 33
[2]. Conrad's Critique of Imperialism in Heart of Darkness, Hunt Hawkins, P. 286

البلجيكيون ستارا يخفون وراءه ممارساتهم العدوانية والاستعمارية. وقد أراد من خلال هذه الرواية أن يظهر للناس المساوئ والمظالم التي قام بها المستعمرون البلجيكيون ضدّ الناس المحليين.

وقد أدت كتابات الصحفيين والكتاب الأوروبيين إلى تشكيل جمعية باسم "جمعية الكونغو الإصلاحية" (Congo Reform Association) في عام 1903م، والتي كانت تهدف إلى إظهار فساد ومساوئ وفضائح وفظائع نظام الحكم البلجيكي في الكونغو. وقد عقدت هذه الجمعية ندوات وحوارات في أوروبا كلها، وكانت تحاول التأثير في الرأي العام كي يضطرّ الملك البلجيكي ليوبولد الثاني إلى أن يتخلى عن حكمه في الكونغو. وفي نهاية الأمر، تم إجبار الملك ليوبولد الثاني على ترك حكمه الذاتي في الكونغو لصالح الحكومة البلجيكية عام 1908م. وبذلك انتهت فترة حكم الملك ليوبولد الثاني في الكونغو والتي دامت لأكثر من عشرين سنة، وبالتحديد 23 سنة، ذاق خلالها الناس المحليون أنواع العذاب. ومن المهم أن نذكر بأن رئيس "جمعية الكونغو الإصلاحية" إي دي موريل كتب إلى اي كونان دويل، أحد أعضاء الجمعية البارزين، بأن قصة كونراد هي "أقوى شيئ كتب في الموضوع حتى الآن".[1]

مؤتمر برلين والتكالب على أفريقيا والرمز إليها في الرواية

لقد مرّ بنا فيما مضى من خلال دراستنا لتاريخ الكونغو في العصر الحديث ووقفتنا بالتحديد حول فترة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بأن أفريقيا أصبحت لقمة سائغة للدول الأوروبية الكبرى، وصارت مسرحا لأعمال السلب والنهب والمؤامرات والدسائس والتي في

[1]. Conrad's Critique of Imperialism in Heart of Darkness, Hunt Hawkins P. 293

معظمها كانت تقع المظالم على الناس المحليين. وقد رأينا أيضا بأن موارد أفريقيا الطبيعية وثرواتها المعدنية الضخمة كانت كثيرة وكبيرة سالت لها لعاب الدول الأوروبية الكبرى. وبما أن المستعمرين كانوا يتصارعون فيما بينهم لبسط نفوذهم في الأراضي الأفريقية وكسب مناطق جديدة وعديدة لضمان سيطرتهم على الموارد والثروات. وبما أن بلاد الكونغو الواقعة في قلب أفريقيا كانت زاخرة بالثروات الطبيعية والتي كانت توفّر أيضا طرق النقل والتنقل، وبما كانت تجود به من الأنهار الكبيرة التي كانت توفّر فرصا كبيرة للتجارة والملاحة ونقل الآلات العسكرية ونقل الجنود والإداريين، فإنها صارت بمثابة رقعة شطرنج تتلاعب فيها كل القوى الأوروبية، وتحاول السيطرة عليها. فنرى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا والبرتغال وغيرها من الدول الأوروبية كانت تحاول أن تظفر بحظها من الأراضي الأفريقية في هذه القارة.

وكان هذا التنافس الشديد فيما بين الدول الأوروبية ينذر بخطر كبير واندلاع صراعات فيما بينهما لولا قيامها بعقد مؤتمر برلين عام 1884م، والذي أدّى إلى تقسيم أوروبا كلها فيما بين الدول الأوروبية المستعمرة. وبما أن بلاد الكونغو كانت مشكلة شائكة يصعب حلها لأن الدول الأوروبية كلها تقريبا كانت تحاول أن تسيطر عليها وتضمّها إلى مناطق نفوذ لها مما دعا الأمر إلى أن تُعطى هي إلى حكم شخص وليس لدولة. وبالتالي أعطيت الكونغو للملك البلجيكي ليوبولد الثاني بموجب الاتفاقية التي أبرمها ممثلو الدول الأوروبية في مؤتمر برلين حول الكونغو والتي كانت تنص على أن تكون الكونغو مكانا للتجارة الحرة، وأن يسمح لجميع الدول المشاركة في المؤتمر حرية الملاحة في نهر الكونغو. وقد ذكرت بنود ومواد هذه الاتفاقية والأمور الأخرى المتعلقة بها في حديثي عن تاريخ الكونغو ومؤتمر برلين في الصفحات الماضية.

هذا، وإذا ما ننظر في رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد، فإننا نجد فيها إشارات واضحة إلى هذا التنافس الشديد فيما بين الدول الأوروبية، وأيضا إلى هذا المؤتمر بالذات الذي أسفر عن تقسيم أفريقيا فيما بين الدول الأوروبية الكبرى. وبهذا الصدد نرى راوية الرواية "تشارلي مارو" الذي سافر إلى بلاد الكونغو كقبطان لإحدى السفن التجارية لصالح شركة بلجيكية يقول بأنه بعد عودته من الشرق كان يبحث عن عمل في إحدى السفن. ولما علم عن شركة بلجيكية توفّر فرصة العمل، فإنه ذهب للقاء مديرها للحصول على هذه الوظيفة. وفي غرفة المدير إنه رأى خريطة للعالم وخريطة لأفريقيا. وفي ذلك يقول مارلو في الرواية: "أعطيتهم إسمي وتلفتت يمنة ويسرة. وكان هناك مكتب خشبي لعقد الاتفاقية في وسط الغرفة، وكانت هناك الكراسي البسيطة حول الجدران. وفي زاوية في الجدار، رأيت خريطة كبيرة لامعة تظهر عليها جميع ألوان قرس قزح. وكانت هناك بقعة واسعة ملونة باللون الأحمر. ويبدو النظر فيها جميلا في أي وقت–لأنه إذا رآها شخص، فإنه يجد بأن عملا حقيقيا يقع هناك. وكانت هناك بقع ملونة باللون الأزرق، وبقع أخرى ملونة باللون الأخضر، وباللون البرتقالي. وفي الساحل الشرقي رأيت بقعة ملونة باللون الأرجواني... إلا أنني لم أكن أنوي الذهاب إلى أية منها. كنت أنوي الذهاب إلى البقع الملونة باللون الأصفر في قلب المركز. وكان هناك نهر فاتن ومثير للإعجاب وخطير مثل حية".[1]

وهنا نستطيع أن نقارن بين هذا الاقتباس المذكور أعلاه من الرواية وبين الحقيقية التاريخية والواقع الحقيقي الذي وقع في أفريقيا وبلاد الكونغو بعد مؤتمر برلين. وهذه المساحات الأرضية الملوّنة بالألوان المختلفة هي ترمز إلى ألوان رأيات للدول الأوروبية الاستعمارية المختلفة. يقول مارلو في

[1]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 11

الاقتباس المذكور أعلاه بأنه رأى في خريطة أفريقيا المعلقة على الجدار مساحات أرضية واسعة ملونة باللون الأحمر. وهذه البقاع الملونة باللون الأحمر ترمز إلى المستعمرات البريطانية في أفريقيا، كونها أقوى وأعظم قوة استعمارية أوروبية في وقتها. والألوان الأخرى في الخريطة ترمز إلى المستعمرات الأوروبية الأخرى كفرنسا وإيطاليا وألمانيا والبرتغال وأيضا بلجيكا والدول الأوروبية الأخرى.

ومن المهم أن نذكر بأن مارلو راوية الرواية الذي سافر إلى الكونغو يقول بأنه لم يكن ينوي الذهاب إلا إلى البقاع الأرضية الأفريقية الملونة باللون الأصفر، في إشارة إلى بلاد الكونغو التي كانت مستعمرة بلجيكية. والشيئ الذي يكمل لنا هذه الصورة وهذا الرمز في قول مارلو هو ذكر النهر الكبير في قلب أفريقيا. وهذا النهر هو النهر الكبير، نهر الكونغو، الذي يجده مارلو مثل حية سحرته. وقد ذكر مارلو هذا النهر بهذه الصورة في أكثر من مكان في الرواية.

وقد رأينا في مؤتمر برلين بأن جميع القوى الاستعمارية الأوروبية المشاركة في المؤتمر اتفقت فيما بينها على ضمان حرية الملاحة وحرية التجارة في نهر الكونغو لجميع الدول. وإذا ما نقرأ الرواية، فإننا نرى بأن كثيرا من التجّار الأوروبيين ووكلاء الشركات التجارية الأوروبية، وعدد من المحطات التجارية ومدرائها والقائمين عليها كانوا من دول أوروبية مختلفة. ففيها نجد سفينة فرنسية تهاجم شواطئ النهر. "... ولم يكن هناك أي ظل، وكانت هي تطلق الرصاص على الحشائش، وكان يبدو بأن الفرنسيين كانوا في حرب هناك"[1]. وكذلك نجد في الرواية شخصا روسيا يعمل لصالح المحطة التجارية التي يقوم عليها بطل الرواية كورتز. وكورتز نفسه كان قد تربى في بيئة غير بلجيكية. أمه كانت نصف

[1]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P 16

فرنسية ونصف إنجليزية. وحتى كورتز بطل الرواية فقد قال عنه مارلو بأن أوروبا كلها ساهمت في خلق كورتز.

الفصل الخامس

سرد الإمبراطورية وفكرة تحضير الشعوب في الرواية

إذا كانت هذه الرواية تعالج القضايا التي تتعلق بالعصر الذي عاشه جوزيف كونراد، وتسرد الأحداث والوقائع التي حدثت في البلدان المستعمرة التي رآها عن كثب، فإنها أيضا تسرد الاستعمار الأوروبي وأطماعه التوسعية وأعماله العدوانية في محاولة منها لاستغلال رجالها ومواردها، ولفرض هيمنتها السياسية والاقتصادية والثقافية عليها. والصفحات الأولى من الرواية حيث يبدأ بها رواية الرواية سرد حكايته، مليئة بالكلام عن الإمبراطوريات القديمة والجديدة، والحديث عن تاريخ الرومان القديم واستعمارهم لإنجلترا في العهد القديم، والحديث عن الاستعمار الأوروبي الجديد في القارات العديدة، ومحاولة عقد المقارنة بين استعمار الروم القديم والاستعمار البريطاني في العصر الحديث وأيضا المقارنة بين الاستعمار البريطاني واستعمار الدول الأوروبية الأخرى. ويبدو من الصفحات الأولى للرواية بأن تشارلي مارلو كان يريد أن يقدّم تمهيدا وإرهاصا لما سيحكيه لسامعيه من حكايته عن رحلته إلى بلاد الكونغو، ومشاهدته لآليات الاستعمار وأدواته ومؤسساته ورجاله في الكونغو.

وإذا ما قرأنا الرواية فإننا نجد سرد الإمبراطورية واضحا في بداية الرواية نفسها، حيث يجلس الراوي على متن قارب وهو يحكي للزملاء الرحالين الذين كانوا جالسين معه في القارب الذي كان راسيا على نهر "التايمز" بلندن. وهنا يسرد تشارلي مارلو لزملائه الأحداث القديمة والأمجاد التاريخية القديمة التي كانت بمثابة بذور للإمبراطورية البريطانية الكبرى. يقول الراوي بأنه قد مرّ بهذا النهر الفرسان المشاهير والضباط الكبار منذ العهد القديم إلى العصر الحديث، وهو يقول عن نهر "التايمز":

"كان قد حمل كل السفن التي تبدو أسماؤها مثل الجواهر التي تلمع في ظلام الزمان، من سفينة "غولدن هند" التي عادت مليئة بالخزائن، والتي جاءت لرؤيتها جلالة الملكة، وفيما بعد خرجت هذه السفينة من الحكاية العظيمة، وتركت المجال لسفينة "إيريبس" وسفينة "تيرر" واللتين خرجتا للانتصارات الأخرى–ولم تعودا أبدا. وهذا النهر يعرف السفن والرجال الذين أبحروا من ديفت فورد، ومن غرين وتش، ومن إيريث– وهؤلاء كانوا مغامرين ومستوطنين. ومرّت بهذا النهر سفن الملوك وسفن الرجال الذين كانوا ربّاني السفن... والجنرالات من أسطول شركة شرق الهند... هؤلاء كانوا يصطادون الذهب، ويبحثون عن الشهرة. وقد خرجوا بهذا النهر، وهم يحملون السيوف، وفي بعض الأحيان كانوا يحملون الضوء، وكانوا رسل القوة في الأرض، وكانوا حاملي الشرارة للنار المقدّسة. وكم من عزّ وجاه شهدهما هذا النهر في طريق جريانه إلى ألغاز الأرض المجهولة! أحلام الرجال، وبذور الكومونولث وتيجان الإمبراطوريات".[1]

وفي هذا الاقتباس المذكور أعلاه نرى بأن نهر التايمز بلندن والسفن الأوروبية التجارية العسكرية التي مرّت به هما يرمزان إلى قوة وعظمة وهيبة الإمبراطورية البريطانية في العصر الحديث. ويتحدث مارلو في هذه العبارة المذكورة أعلاه عن كل من كانت لهم علاقة وارتباط بالإمبراطورية ونشاطاتها وأعمالها. ففيه ذكر الملكة والملوك، وذكر الرحالين والمغامرين الذين خرجوا في الشرق لاكتشافه، وفيه ذكر السفن التجارية التي خرجت إلى الشرق وعادت مليئة بالخزائن والجواهر، وفيه ذكر الجيش والإداريين والمبشرين والمستشرقين. وكل هؤلاء كان لهم دور كبير في بناء إمبراطورية

[1]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 4-5

حقّقت أحلام الأوروبيين والتي خلفت لهم إمبراطورية ضخمة عرفت فيما بعد بدول الكومونولث. ودول الكومونولث هذه كانت مستعمرات بريطانية في العصر الحديث.

هـذا، ونـرى في الروايـة أيضـا بـأن الـراوي يشـير إلى بريطانيـا العظمـى وقوتهـا السياسـية والاقتصادية والعسكرية الكبيرة حينما كان ينظر في خريطة أفريقيا التي رآى فيها مساحات واسعة ملونة باللون الأحمر، حيث يقول فيها: "كانت هناك مساحات واسعة ملونة باللون الأحمر، وعند النظر فيها تبدو جميلة، وإذا ما رآها شخص فإنه يجد بأن عملا حقيقيا يقع هناك".[1] وفي هذا نرى بأنه يقارن بين المستعمرات البريطانية وبين المستعمرات الأوروبية الأخرى، وخاصة المستعمرات الألمانية الملوّنة باللون الأرجواني والمستعمرة البلجيكية الملوّنة باللون الأصفر. ومارلو نفسه يذكر في مكان آخر في الصفحات الأولى من الرواية بأنه كان مولعا وشغوفا بالنظر في خرائط العالم منذ صغره. فهو يقول: "وفي صغري كنت مولعا بالخرائط. فقد كنت أتحملق لساعات في خرائط أمريكا الجنوبية، وأفريقيا، وأستراليا، وأكون مغرقا في التفكير في عظمة الكشوف. وفي ذلك الوقت كانت هناك مساحات فارغة في الأرض... فقد كنت أضع إصبعي عليها وكنت أقول إذا ما كبرت فإنني سأذهب إليها".[2]

وفي مكان آخر في الرواية قام الراوي تشارلي مارلو بعقد المقارنة بين الاستعمار البريطاني الحديث وبين استعمار الروم القديم، حيث يقول في ذلك: "كنت أفكر في أزمنة قديمة جدا، حينما أتى الرومان هنا لأول مرة منذ 1900 سنة... منذ عهد حينما كان هناك ظلام.... السفن الرومانية ذات المجاديف على الجوانب كانت تعبر البحر المتوسط، ثم يؤمر لها بأن تتجه شمالا إلى بلاد

[1]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 10
[2]. Ibid, P. 8

الغال... وما الذي ينقذنا هو الكفاءة، والوفاء لتلك الكفاءة. لكنهم (الروم) لم يكونوا كذلك، ولم يكونوا مستعمرين، وإدارتهم كانت فقط امتصاصا ليس غير. كانوا غزاة، وفي ذلك تحتاج فقط إلى القوة الغاشمة. وهو شيئ لا يؤهله لصاحبه أن يفتخر به لأن قوتك حادث ينشأ لأجل ضعف الآخرين. إنهم قبضوا على كل ما استطاعو القبض عليه، وكان ذلك سطوا مسلحا وسرقة بالعنف. وفتح الأراضي واستلابها من الذين لهم سحنات مختلفة، أو أنوف أكثر تفلطحا من أنوفنا، ليس شيئا جميلا لو فكرت فيه. وما الذي يتدارك ذلك هو الفكرة فقط".[1]

وفي هذا الاقتباس المذكور أعلاه نرى بأن جوزيف كونراد يعارض فقط الاستعمار المخرب والمدمر، ويبدو كأنه يقوم بتبرير الاستعمار البريطاني على أنه يتأسس على أساس "الكفاءة"، ويتم العمل عليها وفقا للفكرة التي لم يوضّحها ولم يشرحها. وهنا يبدو فهم وشرح موقف والتزام جوزيف كونراد صعبا للغاية. وقد انقسم النقّاد في شرح وفهم موقف كونراد هذا إلى طائفتين: طائفة تظن بأنه كان يعارض الاستعمار على وجه العموم، سواء أكان البريطاني أو غير البريطاني، وطائفة تقول بأنه كان يؤيد الاستعمار البريطاني ويدعمه على أساس أنه يقوم –في نظره– باستعمار وإدارة البلاد المستعمرة على أسس الكفاءة وفكرة تحضير الشعوب. وفي ذلك يقول جوناح راسكن في كتابه"The Mythology of Imperialism" بأن : "جوزيف كونراد وراويته مارلو تغيّرا كثيرا بعد تجربتهما في الكونغو، وأصبحا يعارضان الاستعمار ليس فقط في الكونغو، بل في كل مكان".[2]

وتقول الناقدة إليوس هاي في كتابها"The Political Novels of Joseph Conrad: A Critical Study" بأن هناك اختلافا في موقف كونراد وراويته مارلو. وهي تقول مثل راسكن بأن "كونراد

[1] Heart of Darkness, Joseph Conrad P. 6-7.
[2] The Mythology of Imperialism , Jonah Raskin, P. 171.

عارض جميع القوى الاستعمارية، إلا أن مارلو قام بتقديس وتبرير الاستعمار البريطاني على أساس أنه مبني على الكفاءة".[1] وهي تقول أيضا بأن مارلو تكلم في الاقتباس المذكور أعلاه عن "الكفاءة" و"الفكرة"، إلا أن كونراد يهدم هذه القيم أثناء القصة. وهي تقول أيضا في كتابها: "ليس لنا إلا أن نفكر فيما لم يستطع مارلو أن يراه، وهي أن كفاءة بريطانيا وأفكارها لا تستطيعان أن تنقذانها من الإدارة الناقصة في أفريقيا، والتي سوف لا تفرّق بين رجل أبيض وآخر حينما تقبض أفريقيا على زمام أمرها. قال مارلو إن أوروبا كلها ساهمت في خلق كورتز. وهذا هي الأهمية الكبرى للقصة لإظهار ما لم يستطع مارلو أن يراه، وهو أن بريطانيا ليست مستثنية من ذلك في أي حال من الأحوال".[2]

أوروبا كلها ساهمت في خلق بطل الرواية "كورتز"

هذه الجملة مأخوذة من الرواية وقد قالها مارلو راوية الرواية عن بطل الرواية كورتز. وهي تشير إلى مؤتمر برلين الذي اجتمعت فيه القوى الاستعمارية المختلفة لتقاسم فيما بيتهما الأراضي الأفريقية. وقد حصل الملك البلجيكي ليوبولد الثاني على نصيب الأسد في ذلك المؤتمر. وقد استطاع بواسطة دهائه ودبلوماسيته من أن يحصل على بلاد الكونغو فجعلها مركزا لحكمه الذاتي وتجارته الرابحة. وفي ذلك يقول هانت هاكنس في مقالته بعنوان: Conrad's Critique of Imperialism in Heart of Darkness": "الملك ليوبولد الثاني من بلجيكا حصل على الكونغو كدولة له، (خلافا لأن تكون مستعمرة بلجيكية) من خلال الدهاء الديبلوسي، وقد ظهر أمام الناس بأنه عامل خير، وقد كسب رضا القوى الأوروبية لصالحه لإحكام سيطرته على تلك المنطقة في مؤتمر برلين في عام

[1]. The Political Novels of Joseph Conrad: A Critical Study, Eloise Knapp Hay, P. 143
[2]. Ibid, P. 154

1885م. وقد أملت القوى بأنها تستطيع أن تمنع الصراع فيما بينها بإحالتها للكونغو إلى هذا الملك الضعيف، والذي وعد بأنه سيبقى دولته، خلافا للمستعمرات الأخرى منفتحة للتجارة الحرّة"[1].

إلا أن حكم الملك ليوبلد الثاني كان حكما غاشما استنزف موارد الكونغو الطبيعية ونتج عنه قتل ملايين من الرجال والنساء وتم إرسال الناس المحليين كعبيد إلى الدول الأوروبية وإلى المستعمرات الأوروبية للعمل الإجباري. وفي الرواية نرى أحداثا مؤلمة ووقائع موجعة بحق الشعب المستعمر في الكونغو وقد ذكر المؤرخون لتلك الفترة بأن الملك ليوبولد الثاني قتل حوالى عشرة ملايين رجل، وقد أطلق بعضهم على هذا العدوان الصارخ بـ "الهولوكوست" في الكونغو.

فكرة تحضير الشعب أو فكرة الاستعمار

وقد حاول جوزيف كونراد أن يثبت للقارئ ما شاهده هو في الكونغو من ظلم واضطهاد بحق الشعب المقهور على أيدى الملك ليوبولد الثاني. وبذلك حاول أن يزن فكرة مهمة التحضير بميزان الأحداث على أرض الواقع. ففي اتفاقية برلين، وعد ليوبولد بأنه سيحاول تحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي لسكان الكونغو. لكنه اخترق هذا الوعد والدليل على ذلك قيامه بإجبار الناس المحليين على العمل الإجباري.

رفض جوزيف كونراد الكفاءة والمقدرة كأساس لاستعمار الشعوب في نصوص الرواية "قلب الظلام"، وفعل مارلو نفس الشيء. وموقف الراوي يبدو صعبا لأن نفهمه نظرا إلى بناء القصّة. في البداية يبدو كأنه يرى الكفاءة والقدرة أساسا لتبرير المبدأ الاستعماري. لكنه فيما بعد يغير من موقفه هذا. وكذلك كلاهما يرفضان فكرة تحضير الشعوب خلال الرواية. ولما رأى الراوية بأن

[1]. Conrad's Critique of Imperialism in Heart of Darkness, Hunt Hawkins, P. 5

فكرة تحوله إلى المواطن المحلي تغلبه، ليس فقط لأن يفعل مثل الأفارقة بل لأنه بدأ يفكر في أن يستغل الأفارقة مثلما استغلهم كورتز وفي مثل هذه الحال يرى مارلو بأنه لا تستطيع أية فكرة أن تقدم تبريرا كافيا. "المبادئ ؟ المبادئ لا تفيد؟"[1].

وفيما بعد يؤكد أيضا "أما فيما يتعلق الأمر بالأوهام، والمعتقدات وما يطلق عليه بالمبادئ، فإنها أقل من ذرة في الهواء"[2]. والفكرة الخاصة عن مهمة تحضير الشعوب تفشل في أن تمنع الاستغلال، وعلى العكس من ذلك إنه يزيدها. ويقدّم البطل كورتز مثالا واضحا لذلك. إنه ذهب إلى أفريقيا كرسول للحضارة وعضو من مجموعة الخير، لكن بدا زيف هذه الدعاوي لما بدأ يسوم الناس المحليين سوء العذاب لأجل كسب الأرباح الكثيرة. ولم يحترز من أن يستخدم قبائل محلية للهجوم على البلاد لأجل العاج.

ونقد جوزيف كونراد الرئيسي على الاستعمار في رواية "قلب الظلام" هو أنه يهدم الثقافات المحلية. وإنه إن لم يكن قد كتب عن الثقافة الأفريقية بالتفصيل ومع ذلك إنه قدم على وجه العموم انتقادا لمحاولات المستعمرين فرض هيمنتهم الثقافية على البلاد المستعمرة. لم ينتقد جوريف كونراد الاستعمار البلجيلي وحده فقط بل إنه انتقد الاستعمار الأوروبي على العموم وخاصة الاستعمار الفرنسي والاستعمار الألماني، وأيضا الاستعمار البريطاني، ونجد في الرواية إشارة واضحة إلى ذلك. فإن بطل الرواية كورتز تعلم جزئيا في إنجلترا وأمه كانت نصف إنجليزية ونصف فرنسية.

---

[1]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 37

[2]. Ibid, P. 42

هذا، وإن لم يكن بطل الرواية كورتز قد عمل في الكونغو لصالح بريطانيا، بل عمل لصالح الملك البلجيكي ليوبولد الثاني، إلا أن جوزيف كونراد يشير إلى أن بريطانيا تقع عليها مسئولية المظالم في الكونغو، فكما أن أوروبا كلها ساهمت في خلق البطل كورتز، فكذلك أوروبا كلها بما فيها بريطانيا وافقت على خلق الكونغو للملك البلجيكي في برلين. ولم يكن لحكم ليوبولد الثاني أن يأتي في حيز الوجود لو لم تكن هناك منافسة استعمارية فيما بين القوى الأوروبية الكبرى، ولم يكن في مقدوره أن يستمر في جرائمه لو لم تتردد القوى الأوروبية في مواقفها من التدخل في الأمر.

سرد المظالم ضد الشعب الكونغولي في عهد الاستعمار البلجيكي في الرواية

لقد مرّ بنا فيما مضى بأن رواية جوزيف كونراد هي سرد لتجاربه وأيامه التي عاشها في الكونغو، كما هي سرد للخراب والدمار اللذين رآهما جوزيف كونراد في الكونغو في ظل الاستعمار. ولقد قدّم عدد من المؤرخين رواية جوزيف كونراد "قلب الظلام" كأدلة على وقائع الظلم والاضطهاد والعدوان التي تعرض لها الشعب الكونغولي في بلاد الكونغو في عهد الاستعمار البلجيكي تحت حكم الملك البلجيكي ليوبولد الثاني.

وإذا نظرنا في السياق والفترة التي كتب فيهما جوزيف كونراد هذه الرواية، فإننا نجد سردها لوقائع الظلم وأحداث الاضطهاد واضحا. وقد ذكرنا فيما سبق بأن جوزيف كونراد كتب هذه الرواية بعد عشر سنوات من عودته من بلاد الكونغو. وأثناء هذه السنوات العشر حدثت الفظائع والفضائح في الكونغو. ولعلّ جوزيف كونراد قرأ واطلع على كل ما كان يقع في الكونغو أثناء تلك الفترة من مظالم وويلات في الكونغو.

وإذا ما نظر المؤرخون في هذه الرواية لإقامة الأدلة على مساوئ ومظالم الحكم البلجيكي في الكونغو، فذلك لأنها تقدّم أدلة صارخة على المظالم التي كانت تقع في الكونغو ضدّ الناس المحليين في تلك الفترة. وقد سرد جوزيف كونراد كل تلك الأحداث بشكل رمزي دون أن يسمي الملك ليوبولد الثاني أو اسم الحكم البلجيكي في الكونغو في أي مكان في الرواية. إنه فقط رمز لذلك. ورمزه هذا يبدو أكثر وضوحا وأكثر صراحة. والمؤرخون الذين درسوا هذه الرواية لفهم وكشف حقيقة الوقائع الواقعة في الكونغو في تلك الفترة، إنما درسوها لأنها تقدّم صورا واضحة للاستعمار البلجيكي وعدوانه وظلمه وفساده. فها هو المؤرخ جورجيز نزونجولا ناتالاجا يقول في كتابه " The Congo from Leopold to Kabila: A People's History": "والإنجازات الكبيرة للملك ليوبولد كانت قد تم إحرازها نتيجة للعمل الإجباري وجرائم الاغتصاب والاضطهاد، وقطع الأعضاء الجسدية والقتل. وهذه الجرائم كما تُظهرها الشخصية الخيالية في رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد كانت جزءا لا يتجزأ من نهب أفريقيا. وهذا هو نفس الشيئ الذي رآه الصحفي والمؤرخ الأفريقي الأمريكي جورج واشنطن وليام أثناء رحلته عبر الكونغو عام 1890م"[1]. وكما يكرّر نفس الشيئ الكاتب ديفيد رينتون والآخرون في كتابهم "The Congo: Plunder and Resistance": "وناقد آخر للحكم البلجيكي هو الروائي جوزيف كونراد الذي كان صديقا لروجر كاسمينت. وقد قاد جوزيف كونراد سفينة في الكونغو في عهد شبابه. وروايته الشهيرة "قلب الظلام" تشتمل على تجربة العقد الأول للحكم البلجيكي،... وراوية الرواية مارلو يتابع القوة الدافعة للغزو، والتي كانت هي الحصول على المنفعة. وهو يصف وكلاء الشركة بأنهم كانوا "عددا من الحجاج غير الأوفياء الذين تم أسرهم داخل

[1]. The Congo from Leopold to Kabila: A People's History, Georges Nzongola Ntalaja, P. 23

سور نتن". والكلمة "العاج" كانت تطير في الهواء. وكان الناس يتهامسون بها. وكانوا ينظرون إليها حتى يخيل إليك بأنهم كانوا يعبدونها. والشخص الرئيسي في "قلب الظلام" هو كورتز. وهو كان تاجرا وعامل خير. هو نصف بريطاني ونصف فرنسي ويمثّل فخر وقناعة الغزو. وكورتز يقنع الكونغوليين بأن يتبعوه كأنه إله. وأثناء هذه الفترة يفقد كورتز ذاته، وجنون كبير يقتحم ضميره. ويصرخ كورتز "اقتلوا جميع المتوحشين". وهو يجمع سلسلة من جمجمات الكونغوليين. ورحلته تنتهي في جنون. "الرعب، الرعب" هي كلماته الأخيرة التي تلفظ بها، وإذا ما عثر الراوي على هذا الرجل الكبير في السن، فاقتنع مارلو بأن نتيجة الكولونيالية ستكون مأساوية"[1].

وهكذا نرى بأن هذا الاقتباس المذكور أعلاه من هذا الكتاب الذي هو أساسا كتاب عن تاريخ الكونغو عن تلك الفترة، يوضّح لنا ما قد ذهب إليه النقّاد والكتاب بأن رواية جوزيف كونراد هذه تسرد الاستعمار البلجيكي وأحداثه والعدوان والظلم اللذين مارسهما ضد الشعب الكونغولي. أو كما يقول بيطرك برانت لينغر في كتابه" Rule of Darkness: British Literature and Imperialism, 1830-1914": "رواية "قلب الظلام" لا تظهر فقط ما قد رآه كونراد ودوّنه جزئيا في "مذكرة الكونغو"، لكنها أيضا تكشف لنا عن المظالم التي بدأت تظهر في الصحافة البريطانية منذ عام 1888م، ووصلت إلى قمّتها بعد عشرين سنة في عام 1908م. وهذه الفضائح المستمرة أجبرت الحكومة البلجيكية على بسط سيطرتها على دولة الحكم الذاتي لليوبولد... وأثناء تلك الفترة، قتل سكان الكونغو إلى حد أنه لم يبق منهم إلا النصف. وقد شرّد وعذب وقتل ما يقارب 6 مليون رجل كونغولي جراء نظام العمل الإجباري ولجمع العاج وما قد أطلق عليه دعاة الإصلاح بأنه

[1]. The Congo: Plunder and Resistance, David Renton and others, P. 44

"المطاط الأحمر" من قلب الظلام. وكونراد كان متعاطفا مع جمعية الكونغو الإصلاحية التي تم تأسيسها عام 1903م جزئيا من قبل روجر كاسمينت الذي لقاه جوزيف كونراد في أفريقيا، وقد طلب منه كاسمينت أن يكتب رسالة دعائية ضد الحكم البلجيكي".[1]

وروجر كاسمينت هذا كان المستشار البريطاني الذي سافر إلى الكونغو لجمع الأدلة والتقارير عن الحكم البلجيكي ومظالمه عام 1900. وقبل هذا العمل كان قد سافر إلى أفريقيا في عام 1885م. وعمل في مشروع ليوبولد الثاني، وقد استفاد كاسمينت من تجربته في 1880م في الكونغو. وفي عام 1900م أرسلته الحكومة البريطانية إلى بلاد الكونغو مرة أخرى لإعداد تقرير عن المستعمرات لإفحام منتقديها. إلا أن كاسمينت رأى فيها خرابا ودمارا وظلما وعدوانا وفسادا في كل مكان.

[1]. Rule of Darkness: British Literature and Imperialism, 1830-1914, Patrick Brantlinger, P. 257

الباب الرابع

دراسة مقارنة بين الروايتين في سرد الاستعمار والإمبراطورية والصراع الحضاري والثقافي ومناقشة الجمع بين النقيضين

الفصل الأول: سرد الاستعمار الأوروبي والإمبراطورية في الروايتين

الفصل الثاني: مقارنة بين الروايتين في دعوى المستعمرين لتحضير الشعوب وقضية الاستشراق والصراع الحضاري

الفصل الثالث: مقارنة في مناقشة التناقض في الروايتين وآراء النقاد فيها

الفصل الرابع: الأساليب الكتابية والأدبية والتقنيات السردية والفنية في الروايتين والمقارنة بينهما

لقد مرّ بنا فيما سبق بأن كلا الروائيين الطيب صالح وجوزيف كونراد قاما بسرد أحداث الاستعمار ووقائعه، وسرد حكاية الإمبراطورية في العصر الحديث كما لم تفتهما الإشارة إلى الإمبراطوريات الكبرى في العهود الغابرة. وإذا أمعنا النظر في كتابات هذين الروائيين، فإننا نجدها تصدر عن تجارب حياة مليئة بالمغامرات والأسفار إلى عالم "الآخر"، ونجدها تتخذ أحداثها ووقائعها من ظروف وأوضاع مجتمعية في ظل الاستعمار وآلياته ومؤسساته. ومن أهم ما نجد في كلتا الروايتين هو التركيز على سرد الوقائع التاريخية المؤلمة التي حدثت في ظلّ الاستعمار وما نتج عنها من دمار وخراب، وما تمخضت عنه من تداعيات على المجتمعات المستعمَرة، وما قد ينشأ جراء ذلك بين العالمين من صراع حضاري وثقافي، وما قد يطرأ على الفرد المستعمِر والمستعمَر كليهما من ظروف سلبية ترهق روحهما وتجردهما من إنسانيتهما وتخلق لديهما عقدا سلبية. وقد بحثت كلتا الروايتين هذه القضايا وغيرها من خلال تمثيلاتها السردية باستخدام تقنيات فنية مبتكرة وأدوات سردية ممتازة.

ومن الجدير بالذكر بأن الروايتين إذا ما عالجتا هذه القضايا وغيرها، فإنها حاولتا كذلك أن تقدما رؤى وأفكارا عديدة مما قد جعل النقاد والقرّاء ينقسمون إلى طائفتين، طائفة تؤيد وتؤكد موقفا أو رؤية، وطائفة أخرى تنتقد وتعارض ذلك الموقف وتلك الرؤية.

الفصل الأول

سرد الاستعمار الأوروبي والإمبراطورية في الروايتين

كلتا الروايتين تسردان الأحداث والوقائع التي وقعت في البلدين المستعمرين. ومما يثير الانتباه في هاتين الروايتين هو معالجتهما لتيمة الاستعمار وتاريخه وأحداثه في بلدين مستعمَرين في القارة الأفريقية. وعند وقوفنا لدى العنصر الزمكاني في سرد الأحداث في الروايتين، يتّضح لنا بأن كلا الروائيين يسردان حكاية الاستعمار في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كما هو الحال في رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد، ونهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين فيما يتعلق الأمر برواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح.

ولعله من الطريف أن نذكر بأن كلا الكاتبين قد زارا بلدانا غربية وشرقية، ورأيا أوضاعها وشاهدا أحوالها وسياساتها. وقد اجتمعت لديهما خبرات واسعة أثناء اشتغالهما بالعمل والوظيفة في عالم "الآخر". فالطيب صالح الروائي، ابن السودان، قد زار لندن وباريس وبلدانا أوروبية أخرى بحكم عمله في البي بي سي (هيئة الإذاعة البريطانية). وجوزيف كونراد بولندي الأصل وبريطاني الجنسية قد زارا البلدان الشرقية الآسيوية والأفريقية مرات وكرات لأجل ظروف عمله في السفن البحرية التجارية. ويّتضح لنا من هذا بأن الكاتبين كانا يتصلان بعالم "الآخر" اتصالا مباشرا.

ومما يجعل عقد المقارنة بين الروايتين فيما يتعلق الأمر بسرد الإمبراطورية والاستعمار مهمّا وطريفا هو تركيزهما على سرد أحداث الاستعمار في عهد التصعيد الاستعماري الأوروبي البريطاني

وغيره. وكما مرّ بنا فيما سبق بأن كلتا الروايتين تسردان الوقائع الاستعمارية التي حدثت في البلدان المستعمَرة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي الفترة الحاسمة والمهمّة بالنسبة للاستعمار الأوروبي والمستعمِرين الأوروبيين. وذلك لأن تلك الفترة عقبت فترة "التكالب على أفريقيا"، وتقسيم الأراضي الأفريقية فيما بين الدول الأوروبية. فرواية "موسم الهجرة إلى الشمال" التي تسرد عهد الاستعمار البريطاني في السودان تشير إلى وقوع السودان في أيدي المستعمرين البريطانيين منذ ولادة بطلها الروائي مصطفى سعيد عام 1898م. "... فتحت ورقة فإذا هي وثيقة، مصطفى سعيد، من مواليد الخرطوم، 16 أغسطس عام 1898.. الأب متوفى، الأم فاطمة عبد الصادق، فتحت بعد ذلك جواز سفره، الاسم، المولد، البلد، كما في شهادة الميلاد، المهنة "طالب". تاريخ صدور الجواز عام 1916، في القاهرة، وجدد في لندن عام 1926م. كان ثمة جواز سفر آخر، إنجليزي، صدر في لندن عام 1929م، قلّبت صفحاته فإذا أختام كثيرة، فرنسية وألمانية وصينية ودنماركية".[1]

هنا تشير الرواية إلى زحف الاستعمار الأوروبي إلى السودان. فمصطفى سعيد بطل الرواية ولد في عام 1898م، وهي نفس السنة التي وقع فيها السودان في أيدي المستعمِرين البريطانيين بعد أن تمكّن المستعمِرون من إخماد جذوة الثورة المهدية وهزيمة أتباعها، وإمعانهم في قتل رجالاتها والأناس السودانيين الآخرين. وكذلك تسرد رواية "قلب الظلام" الاستعمار البلجيكي الأوروبي تحت حكم الملك ليوبولد الثاني الذاتي في الكونغو. وهذا الحكم الذاتي للملك ليوبولد الثاني جاء بمباركة من قبل جميع الدول الأوروبية المشاركة في مؤتمر برلين عام 1884م، وهي نفس السنة التي اعتزمت فيها

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص، 19

الدول الأوروبية اقتطاع الأراضي الأفريقية. ونجد في رواية "قلب الظلام" إشارات واضحة إلى هذا التكالب المحموم على أفريقيا، وإلى هذا المؤتمر الأوروبي.

ومن المهم أن نذكر بأن كلتا الروايتين تتناولان قضية الاستعمار الأوروبي في القارة الأفريقية، وتسردان الأهوال والويلات التي خلفها الاستعمار على الشعوب المستعمَرة الأفريقية. فإذا كانت رواية جوزيف كونراد "قلب الظلام" تعالج قضية الاستعمار في بلاد الكونغو، فإن رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" تعالج قضية الاستعمار البريطاني في السودان. والذي يجعل المقارنة بين الروايتين فيما يتعلق الأمر بالاستعمار الأوروبي في كلا البلدين، السودان وبلاد الكونغو، طريفا ومثيرا للاهتمام هو معالجتهما لهذه القضية من جميع زواياها منذ العصر القديم إلى العصر الحديث. وفي ذلك يقول محمد شاهين في مقال له بعنوان "Tayeb Salih and Conrad": "كلا العملين يهتمان بوضوح بالتيمة الشهيرة للنظام الكولونيالي، الذي استلفت أنظار كثير من الكتاب في هذا القرن. وفي بحثه عن تاريخ الكولونيالية، يبدأ مصطفى سعيد من الرومان والذي يتشابه مع حديث مارلو عن الهجوم الروماني لإنجلترا في بداية سرده عن الحكاية. مصطفى سعيد ومارلو كلاهما يقدّمان احتجاجا بنفس الصورة ضدّ فكرة الاستغلال الكونيالي لأفريقيا. يقول مارلو: "إن فتح الأراضي أعني استلابها من الذين لهم سحنات مختلفة وأنوفهم أكثر تفلطحا من أنوفنا ليس عملا جميلا حين نتأمله بإمعان، (وليس ثمة ما (يشفع له ويمنحه) الخلاص سوى الفكرة ذاتها، الفكرة الكامنة وراءه، لا ذريعة عاطفية، بل فكرة، واعتقاد لا تشوبه الأنانية بالفكرة- التي هي شيئ بوسعك أن تقيمه نصبا، وتنحني أمامه مبجّلا، وتقدّم له القرابين")...ويقول الراوي في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال": الإنسان لمجرد أنه خلق عند خط الإستواء، بعض المجانين يعتبرونه عبدا، وفي نفس الوقت يقول

مصطفى سعيد: البواخر مخرت النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود" وهذا يذكّرنا بالسفن الحربية التي كانت تطلق الرصاص في البلد من نهر الكونغو كما لاحظها مارلو".[1]

وبما أن كلتا الروايتين تسردان الأحداث والوقائع في عهد التصعيد الاستعماري الأوروبي، فإن تيمة الاستعمار ومعالجة الروايتين لها واضحة وصريحة في الصفحات العديدة من الرواية.

العنصر الزمكاني في الروايتين وسرد الاستعمار الأوروبي

لقد اتضح لنا مما سبق بأن كلتا الروايتين تسردان أحداث الاستعمار التي وقعت في بلدين أفريقين في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. تسرد رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" قصة الاستعمار البريطاني في السودان وتداعياته على الشعب السوداني في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين حيث كان الاستعمار البريطاني جاثما على صدر السودان. وقد رأينا عند حديثنا عن تاريخ السودان بأنه وقع في أيدي المستعمرين البريطانيين تماما في عام 1898م، وهي نفس السنة التي ولد فيها بطل الرواية مصطفى سعيد في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، الأمر الذي يشير إلى سرد حكاية الاستعمار في هذه الرواية. أما رواية "قلب الظلام" فهي تسرد الاستعمار البلجيكي في بلاد الكونغو، وتحكي كذلك المظالم والمساوئ التي تعرض لها الشعب الكونغولي على أيدي المستعمرين البلجيكيين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وعند المقارنة بين الروايتين عن هذا العنصر الزمكاني في سرد الأحداث، فإننا نرى بأن هذا العنصر يبدو

[1]. Tayeb Salih and Conrad, Mohammad Shaheen, P. 160

متقاربا ومتشابها فيما بينهما، إلا أن الفوارق البسيطة التي تظهر على السطح فيما بينهما فهي الرحلات التي تقوم بها الشخصيات الروائية في كلتا الروايتين. فبطل رواية جوزيف كونراد يسافر من لندن (أوروبا) إلى بلاد الكونغو (أفريقيا)، وبطل رواية موسم الهجرة إلى الشمال يسافر من السودان (أفريقيا) إلى لندن (أوروبا). ويصنع صنيعهما الراويان في كلتا الروايتين. فهما يسافران مثل البطلين إلى عالم الآخر. وحتى أن الأنهار تتغير أسماؤها ووجودها طبقا للتغير في الأمكنة والأحداث. ففي رواية جوزيف كونراد نرى نهر الكونغو الأفريقي، وفي رواية الطيب صالح نجد نهر النيل في السودان الأفريقي. وهكذا نرى بأن كلتا الروايتين قد اتخذتا أدوارا معكوسة لسرد القضيّة نفسها. وفي ذلك يقول الدكتور إدوارد سعيد في كتابه "Culture and Imperialism": "وفي رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" يصبح نهر كونراد، النيلَ، الذي تجدد مياهه نفوس أهله وحيويتهم، وبمعنى ما يعكس أسلوب كونراد السردي البريطاني القائم على المتكلم المفرد، ويعكس أبطاله الأوروبيون، أولا عن طريق استخدام اللغة العربية، وثانيا في كون رواية صالح تدور حول رحلة إلى الشمال لسوداني يذهب إلى أوروبا، وثالثا، لأن الراوي يتحدث من قرية سودانية. هكذا تقلب رحلة إلى قلب الظلام إلى هجرة مقدسة من الريف السوداني- الذي ما يزال يرزح تحت أعباء موروثه الاستعماري- إلى قلب أوروبا، حيث يطلق مصطفى سعيد، وهو صورة مرآوية لكورتز (في قلب الظلام)، عنان عنف طقوسي ضد نفسه، وضد النساء الأوروبيات وضدّ الفهم لدى الراوي. وتختتم الهجرة بعودة سعيد إلى قريته الأصلية وانتحاره فيها. وتبلغ عمليات العكس المومية التي يقوم بها صالح لكونراد درجة من القصدية تجعله يكرر ويشوّه سياج كورتز المغطى بالجماجم ضمن محتويات الكتب الأوروبية المكدّسة في مكتبة سعيد السرية. وتقوم التدخلات والعبورات من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى

الشمال، بتوسيع وتعقيد المسار الاستعماري الرائح الغادي الذي يرسم كونراد خريطته، وما ينتج ليس ببساطة استعادة الإقليم الاختلاقي الروائي، بل الإفصاح عن بعض التفاوتات التي يمغمغها نثر كونراد الجليل".[1]

وهكذا نرى من هذا الاقتباس المذكور أعلاه بأن كلا الروائيين قاما بسرد قصّة الاستعمار الأوروبي وتداعياته الخطيرة في العالم المستعمَر في زمن خاص ومكان خاص. ومن الجدير بالذكر بأن الطيب صالح قال بنفسه بأنه تأثر بأسلوب جوزيف كونراد الكتابي وشكله الفني والأدبي. "صالح يعترف بتأثره بـ جوزيف كونراد في محاضرة له ألقاها في الجامعة الأمريكية في بيروت في 19 مايو، 1980م، وقال بأنه تأثر من حيث الشكل بكونراد كثيرا وخاصة في روايتيه "قلب الظلام" و"نوسترومو".[2]

هذا، ويقول الدكتور إدوارد سعيد عن هذا العنصر الزمكاني الموجود في رواية "قلب الظلام": "مثل معظم قصصه، فإن "قلب الظلام" لا يمكن قراءتها كقصّة لمغامرات مارلو وحدها فقط، بل هي إضافة إلى ذلك تحكي قصة لشخص تجول في المناطق المستعمَرة، وهو يسرد قصّته إلى مجموعة من المستمعين البريطانيين في وقت خاص ومكان خاص، وبما أن هذه المجموعة من المستعمين كانت تنتمي إلى عالم التجارة، فهي تأكيد على الحقيقة بأنه في عقد 1890 صارت الإمبراطورية التي كانت في زمن تمثل مغامرات وأعمالا فردية، لكنها صارت الآن إمبراطورية للتجارة"[3]. ويقول محمد شاهين في مقال له بهذا الصدد: "تظهر المقارنة بين "موسم الهجرة إلى الشمال" وبين "قلب الظلام"

1. Culture and Imperialism, Edward Said, P. 255
2. Season of Migration to the North and Heart of Darkness: African Mimicry of European Stereotypes, Ebrahim A. El-Hussairi, P, 107
3. Culture and Imperialism, Edward Said, P. 25

مدى تأثر الطيب صالح بجوزيف كونراد، سواء أكان ذلك التأثر من حيث القيمة العامة والخلفية السردية أو التفاصيل الخاصة للشخصيات"[1].

فالمقارنة بين الروايتين تقدّم لنا صورة واضحة عن كيفية ومدى نجاح الكاتبين في معالجة قضايا الاستعمار في العصر الحديث في القارة الأفريقية. "فإذا كانت رواية "قلب الظلام" تسرد تاريخ الاستعمار البريطاني الحديث من عمق المركز المتروبوليتي، فإن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" تقدّم نفسها كسرد مضاد لذلك التاريخ المرّ نفسه".[2] هذا عن الاستعمار في الزمن الحديث، أما عند الحديث عن الغزو الروماني للبلاد في الزمن القديم، فإننا نجد في كلتا الروايتين إشارات واضحة إلى ذلك. ففي رواية "قلب الظلام" نرى مارلو في بداية القصّة يعقد مقارنة بين الاستعمار البريطاني الحديث والاستعمار الروماني في العهد القديم ويقول مارلو بأن الاستعمار البريطاني للبلاد في أنحاء العالم كله في العصر الحديث جاء وفقا للفكرة والكفاءة. أما الاستعمار الروماني لإنجلترا في العصر القديم فإنه كان فقط غزوا وسلبا وانتهاكا.

ونجد الحديث عن هذه المقارنة بين الاستعمار البريطاني الحديث وبين استعمار الروم القديم في رواية قلب الظلام في العبارة التالية حيث يقول فيها الراوي تشارلي مارلو: "كنت أفكر في أزمنة قديمة جدا، حينما أتى الرومان هنا لأول مرة منذ 1900 سنة... منذ عهد حينما كان هناك ظلام.... السفن الرومانية ذات المجاديف على الجوانب كانت تعبر البحر المتوسط، ثم يؤمر لها بأن تتجه شمالا إلى بلاد الغال... وما الذي ينقذنا هو الكفاءة، والوفاء لتلك الكفاءة. لكنهم (الروم) لم

[1]. Tayeb Salih and Conrad, Mohammad Shaheen, P. 156

[2]. The Empire Renarrated: Season of Migration to the North and the Reinvention of the Present, Saree S. Makdisi, P. 805

يكونوا كذلك، ولم يكونوا مستعمرين، وإدارتهم كانت فقط امتصاصا ليس غير. كانوا غزاة، وفي ذلك تحتاج فقط إلى القوة الغاشمة. وهو شيئ لا يؤهله لصاحبه أن يفتخر به لأن قوتك حادث ينشأ لأجل ضعف الآخرين. إنهم قبضوا على كل ما استطاعو القبض عليه، وكان ذلك سطوا مسلحا وسرقة بالعنف. وفتح الأراضي واستلابها من الذين لهم سحنات مختلفة، أو أنوف أكثر تفلطحا من أنوفنا، ليس شيئا جميلا لو فكرت فيه. وما الذي يتدارك عن ذلك هو الفكرة فقط".[1]

أما الحديث عن هذا الغزو الروماني للبلاد الشرقية في العصر القديم في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"، فإننا نجده في قول مصطفى سعيد بطل الرواية حيث يقول: ""إنني أرى في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة وقعقعة سنابل خيل اللنبي وهي تطأ أرض القدس. البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود"[2]. وهكذا نرى في هذين الاقتباسين المذكورين أعلاه بأن كلتا الروايتين تحكيان قصّة الاستعمار والغزوات في العصر الحديث والعصر القديم، وهذا مما يؤكد ويثبث وجود العنصر الزمكاني في الروايتين.

المؤسسات الاستعمارية وسردها في الروايتين

لقد رأينا فيما مضى بأن الروايتين تسردان الأحداث الاستعمارية في بلدين أفريقيين، في السودان وبلاد الكونغو. وحينما نمعن النظر في هاتين الروايتين فإننا نجد بأن الاستعمار وأحداثه ووقائعه وتداعياته هي طاغية على أفكار الكاتبين أثناء معالجتهما للقضايا الأخرى في الرواية. فبالإضافة إلى تقديم الخلفية التاريخية للاستعمار والصراع الثقافي والحضاري فيما بين العالمين في

[1] Heart of Darkness , Joseph Conrad, P. 6-7.
[2] . موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص،99-100

الصفحات الأولى من الروايتين، إننا نجد الروائيين يقدّمان صورا واضحة وصريحة للاستعمار وآلياته وأدواته أثناء سردهما للقصة.

ونستطيع أن نقول هنا باختصار بأن الروايتين تسردان الاستعمار ومؤسساته في جميع أشكاله وصوره. ففيهما نجد ذكر الشركات الأوروبية التي كانت تقوم باستغلال الموارد الطبيعية والمعدنية في كلا البلدين المستعمَرين. وفيهما نجد أيضا ذكر بناء السكك الحديدية لنقل البضائع والرجال ولتسهيل القيام بالتجارة. وهما تتناولان الحديث أيضا عن الجنود الأوروبيين الذين كانوا يرسلون إلى هذين البلدين المستعمَرين. كما أننا نرى بأن كلتا الروايتين تتناولان الحديث عن دعوى مهمة تحضير الشعوب الأفريقية التي كان المستعمِرون يتشدّقون بها بملء أفواههم. وبهذا الشأن تقدّم الروايتان صورا عن الاستعمار الثقافي والغزو الفكري للبلاد والشعوب المستعمَرة، إضافة إلى تقديمهما لصور الاستعمار الاقتصادي والسياسي. كما تظهر الروايتان صور المظالم والمساوئ التي كانت الشعوب الأفريقية تتعرّض لها في كلا البلدين جراء العدوان والظلم والاضطهاد الذي مارسه المستعمِرون، وأيضا جراء العمل الإجباري، وحبسهم لأصوات الاحتجاج وقمعهم لأصحابها قمعا تعسفيا.

والآن سنرى كيف عالجت هاتان الروايتان هذه القضايا وغيرها، وسنقوم بدراسة مقارنة عن وجود بعض هذه الصور المماثلة والمتعارضة في كلتا الروايتين فيما يتعلق الأمر بالمؤسسات الاستعمارية وأدواتها ومهمتها التحضيرية في أفريقيا والمستعمرات الأوروبية الأخرى.

ولقد رأينا بأن الاستعمار الأوروبي وظّف كل الوسائل المتاحة له لاحتلاله للأراضي الأفريقية، ولفرض هيمنته الثقافية والاقتصادية والسياسية على البلدان المستعمَرة. وبحكم قوتها العسكرية والاقتصادية، فإن القوى الأوروبية استخدمت جيوشها وجنودها ونقلتهم إلى أفريقيا لمحاربة الأفارقة وقمعهم والسيطرة عليهم، واستطاعت بهذا التفوق العسكري الكبير فرض قوتها السياسية وتأمين شركاتها الكبرى العاملة في جمع وإرسال ونقل المواد الخام الموجودة فيها إلى أوروبا. كما استخدمت الجمعيات التبشيرية المسيحية لفرض هيمنتها الثقافية والدينية، وإدخال عدد كبير من الناس المحليين في الدين النصراني. ومن الطريف أن نذكر بأنه في معظم الأحيان كانت الجمعيات التبشيرية تصاحب القوى الأوروبية في كل مكان كانت تحتلّه لمباشرة نشاطاتها التبشيرية وإبقاء الهيمنة الثقافية الغربية عليها.

وإذا ما نقرأ الروايتين فإننا نجد أمثلة عديدة لذلك. ففي رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" يقول البطل مصطفى سعيد: "البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل الجنود. وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول نعم بلغتهم"[1]. وأيضا "سكك الحديد والبواخر والمستشفيات والمصانع والمدارس ستكون لنا، وسنتحدث لغتهم دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل"[2].

وفي هذين الاقتباسين المذكورين أعلاه من الرواية نرى بأن المستعمِرين قاموا بفرض هيمنتهم السياسية والثقافية معا. فإن كانوا قد أتوا إلى أفريقيا بعدتهم وعتادهم العسكري لإحكام سيطرتهم

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 87
[2]. نفس المصدر، ص: 47

السياسية والاقتصادية على البلاد الأفريقية، ففي نفس الوقت إنهم قاموا بنشر لغتهم ودينهم لفرض هيمنتهم الثقافية والدينية.

وفي رواية "قلب الظلام" نرى تشارلي مارلو، راوية الرواية، يتحدث عن تجاربه في الكونغو، ويقول إنه رأى أثناء رحلته سفينة فرنسية تهاجم على شواطئ النهر، وها هو يقول: "وكان يبدو بأن فرنسا كانت منخرطة في حرب هناك"[1]، وأيضا "كانوا يقومون ببناء سكك الحديد"[2]. ويقول العميل الروسي الذي كان يعمل لصالح بطل الرواية كورتز بأنه لا يستطيع أن يعمل لكورتز أكثر من ذلك. "لا أستطيع فعل المزيد لكورتز. وبعد قليل سيختلقون بعض الأعذار، سألت ما الذي يمنعهم من ذلك، أجاب لأنه هناك مركز للجيش على بعد 300 ميل من هنا"[3]، وأيضا "وكان العمل جاريا لبناء سكك الحديد"[4].

ونجد في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" ذكر الجنود الأوروبيين وهجماتهم العسكرية في أفريقيا وخاصة في بلاد السودان. فها هو مصطفى سعيد بطل الرواية يقول وهو يتذكر محاضرة له ألقاها في أكسفورد عن أبي نواس: "وبعد المحاضرة التفوا حولي. مؤظفون عملوا في الشرق، ونساء طاعنات في السن مات أزواجهن في مصر والعراق والسودان، ورجال حاربوا مع كتشنر واللنبي"[5]. ونجد ذكر الجيوش الأوروبية والحملات العسكرية من قبل الإنجليز في السودان في مكان آخر في الرواية. " مصطفى سعيد سيصير له شأن يذكر. كان أبوه من العبايدة، القبيلة التي تعيش بين مصر

---

1. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 16
2. Ibid, P. 18
3. Ibid, P.78
4. Ibid, P.20
5. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 129

والسودان، إنهم الذين هربوا سلاطين باشا من أسر الخليفة التعايشي، ثم بعد ذلك عملوا روادا لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان"[1]. وكتشنر هذا هو قائد الجيش الإنجليزي الذي استعاد فتح السودان في عام 1898م من أيدي أتباع الثورة المهدية، وبعد استعادة الفتح إنه أمعن في قتل المهديين والأناس المحليين السودانين. ويشير إلى هذا الجانب مصطفى سعيد في مكان آخر في الرواية. "حين جئ لكتشنر بمحمود ود أحمد وهو يرسف في الأغلال بعد أن هزمه في موقعة أتبرا، قال له "لماذا جئت بلدي تخرب وتنهب"، الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الأرض، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئا"[2].

وعند المقارنة بين هاتين الروايتين عن وجود الجيوش الأوروبية في أفريقيا، وسيطرتها على الأراضي الأفريقية، فإننا نجد تشابها كبيرا. ويقول الكاتب جوناح راسكين في مقال له بعنوان "Imperialism: Conrad's Heart of Darkness": "ومن خلال التركيز على بناء سكك الحديد، الماكينة الثورية للعصر، قام كونراد بتصوير واحد من أهم العناصر للاستعمار، إذ أن السكك الحديدية كما يذكرها روجر كاسمينت كانت تلعب دورا مركزيا لاستغلال الكونغو البلجيكية... وفي نظر كونراد كانت سكك الحديد تهدم الطبيعة، وهي كانت أداة للاستغلال والاضطهاد، وكانت تؤدي إلى تدمير عنيف للمجتمعات البدائية. فمثل السفن الحربية التي كانت تطلق الرصاص على القارة الأفريقية، فبالمثل يتم تصوير بناء السكك الحديدية ككفاح بين الرجل الأبيض والطبيعة، وهو شيئ يدمر حياة الأفارقة ببطء. ويذكر كونراد لنا عن العمال السود: "والذين تم جرّهم من جميع الأماكن الساحلية... والذين صاروا ضائعين في أوضاع غير مناسبة، وتغذوا على أغذية غير صالحة،

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 50
[2]. ننفس االمصدر، ص: 86-87

وبالتالي أصبحوا مرضى وغير قادرين على العمل، ومن ثم أعطى السماح لهم بأن يخرجوا زاحفين ويستريحوا"[1].

هذا عن الجيوش والجنود وبناء السكك الحديدية، وهي كلها تدل على الاستعمار السياسي والعسكري والاقتصادي في كلا البلدين المستعمَرين. أما تصرفات الحكام والضباط الأوروبيين تجاه الشعوب المستعمَرة، فإننا نجد في كلتا الروايتين بأن الأوروبيين كانوا يتصرفون ضد الناس المحليين كأنهم آلهة. وكلتا الروايتان تتناولان الكلام عن هذه التصرفات التعسفية والعدوانية من قبل المستعمِرين الإنجليز والأوروبيين الآخرين.

قد رأينا حتى الآن بأن كلتا الروايتين تناولتا الحديث عن المؤسسات الاستعمارية من الجيوش وإقامة الشركات وبناء السكك الحديدية لنقل الجنود والبضائع من وإلى بلاد الكونغو. وهذه الشركات والسكك الحديدية كان يحتاج بناءها إلى الأيدي العاملة الرخيصة المحلية. وقد ذكرنا فيما سبق بأنه من أجل الحصول على أرباح كثيرة من التجارة في العاج والمطاط وأيضا من أجل إقامة المحطات التجارية وبناء السكك الحديدية، فقد كانوا يجبرون الرجال المحليين على العمل الإجباري، وكانوا يسومونهم سوء العذاب، ويعاملونهم بطريقة بشعة غير إنسانية، ويتصرفون كأنهم آلهة. وإذا قارننا بين الروايتين في قضية هذا التصرّف، فإننا وجدنا مماثلة كبيرة. ففي رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" نجد المأمور المتقاعد يقول للراوي: "كان مفتش المركز الإنجليزي إلها يتصرّف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند، وكانوا يتصرّفون

[1]. Imperialism: Conrad's Heart of Darkness, Jonah Raskin, P. 123-124

كالآلهة. يسخروننا نحن المؤظفين الصغار–أولاد البلد– لجلب العوائد، ويتذمر الناس منا ويشكون إلى المفتش الإنجليزي. وكان المفتش الإنجليزي طبعا هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمِرون الدخلاء"[1].

وحينما ننظر في رواية "قلب الظلام" فإننا نجد بأن كورتز، بطل الرواية، الذي أتى إلى بلاد الكونغو كتاجر في العاج لصالح شركة بلجيكية كبيرة، كتب تقريرا لصالح "الجمعية الدولية لقمع الطقوس البدائية والمتوحشة". ويقول الراوي عن كتابة كورتز لهذا التقرير بأنه "بدأه بالرأي بأنه يجب علينا نحن كبيض، نظرا إلى التقدم الكبير الذي أحرزناه، بأن نظهر أمام هولاء البدائيين في حال خارقة للطبيعة– نتقابلهم بقوة إله"[2]. وفي داخل الصفحات في التقرير يكتب كورتز "اقتلوا جميع المتوحشين"[3]. وفي مكان آخر في الرواية نجد التاجر الروسي الذي كان يعمل لصالح مشروع كورتز يذكر لمارلو بأن كورتز جعل المحليين يقدّسونه كأنه إله، وفي ذلك يقول: "وببساطة أقول إنه هاجم على البلد، قال الروسي نعم، ولكن ليس وحيدا كما أعتقد. وقال شيئا عن القرى حول تلك البحيرة.... وقد جعل كورتز القبائل أن تتبعه، ألم يفعل ذلك؟.... كانوا يقدّسونه"[4].

وهكذا يتبين لنا من هذا كله بأن كلتا الروايتين تتناولان الكلام عن تصرفات المستعمِرين العدوانية ضد الشعوب المقهورة والمستعمَرة. وتتفقان على أن تصرفات المستعمِرين كانت في البلدان المستعمَرة ظالمة وخاطئة وتبدو من تصرفاتهم المطلقة كأنهم آلهة.

---

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 50
[2]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 61
[3]. Ibid, P. 62
[4]. Ibid, P. 69-70

الفصل الثاني

مقارنة بين الروايتين في دعوى المستعمرين لتحضير الشعوب وقضية الاستشراق والصراع الحضاري

نجد في كلتا الروايتين الحديث عن دعوى المستعمرين لتحضير الشعوب الأفريقية المستعمَرة. فالمدارس والكليات التي فتحها المستعمرون والتي كانت تهتم بتعليم اللغة الإنجليزية لأبناء المستعمرات كان الهدف وراءها خلق عقدة النقص لدى المحليين في روح ثقافتهم وتقاليدهم. وإضافة إلى هذه المدارس والكليات، كان المستعمرون قد أرسلوا الجمعيات في القارة الأفريقية وفي جميع المستعمرات الأوروبية للعمل بين المحليين وإدخالهم في الدين النصراني. وقد نجح المستعمرون في محاولتهم إلى حد كبير في غياب الحركة الثقافية المحلية القوية لمقاومة ومحاربة الثقافة الغربية التي كانت تتغلغل في داخل المجتمعات المحلية. نجد في الصفحات العديدة في رواية الطيب صالح ورواية جوزيف كونراد الحديث عن دعوى المستعمِرين لتحضير الشعوب. وقد حاول كلا الكاتبين إظهار زيف هذه الدعوى أثناء سردهما للحكاية التي تظهر آثارا مدمرة على الناس المحليين في ظل الاستعمار. وقد سعى الكاتبان أن يظهرا للناس بأن وراء دعوى المستعمرين لتحضير الشعوب كانت مخططات حثيثة ومؤامرات كبيرة لفرض هيمنتهم الثقافية والسياسية على الشعوب المستعمَرة، واستغلال الموارد الطبيعية الغنية الموجودة في البلدان المستعمَرة، وإدخال عدد كبير من الناس في الدين النصراني. ولنرى الآن كيف مثلت هاتان الروايتان صور وجوانب هذه المهمة لتحضير الشعوب الأفريقية كما ادعى بها المستعمِرون.

ففي رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" نجد بطل الرواية مصطفى سعيد يتذكر قول أحد أساتذته الذي كان يدافع عنه في المحكمة، فيقول مصطفى سعيد: "كان المحامون يتصارعون على جثتي. لم أكن أنا المهم، بل كانت القضية هي المهمة، بروفيسور ماكسول فستركين من المؤسسين لحركة التسلح الخلقي في أكسفورد، وماسوني، وعضو في اللجنة العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البروتستانتية في أفريقيا. لم يكن يخفى كراهيته لي أيام تتلمذي عليه في أكسفورد، كان يقول لي في تبرم واضح: "أنت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوى، فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لأول مرة. ومع ذلك، فها هو ذا يستعمل كل مهارته ليخلصني من حبل المشنقة"[1].

وهنا نرى في هذا الاقتباس المذكور أعلاه بأن أحد أساتذة مصطفى سعيد في لندن، البروفيسور ماكسول فستركين، كان أحد الأعضاء في اللجنة العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البروتستانتية في أفريقيا. وقد عرفنا فيما مضى بأن المستعمِرين قد أخذوا معهم المبشرين الذين مهمتهم كانت نشر الدين المسيحي وإدخال الأفارقة في الدين النصراني.

وهنا نرى أيضا بأن البروفيسور ماكسول فستركين يعترف بوجود المهمّة الحضارية في أفريقيا لتحضير وتثقيف شعوبها. وإذا ما ارتكب مصطفى سعيد جريمة القتل في أوروبا، فهو إن دل على شيء ــ في نظر البروفيسور فستركين ــ فهو يدل على أن مهتمهم الحضارية في أفريقيا فشلت أو لم

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 86

تعد بالفائدة المرجوة منها. ولنرى الآن ماذا كانت تلك المهمة الحضارية للغرب في السودان الذي تسرد تاريخه هذه الرواية.

ففي بداية الأحداث المحيطة بحياة مصطفى سعيد، إننا نجد بأنه في عهد طفولته تعلّم في السودان في المدارس التي كان يديرها الإنجليز. وكانت لغة التدريس فيها الإنجليزية. ونجد بأن مصطفى سعيد قد تفوق فيها وكان يتكلم بها بطلاقة فائقة حتى أنه قد أطلق عليه زملاؤه بـ "الإنجليزي الأسود" كما يقول المأمور المتقاعد: "قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم في السودان قفزا. كان بالفعل كأنه يسابق الزمن وبينما ظللنا نحن بعده في كلية غردون أرسل هو في بعثة إلى القاهرة وبعدها إلى لندن. كان أول سوداني يرسل في بعثة إلى الخارج، كان إبن الإنجليز المدلل وكنا جميعا نحسده، ونتوقع أن يصير له شأن عظيم. نحن كنا ننطق الكلمات الإنجليزية كأنها كلمات عربية. لا نستطيع أن نسكّن حرفين متتاليين. أما مصطفي سعيد فقد كان يعوج فمه، ويمط شفتيه، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها. كان ذلك يملؤنا غيظا وإعجابا في الوقت نفسه. وكنا نطلق عليه بخليط من الإعجاب والحقد "الإنجليزي الأسود". وعلى أيامنا كانت اللغة الإنجليزية هي مفتاح المستقبل. لا تقوم لأحد قائمة بدونها"[1].

ونرى أيضا بأن مصطفى سعيد لما كان صبيا يلعب مع صبيان قريته، فإنه رأى مرة رجلا يركب فرسا أتى إليهم. وكان يحاول أن يذهب بهم إلى المدارس ويقيد أسماءهم في سجلاتها فيتعلمون فيها. وكان ذلك أول عهد بالمدرسة لمصطفى سعيد. وفي ذلك يقول هو بنفسه: "كان

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 49-50

ذلك أول عهدنا بالمدارس، أذكر الآن الناس كانوا غير راغبين فيها. كانت الحكومة تبعث أعوانها – يجوبون البلاد والأحياء، فيخفي الناس أبناءهم. كانوا يظنونها شرا عظيما جاءهم مع جيوش الاحتلال. كنت ألعب مع الصبية خارج دارنا، فجاء رجل على فرس، في زي رسمي، ووقف فوقنا، جرى الصبية، وبقيت أنظر إلى الفرس وإلى الرجل فوقه. سألني عن اسمي فأخبرته. قال لي كم عمرك، فقلت له لا أدري. قال لي: "هل تحب أن تتعلم في المدرسة؟ قلت له: ما هي المدرسة؟ فقال لي: بناء جميل من الحجر وسط حديقة كبيرة على شاطئ النيل، يدق الجرس وتدخل الفصل مع التلاميذ وتتعلم القراءة والكتابة والحساب ... ثم قال الرجل: حين تكبر وتخرج في المدرسة وتصير مؤظفا في الحكومة"[1].

وفي الاقتباسين المذكورين أعلاه نرى بأنه كان من سياسات المستعمرين البريطانيين تعليم أبناء السودان اللغة الإنجليزية وتثقيفهم بالثقافة الغربية. والناس المحليون كانوا يتوجسون خيفة من هذا التعليم الغربي الذي أتى إليهم مع جيوش الاحتلال والاستعمار. وكانوا يخافون على ثقافتهم وعلى تقاليدهم. وفي ذلك يقول الدكتور عبد الرحمن محمد إيدي النور في كتابه " Tayeb Salih's Season of Migration to the North: An Ideo-Literary Evaluation": "ذكرت الرواية (موسم الهجرة إلى الشمال) بأن المؤظف الكولونيالي للتعليم كان يخرج للبحث عن الأطفال لإدخالهم في المؤسسات التعليمية الكولونيالية. لكن الأطفال أنفسهم كانوا خبيرين بمساوئ التعليم الكولونيالي. ولأجل ذلك نرى في الرواية بأن الأطفال كلما رأوا المؤظف الكونيالي للتعليم، فإنهم كانوا يفرون منه.

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 22

ويبدو من هذا بأن أسرهم ربما أخبرتهم عن ذلك فكريا وأيديولوجيا. فكانوا يفرون من الموظفين الكولونياليين للتعليم كلما رأوهم يقتربون منهم"[1].

هذا ما نراه واضحا في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح. أما رواية جوزيف كونراد "قلب الظلام"، فإنها أيضا تذكر هذه المهمة الحضارية التي كان المستعمرون يدّعون بأنهم يقومون بها في الكونغو ولنرى كيف تصوّر الرواية "قلب الظلام" دعوى المستعمرين عن المهمّة الحضارية في أفريقيا. ولعلّ أقوى وأصرح رمز نجده في رواية قلب الظلام عن دعوى تحضير الشعوب، هو فيما يتعلّق بالتقرير الذي كتبه كورتز بطل الرواية لصالح "الجمعية الدولية لقمع الطقوس البدائية التي طلبت منه أن يقوم بإعداد تقرير يرشدها ويوجهها في مستقبل نشاطاتها. وقد كتبه بالفعل، وكنت قد رأيته وقرأته. كان فصيحا، ويشع فصاحة، لكنه كان —كما أعتقد– في غاية من المعاني السامية. سبع عشرة صفحة من الكتابة الدقيقة، والتي لأجل كتابتها إنه وجد فرصة... والتقرير كان عبارة عن الكتابة الرائعة. والفقرة الأولى منه —كما ظهر لي فيما بعد– تبدو لي عظيمة. إنه بدأها بالقول بأنه يجب علينا نحن كبيض، نظرا إلى التقدم الكبير الذي أحرزناه بأن نظهر أمامهم (أمام المتوحشين) في حال خارقة للطبيعة، ونحن نظهر أمامهم بقوة إله"[2].

هذا عما كتبه بطل الرواية كورتز من تقريره عن إصلاح وقمع الطقوس البدائية للأفارقة. وهذا التقرير وما يصاحبه من كلام عن تحضير الشعوب الأفريقية يدخل في تلك الدعاوي عن المهمة الحضارية والثقافية في القارة الأفريقية والتي كان المستعمِرون يتشدّقون بها، ويحاولون بذلك إخفاء

[1]. Tayeb Salih's Season of Migration to the North: An Ideo-Literary Evaluation, Dr. Abdel Rahman Mohd Yeddi Elnoor, P. 249

[2]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 61

ممارساتهم العدوانية، وفرض هيمنتهم الثقافية. وإضافة إلى هذا التقرير نجد في الرواية إشارات أخرى واضحة إلى تعليم المحليين وتثقيفهم. على سبيل المثال في مكان في الرواية يقول الراوي بأنه رأى شخصا أفريقيا أسود يقود إحدى السفن، وفي ذلك يقول بأنه رأى: "رجلا أسود يقود إحدى السفن وهو ينتمي إلى إحدى القبائل الساحلية والذي قام سلفي بتعليمه وتثقيفه"[1]. وأيضا يقول عن رجل أفريقي آخر "وفي حين لآخر كنت أرى إلى المتوحش الذي كان رجل الإطفاء. وكان قد أصبح من ذلك النوع الذي تحسن الآن ... وقد غيره تدريب بضعة أشهر إلى شخص طيب"[2].

وهكذا نرى في كل هذه الاقتباسات بأن المستعمرين كانوا ماضيين في دعواهم لتحضير الشعوب، وكانوا يعتبرون مهمتهم هذه من أنبل وأفضل إنجازات أنجزوها في أفريقيا. وكانوا يدعون بأن مهمتهم هذه غيّرت أقدار الرجال المحليين وأخرجتهم من وحشيتهم وظلامهم. ولعل الحديث عن هذا الموضوع كان غالبا على ذهن كونراد حينما بدأ كتابة الرواية وهو بنفسه كتب إلى ناشر الرواية قائلا: "والعنوان الذي أنا أفكر فيه هو "قلب الظلام"، ولكن السرد ليس كئيبا. والكلام عن جريمه عدم الكفاءة والمنفعة الذاتية المحضة عند القيام بمهمة التحضير في أفريقيا هو فكرة يمكن تبريرها. والموضوع هو موضوع عصرنا بوضوح. إلا أنه لم يتم معالجته بطريقة موضوعية"[3]. و"أتى كورتز إلى أفريقيا متسلحا -كما يبدو- بالأفكار العظيمة. وفي تقريره للجمعية الدولية لقمع

[1]. Heart of Darkness, Joseph Conard, P.54
[2]. Ibid, P. 45
[3]. The Political Novels of Joseph Conrad: A Critical Study, Eloise Knapp Hay, P. 120

الطقوس البدائية، إنه ادعى بأنه يجب علينا نحن كبيض بأن نظهر أمامهم (أمام المتوحشين) في صورة آلهة... لكن الفكرة قد صارت نتنة، فقد كتب في نهاية الصفحة — اقتلوا جميع المتوحشين"[1].

وهكذا وجدنا في رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد بأن المستعمرين كانوا يحاولون أن يجمعوا بين الاستغلال التجاري وبين مهمتهم لتثقيف المحليين. "والمحاولة الكولونيالية كلها كانت – كما كان سائدا في ذلك الوقت– تضم مزجا بين التجارة الاستعمارية والمحاولة لتحسين حياة الأفارقة، كما قال كورتز: "كل محطة لا بد أن تكون رمزا إلى تحسين الأمور نحو أفضل، وإلى مركز للتجارة بالطبع، ولكن أيضا، مركز لتحسين الوضع الإنساني وتحسين الأوضاع والتعليم"... وفي نهاية الأمر، عادة ما تكون المحاولة الكولونيالية استغلالا، وهذا الاستغلال يبدو واضحا في رواية "قلب الظلام"[2].

وهكذا نرى بأن كلتا الروايتين تتناولان الكلام عن دعاوي المستعمرين لتحضير الشعوب وتظهران أيضا زيف هذه الدعاوي من خلال سردهما للحقائق والأحداث التي وقعت بالفعل في المستعمَرات البريطانية، والتي كانت عدوانية ومضرة بمصالح الشعوب المستعمَرة وعاداتها وتقاليدها وثقافاتها. أو كما يقول الدكتور إدوارد سعيد في كتابه "الثقافة والإمبريالية": و"الهدف وراء تحضير أو إدخال النور إلى الأماكن المظلمة هو الحرص على "قتل المتوحشين" الذين ربما لا يكونون متعاونين أو الذين ربما لديهم فكرة المقاومة"[3].

---

1. Joseph Conrad: A Critical Biography, Jocelyn Baines, P. 226.
2. The Cambridge Introduction to Joseph Conrad, John G. Peters, P. 57.
3. Culture and Imperialism, Edward Said, P. 201.

وقد رأينا فيما سبق بأن الملك البلجيكي ليوبولد الثاني قام بإنشاء جمعية باسم "الجمعية الدولية لتحضير أفريقيا الوسطى (International Association for the Civilization of Central Africa)، ونستطيع بأن نفهم من اسم هذه الجمعية بأنها تأسست لأجل تحضير أفريقيا الوسطى. لكن ما حدث بعد ذلك من مظالم ومساوئ (تسرد صورها وقصتها رواية "قلب الظلام"، وكذلك تسرد رواية "موسم الهجرة إلى الشمال صور مظالم المستعمرين في السودان) ضد الشعب الأفريقي في تلك المنطقة على أيدي المستعمِرين هو أمام الجميع.

مقارنة في معالجة قضية الاستشراق والصراع الحضاري في الروايتين

لقد مر بنا فيما سبق بأن الروايتين ناقشتا قضية الاستعمار الأوروبي في القارة الأفريقية وبالتحديد السودان وبلاد الكونغو اللتين شهدتا أسوأ وأخطر مراحل الاستعمار في تاريخهما الحديث والمعاصر. وقد عرفنا من خلال دراستنا عن معالجة الروايتين لتيمة الاستعمار الأوروبي بأن المستعمرين وظفوا واستخدموا جميع الوسائل والطرق والآليات والأدوات الاستعمارية المتاحة لهم لبسط نفوذهم في القارة الأفريقية والآسيوية وفرض ثقافتهم وهيمنتهم على مستعمراتها. وقد بحثنا في الفصل الماضي عن فكرة ومهمة تحضير الشعوب المستعمرة التي اتخذها المستعمرون وأخفوا وراءها ممارساتهم الاستعمارية العدوانية، كما اتخذوها مطية امتطوها للوصول إلى أهدافهم ومصالحهم التي كانت في الغالب تشمل إبقاء السيطرة على الدول الأفريقية والآسيوية، واستنزاف مواردها واستغلال ثرواتها.

ومن أهم وأعم وأنجح الطرق التي استخدمها المستعمرون هو توظيف الدراسات الاستشراقية وأصحابها، وإرسال المكتشفين والرحالين إلى العالم الجديد، والاستفادة من تقاريرهم وكشوفهم، وتوظيف العلماء والباحثين للخوض في دراسة أهل الشرق وعاداتهم وثقافاتهم ومعتقداتهم بغرض البحث عن نقاط الضعف فيها وإضعاف الروح المعنوية والخلقية لدى أهلها والتشكيك فيما لديهم من ثقافات ومعتقدات وأديان. وذلك كله لأجل إقامة الدليل على مبدأهم الاستعماري أو كما يطلق عليه الدكتور محمود حمدي زقزوق بـ "إضفاء طابع التبرير العقلي على المبدأ الاستعماري"، فهو يقول بهذا الصدد: " لم تكن علاقة الاستشراق بالاستعمار-كمايظن-هي مجرد إضفاء طابع التبرير العقلي على المبدأ الاستعماري، بل كان الأمر كما يقوله إدوارد سعيد أيضا أبعد من ذلك وأعمق، فالتبرير الاستشراقي للسيادة الاستعمارية قد تم قبل حدوث السيطرة الاستعمارية على الشرق، وليس بعد حدوثها، فقد كان التراث الاستشراقي بمثابة دليل للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة علي الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها."[1].

والدكتور إدوارد سعيد الذي نقل عنه الدكتور محمود حمدي زقزوق قوله هذا، قد ذهب إلى أبعد من ذلك، وقال إن الشرق بالذات هو شبه اختراع أوروبى، اخترعه وصوّره الأوروبيون لإبقاء تمركزهم الأوروبى وتفوقهم الفكري وفرض الهيمنة الأوروبية على العالم كله من خلال انتهاج نهج وتبني رؤية وفكر وفلسفة ونظام عالمي اخترعوها من عند أنفسهم، فها هو يقول في كتابه: "ولقد كان

[1] .الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري-د-محمود حمدي زقزوق ص-50

الشرق شبه اختراع أوروبي، وكان منذ الزمن الغابر مكانا للرومانس، أي قصص الحب والمغامرات، والكائنات الغريبة، والذكريات والمشاهد التى لاتنسى، والخبرات الفريدة الرائعة"[1].

ومع مرور الزمن رأينا أن الاستشراق لم يلبث أن أصبح مؤازرا للمستعمرين الأوروبيين في سياساتهم الاستعمارية ومساعدا لهم في بسط نفوذهم السياسي والثقافي في العالم المستعمَر. "وفي القرن التاسع عشر والعشرين أصبح للمستشرقين كيان أثقل وزنا، بسبب انحسار نطاق الجغرافيا الخيالية والحقيقية في هذه الحقبة، ولأن العلاقة بين الشرق وأوروبا أصبحت تخضع للتوسع الأوروبى العارم طلبا للأسواق والموارد والمستعمرات، وأخيرا لأن الاستشراق كان قد اكتمل"تحوله الذاتي" من "خطاب علمي"إلى مؤسسة إمبريالية"[2].

ووفقا لقول إدوارد سعيد هذا وأيضا نظرا للأحداث والوقائع في البلدان الشرقية المستعمَرة، فإن الاستشراق إضافة إلى دوره كخطاب علمي وأكاديمي، لعب دورا آخر مهما ومؤثرا لصالح الغرب المستعمر في ممارساته الاستعمارية وتوسيع دائرة نفوذه في العالم كله. وقد صارت غاية المستشرقين وراء دراستهم للشرق وعاداته وثقافاته وتراثه هي بث التشكيك والوهن والارتباك في قيم الشرق وفلسفة حياته، ومن ثم إضعاف روح المقاومة والنضال في أهله. كما أشار إلى ذلك الدكتور مصطفى السباعي في كتابه: "فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شئوونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات، ليتعرفوا إلى مواطن القوة فيها فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموه، ولما تم لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسية كان من دوافع تشجيع الاستشراق إضعاف المقاومة الروحية

[1] Orientalism, Edward Said P. 1.
[2] الاستشراق -د. إدوارد سعيد ص- 173

والمعنوية في نفوسنا وبث الوهن والارتباك في تفكيرنا، وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما في أيدينا من تراث، وما عندنا من عقيدة وقيم إنسانية، فنفقد الثقة بأنفسنا، ونرتمي في أحضان الغرب، وبذلك يتم لهم ما يريدون من خضوعنا لحضارتهم وثقافتهم خضوعا لا تقوم لنا من بعده قائمة"[1].

فالاستشراق لم يكن يعنى بدراسة الشرق وموروثاته الحضارية والثقافية فحسب، بل تجاوز ذلك إلى تقديم خبرات ومساعدات للغرب في محاولاتهم لاستعباد العباد والبلاد، كما أنه صار إحدى الوسائل الناجحة والناجعة في يد الغرب المستعمِر للوصول إلى أهدافه من إضعاف الشعوب وإذلالها وإيقاعها في شراك استعماره. وقد استمر الحال على هذا المنوال، ولم نكد نمض طويلا وبعيدا حتى رأينا أن الاستشراق هو الذي أذاع في العالم كله فكرة التفوق الغربي المستعمِر ودونية الشعوب المستعمَرة. ولعل ما نرى أو نقرأ من فكرة ودعاية "التمركز الأوروبي" أو "المركزية الأوروبية" ما يدل على هذا. وقد أشار إلى هذا الجانب الدكتور محمد نجيب التلاوي"...ثم بدأ الآخر رحلته الاستعمارية نحونا...ثم بدأ الآخر الاستعماري يتشكل في صور جديدة، وتجاوز رغبته في القنص المالي واستغلال الموقع الجغرافي إلى أمور أخرى شكلت خطرا حقيقيا على الذات العربية عندما حاول إحلال لغته...ولما فشل روج للعامية...ثم بدأ الاقتراب من الموروث الثقافي العربي بكم من المستشرقين اندفعوا تحت لواء "المركزية الأوروبية للعالم" لا للاكتشاف والحيدة العلمية الخالصة، ولكن لإثبات تغلغل المد الأوروبي الثقافي في تلك الحضارة العربية بداية من اليونان...وكان من الطبيعي التعرض والتعريض بالتاريخ والعقيدة"[2]. ويكرر الدكتور محمد نجيب التلاوي نفس الأمر في مكان آخر في كتابه "ومن المفترض أن الحضارات حلقات يسلم بعضها بعضا إلا أن (المهماز الأوروبي) هو

[1].الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم-السباعي د-مصطفي ص.21-21
[2] .الذات والمهماز- التلاوي د-محمد نجيب ص،12

الذي حرك الصراع على هذا النحو بما قدمه من صورة استعمارية بشعة، وبما قدمه من رؤية عنصرية تتمثل في المركزية الأوروبية للعالم وهي مركزية تسعى لتهميش دور الحضارات الأخر في العالم"[1].

هذا، وإذا نظرنا في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"، وجدنا في عدد من صفحاتها صور الاستشراق والفكرة الاستشراقية واضحة. وهذه الرؤية الاستشراقية والصور المتخيلة وغير المتخيلة للاستشراق تبدو واضحة في تفوهات وحوارات الأبطال الروائية. ونجد في هذه الرواية نماذج وصور لما قد ذهب إليه إدوارد سعيد والآخرون من الرأي الذي ذكرناه فيما سبق بأن الشرق هو بمثابة مكان للرومانس عند المستشرقين. فها هي آن هموند يقول عنها مصطفى سعيد بطل الرواية: "أبوها ضابط في سلاح المهندسين، وأمها من العوائل الثرية في ليفربول، كانت صيدا سهلا، لقيتها وهي دون العشرين، تدرس اللغات الشرقية في أكسفورد. كانت حية، وجها ذكي مرح وعيناها تبرقان بحب الاستطلاع. رأتني فرأت شفقا داكنا كفجر كاذب. كانت عكسي تحن إلى مناخات إستوائية، وشموس قاسية، وآفاق أرجوانية. كنت في عينيها رمزا لكل هذا الحنين. وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع"[2]. وهنا نرى في هذا الاقتباس المذكور أعلاه بأن آن هموند، الفتاة الأوروبية، كانت تدرس اللغات الشرقية في أكسفورد. وكانت تحن إلى مناخات إستوائية وشموس قاسية. وكل هذا يرمز إلى الشرق ومناخاته وطبيعته. وهي بذلك توحى بوجود فكرة استشراقية في قولها هذا نظرا إلى طبيعة دراستها في أكسفورد.

[1] .الذات والمهماز- التلاوي د-محمد نجيب ص ،43
[2]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 30-31

وتكرر نفس القول ونفس الرؤية ونفس الفكرة شيلا غرينود: "...كانت تقول أمي ستجن وأبي سيقتلني إذا علما أنني أحب رجلا أسود، ولكنني لا أبالي... وتقول لي لسانك قرمزي بلون الغروب في المناطق الإستوائية، كنت لا أشبع منها ولا تشبع مني. تتأملني كل مرة كأنها تكشف شيئا جديدا تقول لي: ما أروع لونك الأسود، لون السحر والغموض والأعمال الفاضحة"[1]. وهذه هي الرؤية الاستشراقية التي تحاول أن تصور أناسا بأجمعهم، ومناطق بأكملها بالسواد والسحر والغموض والأعمال الفاضحة، كأنها هي الواقع وكأنها هي الوتيرة الوحيدة للحياة الغالبة على الناس كلهم. وبقدر ما يحن الغرب إلى الشرق وغاباته وشموسه وآفاقه، فبالقدر نفسه يعتبر أناسه ورجاله متوحشين وسودا.

وهذه الصور الاستشراقية للشرق وأهله مجحفة وغير عادلة ومبنية على تلفيق الحقائق والواقع، وبعيدة كل البعد عن التحولات الفعلية والوقائع التاريخية والأوضاع الحقيقية في البلاد الشرقية. ومن التهكم فعلا أن نرى مصطفى سعيد يلعب دور المستشرق وهو يلفق قصصا ووقائع من الشرق وأهله، وهو يتحدث إلى فتاة أوروبية إيزابيلا سيمور فيقول عن ذلك: "رويت لها حكايات ملفقة عن صحار ذهبية الرمال، وأدغال تتصايح فيها حيوانات لا وجود لها. قلت لها إن شوارع عاصمة بلادي تعجّ بالأفيال والأسود. وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة، وكانت تستمع إليّ بين مصدقة ومكذبة ... وجاءت لحظة أحسست فيها أنني انقلبت في نظرها مخلوقا بدائيا عاريا، يمسك بيده رمحا، وبالأخرى نشابا، يصيد الفيلة والأسود في الأدغال ... وسألتني ما جنسك؟ هل أنت أفريقي أم آسيوي؟ قلت لها: أنا مثل عطيل، عربي أفريقي. نظرت إلى وجهي وقالت: نعم ، مثل أنوف

[1]. نفس المصدر، ص: 126

العرب في الصور. لكن شعرك ليس فاحما ناعما مثل شعر العرب. نعم هذا أنا، وجهي عربي كصحراء الربع الخالي ورأسي أفريقي يمور بطفولة شريرة"[1].

وهنا نرى مصطفى سعيد يعكس الدور ويظهر على سبيل التهكم صورته وصورة بلاده ومجتمعه في صور يقدمها عموما المستشرقون على أنها غابات وحيوانات وأدغال وأن البلاد والشوارع والعواصم كلها غابات ورجالها بدائيون عراة وهم كلهم يخرجون للصيد. ويذكر هنا بأن هذه الفتاة الأوروبية (وهي ترمز إلى الغرب) قرأت ورأت صورة العرب في الصور التي شاهدتها في مكان ما. فمكثت في ذهنها هذه الصور عن العرب والأفارقة.

ويتذكر مصطفى سعيد في مكان في الرواية بأنه ذات مرة ألقى محاضرة في أكسفورد عن أبي نواس وكان الحضور يضم عدد كبيرا من الرجال الذين كانوا قد زاروا الشرق ومكثوا فيه ردهة من الزمن. ومن بين الحضور نجد ذكر المستشرقين وفي ذلك يقول: "وبعد المحاضرة التفوا حولي، موظفون عملوا في الشرق، ونساء طاعنات في السن مات أزواجهن في مصر والعراق والسودان، ورجال حاربوا مع كتشنر واللنبي، ومستشرقون، وموظفون في وزارة المستعمرات، وموظفون في قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية"[2]. وفي هذا القول نجد إشارة إلى جميع الآليات التي استخدمها المستعمِرون، ولقد جمع الطيب صالح هنا بين الجنود والدبلوماسيين والساسة والمستشرقين.

وأيضا نجد في الرواية بأن مسز روبنسون التي جاءت مع زوجها لتودع مصطفى سعيد وهو يغادر مصر للندن، وكان زوجها يهتم بالدراسات الشرقية، وفي ذلك يقول مصطفى سعيد: "كان

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 37
[2]. نفس المصدر، ص: 129

مستر روبنسون يحسن اللغة العربية، ويعنى بالفكر الإسلامي، والعمارة الإسلامية. فزرت معهما جوامع القاهرة ومتاحفها وآثارها. وكانت أحب مناطق القاهرة إليهما، منطقة الأزهر"[1].

هذا عن رواية الطيب صالح، وإذا ما نقرأ وننظر في رواية جوزيف كونراد "قلب الظلام"، فإننا نرى فيها الحديث عن الاستشراق وصوره وأشكاله وأفكاره واضحا أيضا. ورواية جوزيف كونراد في أكثر من مكان في داخل صفحاتها تكرّر وتكرّس تلك الصور النمطية والرؤى الاستشراقية التي تبناها المستشرقون عن الشرق وأهله عموما، وعن أفريقيا وأهلها وأناسها ومجتمعاتها خصوصا. وفي أكثر من مكان في الرواية، نجد الأوروبيين يطلقون على أفريقيا بأنها مظلمة ومتوحشة، وأهلها متوحشون وبدائيون وأكلة اللحوم، وهمجيّون، وهم يعيشون في عالم أسود. وسواد هذا العالم يمتزج بسوادهم، وأحيانا يشك مارلو راوية رواية "قلب الظلام" في كون الأفارقة أناسا مثل الأوروبيين. وهذه هي ذروة ما تصل إليه الرؤية الاستشراقية، وهي إظهار فوقية الغرب والبيض، وإظهار دونية الشعوب المستعمَرة وغير البيض.

وإضافة إلى ذلك كله، نرى الرواية تتحدث عن الرحالين والمكتشفين وهم قد عبروا الأنهار والبحار للوصول إلى أفريقيا للقيام بالكشوف الجغرافية التي سهّلت للمستعمِرين عملية استعمارهم لهذه المناطق التي تم اكتشافها. وتتناول الرواية أيضا الحديث عن ضرورة القيام بمهمة التحضير في أفريقيا كما اعتبرها المستعمرون نظرا إلى تخلفها وتدهورها وظلامها وسوادها.

[1]. نفس المصدر، ص: 27

ومن المهم أن نذكر أن رواية جوزيف كونراد هذه تسلك نفس الدرب، وتنتهج نفس المنهج والفكرة التي اختارها المستشرقون في تقديمهم للصور النمطية عن الشرق وأهله بمن فيهم الأفارقة والآسيويون والأناس الآخرون من المستعمرات الأوروبية. ولقد مر بنا فيما مضى من أقوال منتقدى الرؤية الاستشراقية من أمثال إدوارد سعيد والآخرين بأن الاستشراق هو اختراع أوروبى. فقد اخترع وحدّد بواسطته المستشرقون الصور النمطية عن أهل الشرق ومعتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وأنماط حياتهم وسلوكهم. فإذا ذكر كونراد هذه الصور الاستشراقية عن الأفارقة السود فهو لم يتحدث عن ذلك في فراغ وبدون إحالة إلى المرجعيات الاستشراقية الماضية. فقد اجتمعت لديه خبرات واسعة في المناطق الشرقية التي زارها، وأيضا اكتملت لديه صور وآراء المستشرقين عن أهل الشرق، وذلك عند قراءته لكتابات الرحالين والمكتشفين والصحافين الأوروبيين. ولعل الكاتب النيجيري تشينوا أتشيبي والذي يعرف بـ"أبو الأدب الأفريقي"، والذي قدّم نقدا حادا ولاذعا على رواية جوزيف كزنراد هذه، يشير إلى هذا الجانب حينما يقول في مقال له بعنوان "An Image of Africa" : "كما قلت من قبل فإن كونراد لم يخترع صورة أفريقيا التي نجدها في كتابه. وذلك لأن هذه كانت ولا تزال الصورة السائدة لأفريقيا في متخيلة الغرب، وقد أظهرها كونراد بفضل موهبته الذهنية"[1]. ويقول في مكان آخر: "... وهنا أتحدث عن كتاب يعرض في أفظع شكل، الصور النمطية والإهانات التي عانت منها شريحة من الإنسانية في الماضي آلاما ومظالم لا يمكن وصفها، وهي لا تزال تعانيها في أشكال عديدة وفي أمكنة عديدة اليوم. وأنا أتحدث عن قصّة تثير سؤالا عن إنسانية الرجال السود"[2].

[1]. An Image of Africa, Chinua Achebe, P. 13
[2]. Ibid, P. 11

ولنرى الآن في الرواية لنكتشف تلك الصور النمطية الاستشراقية التي أشار إليها تشينوا أتشيبي والآخرون. وإذ ما يكرّر النقاد بأن جوزيف كونراد أخذ من الرحالين والمكتشفين والمستشرقين رؤيتهم عن الشرق وأهله. وتبنى موقفه من هذه القضية ومن هذه الرؤية بناء على ما رآه وزاره في الشرق، وبناء أيضا على ما قرأه واطلع عليه من كتابات الرحالين والمكتشفين والكتّاب عن الشرق وأهله. وإذا ما نقرأ الرواية من هذا المنظور الاستشراقي، فإننا نجد بأن تشارلي مارلو هو بنفسه يعلن أمام سامعيه بأنه زار بلدانا شرقية كثيرة، وأيضا يذكر بأنه كان معجبا وشغوفا بإلقاء النظر في خرائط العالم عموما، وخرائط أفريقيا بصفة خاصة. فها هو مارلو يسرد حكايته ويقول: "وكما تتذكرون فإنني عدت الآن إلى لندن بعد زيارات عديدة إلى المحيط الهندي، والمحيط الهادئ، وبحار الصين – كلها أماكن في الشرق – لسنوات استغرقت ست سنوات أو ما يقاربها، وكنت أتجول وأتسكع... ولما كنت صغيرا، فإنني كنت مولعا بالخرائط. وكنت أتحملق لساعات في خرائط أمريكا الجنوبية وأفريقيا وأستراليا، وأكون مغرقا في التفكير عن عظمة الكشوف. وفي ذلك الوقت كانت هناك مساحات فارغة على الأرض ... وبعض الأمكنة كانت منتشرة حول خط الإستواء"[1].

وهكذا نرى في هذا الاقتباس المذكور أعلاه بأن رواية الرواية تشارلي هنا يذكر تلك الأماكن والبلدان التي كانت مستعمرات أوروبية في العهد الحديث. وهو أيضا يذكر الزيارات والكشوف والرحلات إلى هذه الأماكن. وهي كلها موضوع مهم من موضوعات الاستشراق الحديث الذي يعنى بدراسة الشرق وتقديم صورها وخرائطها وأيضا الحديث عن الكشوف التي كان يقوم بها الأوروبيون.

[1]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 8-9

هذا الكلام هو عن الأماكن والمناطق الشرقية، والخرائط والمستعمرات الأوروبية، أما فيما يتعلق الأمر بأناسها وشعوبها ورجالها وثقافاتها فإنها تقدّم نفس الصور التي قدّمها المستشرقون. فالرواية تقدّم لنا صور الأفارقة بأنهم متوحشون وبدائيون وهمجيون. ويصل الأمر إلى ذروته حينما يقول مارلو راوية الرواية بأنه بدأ يشكك في كون الأفارقة أناسا مثله ومثل الأوروبيين الآخرين. وهذه الرؤية الاستشراقية تشمل حتى الأنهار والظواهر الطبيعية الأخرى في أفريقيا. فنهر التايمز في لندن يبنى ويقيم وينعّش الإمبراطورية والرجال المقيمين على شاطئيه. أما نهر الكونغو فهو يهدم ويخرب المناطق المحيطة به وأيضا الرجال الذين يعيشون على شاطئيه. "رواية قلب الظلام تقدم صورة لأفريقيا كالعالم الآخر الذي يتناقض مع أوربا وأيضا مع الحضارة ... والكتاب يبدأ بنهر التايمز "الذي هو هادئ وساكن" عند غروب الشمس بعد زمن من الخدمة الجيدة التي قام بها النهر للرجال الذين كانوا قد استوطنوا على شاطئيه"، لكن القصة الفعلية (الواقعية) تقع في نهر الكونغو الذي هو يتعارض مع نهر التايمز. ونهر الكونغو بالطبع ليس نهرا عظيما. إنه لم يقدّم أي خدمة، ولا يتمتع بأي مكانة منذ الزمن القديم. وتخبرنا الرواية بأن الرحلة عبر ذلك النهر تعنى الرحلة إلى الوراء، وإلى البداية الأولى للعالم"[1].

ونظرا إلى هذا الاقتباس المذكور أعلاه نستطيع أن نقول بأنه حتى الأنهار في الشرق تبدو في شكل بدائي وغير صالح لبناء حضارة وإقامة إمبراطوريات. بخلاف الأنهار في أوروبا التي تقدم خيرا كثيرا للرجال الساكنين على شواطئها، والذين هم متحضرون ومتقدمون ويستطيعون بناء إمبراطوريات وحضارات. وهذه الصور عن الأنهار والمظاهر الطبيعية في بلاد الكونغو الموجودة في هذه

[1]. An Image of Africa, Chinua Achebe, P. 3

الرواية تنم عن تلك الرؤية التي تبناها المستشرقون التقليديون والمحدثون. هذا عن الأنهار والأرض ولنرى الآن إلى صورة الأفارقة الذين تقدم صورتهم هذه الرواية.

فالصورة التي تقدمها هذه الرواية عن الأفارقة هي صورة البدائيين والمتوحشين والسود الذين يغلبهم الصمت والجنون. وفي ذلك يقول الراوي: "كنا متجولين في أرض لما قبل التاريخ، وهي الأرض التي كانت تحمل عنصرا لكوكب غير معروف. وكنا نتخيل أنفسنا كأننا كنا أول الرجال الذين كانوا يمتلكون إرثا ملعونا ... والشخص ما قبل التاريخ كان يلعننا، ويعبدنا ويستقبلنا – لا نعرف بالضبط، وكنا قد فقدنا ارتباطنا بما كان حوالينا ... ولم نكن نستطيع أن نفهم، لأننا كنا بعيدين ولم نكن نتذكر، لأننا كنا نسافر في ليالي الأزمنة الأولى، والتي مضت ولم تترك وراءها أية علامة، وأي ذكرى. وحتى أن الأرض لم تكن كالأرض والرجال كانوا – لا – لم يكونوا إلا أناسا– وما الذي يبدو أسوأ من ذلك، هو الشك في أنهم لم يكونوا غير أناس، كانوا يصرخون ويثبون ويدورون. وكانوا يظهرون في وجوه فظيعة، ولكن ما الذي يثير اهتمامك هو تفكيرك في إنسانيتهم – مثل إنسانيتك وتفكيرك بأنه يربطك معهم انتماءك البعيد... وهي أقبح "[1].

وهنا نرى بأن كونراد يصوّر الأراضي الأفريقية وأناسها في تلك الصور التي يقدمها المستشرقون الذين يعتبرون أفريقيا قارة مظلمة لم تعرف نورا ولا تقدما ولا ثقافة ولا حضارة. وهم بذلك يعرضون أفريقيا في صور قاتمة بدائية أمام العالم كلّه. وتصل هذه الرؤية الاستشراقية إلى الدرجة التي يبدأ فيها مارلو يشكّك في إنسانية الأفارقة السود. وفي ذلك يقول تشينوا أتشيبي في مقاله:

[1]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 43-44

"وهنا نفهم معنى رواية "قلب الظلام". ونفهم حقيقة الإعجاب الذي أحرزته الرواية على العقل الغربي، و"ما الذي يثير اهتمامك هو تفكيرك في إنسانيتهم... وهي أقبح"[1].

ويتبين لنا من هذا كله بأن الصور النمطية المتخيلة وغير المتخيلة التي قدّمتها الرواية عن أفريقيا والأفارقة هي نفس الصور التي قدّمها المستشرقون والمستعمِرون في محاولة منهم لتبرير دعواهم لتحضير الشعوب المستعمَرة، وأيضا في محاولة منهم لإبقاء "المركزية الأوروبية" أمام العالم كله، وذلك بترسيخ دونية الشعوب المستعمَرة وتفوق المستعمِرين. وفي ذلك يقول الدكتور إدوارد سعيد في كتابه "الثقافة والإمبريالية": "كونراد ربما لم يكن يستطيع أن يطلب من مارلو إلا أن يقدّم رؤية إمبريالية، نظرا إلى ما كان موجودا في ذلك الوقت ليراه كونراد ومارلو عن غير الأوروبيين. والتحرر كان فقط للبيض والأوروبيين، أما الذين كانوا دونهم، فإنهم كانوا من المتبوعين. العلوم، والتعليم والتاريخ كلها أتت من الغرب. وبالطبع يسجّل كونراد الخلافات بين الإهانات في سلوكيات المستعمرين البلجيكيين والبريطانيين، وهو مع ذلك، لم يكن يرى إلى العالم إلا أنه مقسّم بين دولة أوروبية وأخرى"[2]. وأيضا "والنقطة المهمة التي يتحدث عنها كورتز ومارلو هي في الحقيقة عن سؤدد الإمبرياليين، وسيادة الأوروبيين على الأفارقة السود وعاجهم، وسيادة الحضارة على القارة المظلمة البدائية"[3].

وعند المقارنة بين هاتين الروايتين عن الرؤية الاستشراقية والصور الاستشراقية الموجودة فيها، فإننا نجد بأن كلتا الروايتين قدّمتا صورا استشراقية. وهي تبدو واضحة في تفوهات وحوارات الشخصيات الروائية. وقد عالجت الروايتان كذلك محاولات المستشرقين والمستعمرين لإبقاء المركزية

[1] An Image of Africa, Chinua Achebe, P. 5.
[2] Culture and Imperialism, Edward Said, P.26-27.
[3] Ibid, P. 33.

الأوروبية وفرض السيادة الغربية وإذلال المحليين المستعمَرين، وذلك من خلال تقديم صور نمطية عن الشرق وأهله، تظهرهم في صور البدائيين والوحشيين.

هذا، وإذا قرأنا الروايتين فإننا وجدناهما تعالجان قضية الصراع الثقافي والحضاري أيضا. ورواية الطيب صالح هذه تعد من أهم وأفضل الروايات العربية التي ركّزت على معالجة هذه القضية ضمن ما عالجتها من قضايا ثقافية واجتماعية أخرى. وفي ذلك يقول روجر إيلين في كتابه: "رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح هي أحد الأعمال العديدة في الأدب العربي الحديث التي تعالج قضية تلاقي الثقافات الشرقية والغربية، وخاصة تعالج قضية الصراع بين القيم التقليدية والحديثة حينما ينفق- كما نراها في الرواية- شخص من الشرق المتوسط وقتا في بلد غربي وهو يتعلم فيها"[1].

ومن المعلوم أن رواية الطيب صالح كما ذكرنا فيما سبق ظهرت في الفترة ما بعد الاستعمار، إلا أن أحداثها تقع في الفترة التي كان يمرّ فيها السودان والعالم الشرقي بفترة الاستعمار الأوروبي الغاشم الذي كان يقتل رجاله وأناسه، ويدمّر ثقافاته وتقاليده، ويحاول فرض هيمنته الثقافية والغربية على الشعوب المستعمَرة. وذلك كله في وقت كان وجدان الناس فيه مليئا بالبغض ضد الاستعمار وسياسة المستعمرين في بلادهم. وقد كانوا في صراع دموي حقيقي مع الاستعمار والمستعمرين. ولذا نرى جذوة الانتقام والثأر عند بطل الرواية أشد وأقوى. فبطل الرواية مصطفى سعيد يريد أن يكيل للمستعمرين صاعا بصاع فهو يصيح فيهم: "إنني جئتكم غازيا في عقر داركم، قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ."[2] ويقول في مقام آخر "وأنا أحس تجاههم بنوع من

[1]. The Arabic Novel: An Historical and Critical Introduction, Roger Allen, P.131,133
[2].موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص.100

التفوق، فالاحتفال مقام أصلا بسببي، وأنا فوق كل شئ مستعمر، إنني الدخيل الذي يجب أن يبت في أمره، حين جئ لكتشنر بمحمود ود أحمد وهو يرسف في الأغلال بعد أن هزمه في موقعة بترا، قال له "لماذا جئت بلدي تخرب وتنهب؟ "الدخيل هو الذي قال لصاحب الأرض، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئا، فليكن أيضا ذلك شأني معهم."[1]

وبطل الرواية مصطفى سعيد يعلن عن خوضه في معركة شرسة وصراع واضح مع الغرب المستعمِر ينتقم منه لكل ما قام به من ظلم و عدوان في وطنه الشرقي، فكما أنهم كانوا دخلاء مستعمرين محتلين لبلاده، فهو يريد أن يلعب نفس الدور معهم. ومصطفي سعيد جاء إلي الغرب ليغزوه مثلما غزوا بلاده، "أنا الغازي الذي جاء من الجنوب،هذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيا."[2] وفي ذلك يقول الدكتور مصطفى عبد الغني في كتابه "الإتجاه القومي في الرواية العربية" إن مصطفى سعيد جاء إلى الغرب وتحت جلده عرق عربي عميق لايستطيع الخلاص منه قط، وقد سعى للخلاص من المناخ العربي، لكنه لم يستطع، ومن ثم حاول أن يلعب دور الآخر – الأعلى والأرقى –حاول أن يغزو الغرب، كما غزانا الغرب من قبل....حاول مصطفى إثبات تفوقه على الغرب بأن يعكس الأدوار، فبدلا من أن يغزونا الغرب في عقر دارنا، لأنه أقوى، نقوم نحن بغزو الغرب،نغزو نحن(هو) هذا الغرب في نسائه."[3]

ونجد في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" بأن وراء حقد مصطفى سعيد على الغرب وكراهيته لهم قصة استعمار في العصرالحديث وحروب طويلة دامية في الماضي البعيد. فالاستعمار

[1] موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح ص.99
[2] نفس المصدر، ص.160
[3] .الإتجاه القومي في الرواية العربية-د.مصطفى عبد الغني-ص،98

وتداعياته على العالم الشرقي من أهم الدوافع التي أدت إلى حدوث نضال وصراع طويلين عنيفين، كما أن للموضوع بعدا تاريخيا قديما قدم تاريخ الشرق والغرب. ونجد في صفحات الرواية العديدة ذكر مظالم المستعمرين على الشعوب المستعمرة فهم كانوا يتصرفون في الأمور كيفما يشاءوا..كانوا يظلمون الناس ويقهرونهم ويجبرونهم على دفع العوائد أضعافا مضاعفة."كان مفتش المركز الإنكليزي إلها يتصرف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند. وكانوا يتصرفون كالآلهة، يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد، ويتذمر الناس منا ويشكون إلى المفتش الإنكليزي وكان المفتش الإنكليزي طبعا هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرين الدخلاء"[1].

يقول مصطفى سعيد:"أنا الغازي الذي جاء من الجنوب، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيا، أنا الملاح القرصان وجين مورس هي ساحل الهلاك، ولكن لا أبالي"[2]. وهكذا نجد بطل الرواية يحدد غايته من اقتحامه العالم الغربي ويتبنى موقفه تجاهه، إنه قد صمم على أن يفني حياته في سبيل أخذ ثأره من الشمال الأوروبي. ونرى في الرواية نماذج عديدة للحقد التاريخي على العنف الأوروبي في شعور البطل اللاوعي في الرواية. ومن تلك النماذج قوله هذا "إنني أرى في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة وقعقعة سنابل خيل اللنبي وهي تطأ أرض القدس. البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز، وسكك الحديد أنشئت أصلا لنقل

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص، 57
[2]. نفس المصدر-ص.160

الجنود"[1]. فهذا نموذج للبعد التاريخي للصراع الحضاري الذي يظهر للبطل كأنه كتاب سجلت فيه أوراق الأحداث الماضية للعنف الأوروبي وهو يقلبها صفحة صفحة بداية من العنف الروماني القديم وصولا إلى العنف الاستعماري الأوروبي الجديد. ومن أروع أمثلة لهذا الصراع التاريخي بين الشرق والغرب ما يلفقه مصطفى سعيد من قصص تاريخية و أحداث قديمة موجودة في شعوره اللاوعي حينما يقول لإيزابيلا سيمور:"هذا إذن يفسر كل شئ، يفسر لقاءنا صدفة وتفاهمنا تلقائيا، كأننا تعارفنا منذ قرون، لا بد أن جدي كان جنديا في جيش طارق ابن زياد، ولابد أنه قابل جدتك، وهي تجني العنب في بستان في أشبيلية، ولابد أنه أحبها من أول نظرة، وهي أيضا أحبته. وعاش معها فترة ثم تركها وذهب إلى أفريقيا، وأنت جئت من سلالته في أسبانيا."[2]

هذا عن رواية الطيب صالح، وأما إذا نظرنا في رواية جوزيف كونراد، فإننا وجدناها تسرد أيضا قصة التبشير والتحضير التي كان المستعمرون يدّعون بأنهم يقومون بها في بلاد الكونغو. ونجد في الرواية إشارات واضحة إلى الصراع الثقافي بين الكونغوليين والمستعمرين الأوروبيين والصراع بين القيم الثقافية المحلية في بلاد الكونغو وبين القيم الغربية التي كان المستعمرون يفرضونها على الناس. وفي أكثر من مكان في الرواية نجد بأن المحليين كانوا يتذمرون من المستعمرين وكانوا يحاولون إجلاءهم من بلادهم. ونرى في الرواية بأن بطل الرواية كورتز الذي أتى إلى بلاد الكونغو كتاجر في العاج والمطاط، إلا أنه كان يكتب تقريرا لصالح الجمعية الدولية لقمع الطقوس البدائية. وهذه الجمعية تتشابه مع الجمعيات التبشيرية البروتستانية في رواية الطيب صالح. والتقرير الذي كان قد كتبه بطل الرواية كورتز لصالح هذه الجمعية المذكورة أعلاه يؤكد ما قد ذكرناه فيما سبق بأن المستعمرين قد

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص،99-100
[2]. موسم الهجرة إلى الشمال- الطيب صالح- ص،45

جلبوا معهم جماعة من المبشرين الذين كانوا يقومون بإدخال الناس المحليين في الدين النصراني، وذلك يسهل لهم فرض ثقافتهم على المحليين. وفي أكثر من مكان في رواية جوزيف كونراد نرى تصوير أحداث الصراع والمواجهة بين الكونغوليين والأوروبيين مما قد نتج عن قتل الرجال من كلا الجانبين.

ومن الجدير بالذكر بأننا لا نجد في رواية جوزيف كونراد تلك الحدة للصراع مثل الذي نراه في رواية الطيب صالح. ربما كان ذلك لأسباب تتعلق بالزمان والمكان اللذين ظهرت فيهما هاتان الروايتان، وأيضا لأجل الاختلاف في تجارب كاتبيهما. ظهرت رواية جوزيف كونراد في عهد التصعيد الأوروبي الاستعماري في فترة الاستعمار، وكان كاتبها يعيش في بلد مستعمِر أوروبي، بينما ظهرت رواية الطيب صالح في فترة ما بعد الاستعمار، وكاتبها كان ينتمي إلى بلد جرب الاستعمار وعاناه كثيرا.

الفصل الثالث

مقارنة في مناقشة التناقض في الروايتين وآراء النقاد فيها

قد رأينا حتى الآن فيما مضى بأن كلتا الروايتين عالجتا قضية الاستعمار الأوروبي في أفريقيا، وسردتا تاريخ الاستعمار وأحداثه ووقائعه وتداعياته وآثاره على الدول المستعمَرة. كما عرفنا بأن كلا الكاتبين قد أثارا في روايتيهما قضية الأنا والآخر، ومهمة تحضير الشعوب المستعمَرة، والصراع الثقافي بينهما في العصر الحديث، إلا أن مواقف الكاتبين من القضايا جاءت أحيانا متناقضة ومتباينة، نظرا إلى الغموض والإبهام اللذين يسودان عملها الإبداعي، وأيضا نظرا إلى الأصوات الروائية العديدة التي لها دور كبير في القصتين وبناءهما الفني وروعتهما الأدبية.

فرواية جوزيف كونراد ورواية الطيب صالح كلتاهما تزخران بمواقف من الاستعمار الأوروبي الحديث وأيضا من الاستعمار الحديث للدول الغربية الأخرى، وآلياتها وأدواتها الاستعمارية. ومن الممكن أن يعزى ذلك إلى وجود شخصيات وأصوات روائية عديدة في الروايتين، وأيضا لأن القصة في الروايتين يسردها راويان جرّبا نفس الحياة ونفس المنهج اللذين مر بهما البطلان الرئيسيان في الرواية، إلا أن تجاربهما تختلف وتتباين نظرا إلى تباين الظروف واختلاف الملابسات التي تحيط بحياتهما وطبيعة عملهما. فالبطلان مصطفى سعيد وكورتز في كلتا الروايتين يمران بتجارب مريرة أثناء وجودها في عالم الآخر مما يخلق لديهما مشكلة للتعامل مع ذاتهما وإيجاد تصالح بين قيم عالمهما وعالم الآخر.

ولعل مما يجعل هذا التباين في المواقف من القضايا الاستعمارية والحضارية في الروايتين واضحا هو أن كاتبيهما قد مرا في حياتهما بتجارب عديدة وجربا الاستعمار وتداعياته على الشعوب المستعمَرة. وأيضا لأنهما كانت لديهما معرفة واسعة بالدراسات والتقارير والكتب عن الاستعمار ودعوى التحضير والمظالم الاستعمارية التي كانت تقع في البلاد المستعمَرة. وقد اتخذا مواقف عديدة عن هذه القضايا، وكأنهما قد أرادا بذلك تقديم رؤى عديدة وطرحات فكرية متعددة. والروايتان أيضا تسردان قصصا داخل قصة واحدة، ففيهما قصص البطلين التي يرويها الراويين، واللذين لهما أيضا قصة في الرواية. ونرى كذلك بأن كلا الراويين في كلتا الروايتين يتخذان نفس الطريق التي اتخذها البطلان، إلا أن الراويين كونهما ابني الجيل الثاني لجيل البطلين الأول، فإن تجربتهما مع الأحداث وقراءتهما لها مختلفة اختلافا كبيرا مع تجربة البطلين، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى ما نجده في الروايتين من تباين وتناقض في المواقف. ومن الضروري أن نعرف بأن هذا التناقض لا يصدر دائما من أجل الاختلاف في الرؤى القائمة بين تجارب الراوي والبطل. وذلك لأنه لا يستبعد أن يكون البطلان هما بأنفسهما قد جرّبا هذه التجارب المتناقضة والمتباينة.

هذا، وقد قسّم وجود هذا التباين في المواقف في رواية جوزيف كونراد النقّاد إلى طائفتين. فطائفة ترى بأن جوزيف كونراد يناقض الاستعمار ويعارضه ويدحضه وينقده، وطائفة أخرى ترى بأن جوزيف كونراد يؤيد الاستعمار ويدعمه ويبرّره على أساس أنه يقوم بتحضير الشعوب وتثقيفها. ونظرا إلى هذا التباين نرى الكتّاب يحللون هذا التناقض في نقدهما للرواية. ولعل الناقدة والكاتبة "بنيتا فيرى" تشير إلى هذا الجانب في كتابها " Conrad and Imperialism: Ideological Boundaries and Visionary Frontiers" "فإن القصّة التي تطوّر التمثيلات المتناقضة، وتضم المواقف المتباينة، فهي

تتحدث في أصوات مختلفة إلى قرّائها الذين نجد بينهم النقاد المهنيين الذين، نظرا إلى الكتابات الواسعة التي خلفتها هذه الرواية، أتوا بنظم عديدة للمعاني لشرح مواقفها المتعددة... والإمكانات الثرية للتخمين النقدي واضحة. ويعتبر الكتاب نظرا إلى خضمّ القراءات العديدة التي قدّمت، بأنه يقدّم هجوما على الاستعمار"[1].

وفي كتاب "Romance and Tragedy in Joseph Conrad" لـ والتر إيف وائت، نجد نفس الشيء: "والميزة الكبيرة للأدب العظيم هو أنه يحمل –بالطبع– مستويات عديدة للمعاني. وقصص مارلو لا تقدّم نتائج واضحة لنا، لأنه وإن كنا قد نعرف بعض الاشياء، إلا أننا نرى بأن معظمها يعتمد على تصوراتنا وفهمنا لها. وفي النهاية نجد أنفسنا نخمّن معانيها"[2]. وفي هذين الاقتباسين المذكورين أعلاه نرى بأن النقاد والكتاب يعتبرون بأن رواية جوزيف كونراد هذه تحمل بين طيّاتها مواقف متباينة ورؤى متناقضة. وفيها نجد نوعا من الغموض والضبابية والإبهام. ولفهم معانيها ومواقفها نحتاج إلى أن نقرأها بإمعان ونتصور معانيها ونفهمها وفق قراءتنا للمواقف وفهمنا للواقع والوقائع والحياة. ونخمّن معانيها وتفسيراتها، وكثيرا ما يبالغ التخمين ويخطئ، فيخرج عن المعنى الحقيقي المراد بعبارة عن قضية أو موقف أثارهما الكاتب أو الأديب. هذا عن وجود الأصوات المتعددة في الروايتين ومعانيها وظلالها وألوانها، وضرورة التخمينات النقدية لتبني موقف أو مواقف عن الرواية، أما إذا نرى في القضايا التي تبدو فيها الأمور المتناقضة، فهي عديدة وسأبحث عنها في السطور الآتية.

---

1. Conrad and Imperialism: Ideological Boundaries and Visionary Frontiers, Benita Parry, P. 20.
2. Romance and Tragedy in Joseph Conrad , Walter F. Wright, P. 143.

ويقول ليونارد موس في مقدمة كتابه "The Craft of Conrad": "إن الأصوات المتعددة المتضادة تشير إلى تلاعب المعاكسات وظهور الحقائق المتناقضة والظواهر، واجتماع الهويات المتباينة وعلاقة المتنافسين، واجتماع التعاون والمنفعة الذاتية. "لا شيئ أكثر إيلاما"، كتب كونراد في روايته عن صدمة التناقصات الحادة التي تمزّق فكرنا وأحاسيسنا. وفي كتابات كونراد الأكثر صراحة تتفاعل التناقضات فيما بينها، ليست على أنها أعداء ولكن كشركاء متناقضين. والأثر الجمعي الناتج عن ذلك هو ترويج الثبات والتحول معًا. وهي مليئة بالتكرار والتغير"[1].

والتناقضات التي يشير إليها هذا الكاتب هي الحديث عن الاستعمار والموقفين المتضادين الذين قدمها جوزيف كونراد في روايته. وهي تشمل أيضا الكلام عن عملية تحضير الشعوب التي كان الأوروبيون يدعونها، وتناقضها مع الحقائق والوقائع السائدة في المستعمَرات الأوروبية التي تدحض وتفنّد دعاوى التحضير، إذ نرى الهدف الأساسي والمهم للمستعمرين هو استغلال الموارد، والرجال، والعمال في مستعمراتهم. والتناقضات تشمل أيضا الحديث عن الرؤية الاستشراقية عن أفريقيا وأهلها، وإبقاء التمركز للدور الأوروبي، وإقصاء الدور الإفريقي ودور الأفارقة في الحديث عن أنفسهم وعن بلادهم وعن ثقافتهم وعن وجودهم. ولنرى الآن هذه القضايا في الرواية والرؤى المتناقضة في الرواية حولها وعنها.

ومن القضايا الحادة التي ناقشها جوزيف كونراد في روايته مناقشة حادة وكبيرة، هي قضية الاستعمار الأوروبي في أفريقيا بما فيه الاستعمار البلجيكي لبلاد الكونغو التي زارها جوزيف كونراد

[1]. The Craft of Conrad, Leonard Moss, P. X1

على سفينة تجارية عبرت نهر الكونغو. زار جوزيف كونراد هذه البلاد في عام 1889م-1890م، إلا أنه كتب روايته هذه بعد عشر سنوات تقريبا. وقد حدثت في هذه السنوات العشر أحداث مؤلمة، ووقعت وقائع خطيرة عدوانية في الكونغو في تلك السنوات. ولعلّ جوزيف كونراد كان خبيرا بهذه الأحداث التي طرأت عليها. "كونراد يمزج كل هذه الوقائع المتعاقبة مع ذكرياته الشخصية، وشكّل روايته في صورة صادقة، ولكن في شكل نقد متناقض للاستعمار. كتب كونراد إلى كاننغهام غراهام "الشيوعي الرائد" الذي صار صديقا حميما له، عن حملة روجر كاسمينت عن الاستعمار الأخير. "كان بإمكانه أن يقول أشياء، أشياء حاولت أن أنساها، وأشياء لم أكن أعرفها. وكانت له تجربة سنوات في أفريقيا مثل عدد تجربة شهوري فيها"[1].

وفي أكثر من مكان في الرواية يكرّر مارلو راوية الرواية بأن أوروبا كلها لعبت دورها في خلق شخصية "كورتز"، بطل الرواية الذي يشتغل في التجارة في بلاد الكونغو ويمارس عدوانا وظلما ضد المحليين ويضطرهم للعمل الإجباري ويقطع أيديهم وأرجلهم ويعلق الرؤوس على الأعمدة القائمة أمام بيته. وهي كلها تقدم صورا قاتمة سوداء عن الاستعمار في الرواية، إلا أن مارلو في نفس الوقت يرى بأن الاستعمار يمكن تداركه بالعمل وفقا للفكرة الأوروبية والقيم الأوروبية. ولنرى ماذا يقول الراوي. "وفتح الأراضي وهي في معظمها تعنى استلابها من الذين لهم سحنات مختلفة، أو لهم أنوف أكثر تفلطحا من أنوفنا، ليست هي عملا جميلا إذا ما نفكر فيه كثيرا، ولكن ما الذي يتداركه هو الفكرة ... والفكرة التي أنت تقيمها نصبا، وتركع أمامها وتضحى بنفسك لأجلها"[2].

[1]. Joseph Conrad: An Anthology of Recent Criticism, Edited By Lalitha Ramamurthi, C.T. Indra, P. 32-33

[2]. Heart of Darkness, Joseph Conrad, P. 7

وفي هذا الاقتباس المذكور أعلاه من الرواية نرى رؤيتين متضادتين. الأولى هي أن استعمار البلاد واحتلال الأراضي وسلبها ونهبها، ليست مقبولة بل هي مرفوضة نظرا إلى قبحها وبناء على أنها تسلب من الإنسان إنسانيته، وأيضا لأنها تقسّم الإنسان على أساس لونه ووضعه. والثانية هي أن الاستعمار وإن كان هو مرفوضا على وجه العموم، إلا أنه يكون مقبولا إذا أتى وفقا للفكرة. ولكن السؤال هو ما هي الفكرة التي يراها الراوي وبالتالي جوزيف كونراد كمبرّرة لفكرة الاستعمار؟ أهي فكرة تحضير الشعوب أم هي فكرة الاستعمار البريطاني القائم على الكفاءة والمقدرة على العمل الجاد لتحسين أوضاع الشعوب، بعيدا عن المنفعة الذاتية؟

هذا، وهاتان الرؤيتان تكونان واضحتان في الرواية فيما بعد عندما نرى الراوي يعقد مقارنة بين الاستعمار البريطاني الحديث والاستعمار الروماني القديم. فيقول الراوي بأن الرومان كانوا غزاة ولم يكونوا مستعمرين. وغزوهم لإنجلترا في الزمن القديم كان كله ظلما وعدوانا وانتهاكا للحقوق وسلبا للموارد. أما بريطانيا العظمى في العصر الحديث فإن استعمارها قائم على أساس الفكرة والكفاءة، وهي لا تسلك مسلك الرومان. فإن بينهما بونا شاسعا في عملية الاستعمار والبناء والتحضير. ونظرا إلى موقف ورؤية كونراد هذه، انقسم النقاد إلى طائفتين. طائفة ترى بأن كونراد كان ناقدا على الاستعمار، وطائفة أخرى تراه داعما ومناصرا له. "رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد تناقش موضوعين كما يتجسدان في بطل الرواية كورتز. ولما ظهر الجزء الأول من الرواية في مجلة بلاك وود، فإنه أظهر بوضوح النقد الحاد على الاستعمار، والذي أدى إلى اختلال الحياة الأفريقية "[1]. وأيضا "ويعد إيضاح رؤية كونراد المتعاطفة مع الاستعمار البريطاني نسبيا، فإن الناقد إيان وات يلاحظ بأن

[1]. Joseph Conrad: An Anthology of Recent Criticism, Edited By Lalitha Ramamurthi, C.T. Indra, P. 33

روايات كونراد تقدم لنا صورا عن الاستعمارات العديدة والكثيرة كما اقتضت الأحوال والأوضاع. وفي الأوضاع الاستعمارية التي كانت تضم العنصر العام للغزو والقتل واستعباد المحليين، فإن كونراد كان يعارضها"[1].

وهكذا نرى بأن النقاد هم بأنفسهم اعتبروا رواية جوزيف كونراد والصور والرؤى التي تقدمها متعارضة ومتناقضة ومتباينة. ومن المهم أن نذكر بأن الأمر الذي يجعل النقاد منقسمين إلى جماعتين هو تقديم وتوظيف جوزيف كونراد لنفس الرؤية الاستشراقية التي استخدمها ووظفها المستشرقون من قبل. وأيضا لأنه يقدّم صور الظلم والعدوان والاضطهاد الذي عاناه الشعب الكونغولي في بلاد الكونغو. إلا أن الرواية تنبئنا أيضا عن التدهور الخلقي والجسماني والنفساني للمستعمِرين أيضا، الأمر الذي يؤكد ويؤيد رأى النقّاد بأن جوزيف كونراد يعارض ويناوئ الاستعمار لأنه – في نظره – مخرب للمستعمِرين والمستعمَرين معا.

وفي ذلك يقول بيطرك برانت لينغار في كتابه" Rule of Darkness: British Literature and Imperialism 1830-1914": "تبدو رواية فلب الظلام بأنها تظهر رؤيتان لا يمكن التصالح بينهما. أو كما تقول الكاتبة "بينيتا فيرى" بأنه إذا ما نقوم بالتأويل عن الرواية بأنها رواية تنقد الاستعمار بوضوح، وتؤكد الحضارة الإمبريالية، وكقصّة تكشف وتتورّط معا في تعمية صورة الاستعمار، فإن ذلك يعني بأننا نعترف بتناقضاتها الواضحة. وكونراد كان يعلم بأن قصته مبهمة، ولأجل ذلك فإنه يؤكد على ذلك الغموض عند كل فرصة، ونظرا إلى ذلك، فإن تصوير الرواية بأنها مناوئة للاستعمار

[1]. Ibid, P. 36-37

تبدو غير مرضية كما هي الحال في النقد عليها بأنها مؤيدة للعنصرية ... وفي عالم "قلب الظلام" لا نجد إجابات واضحة. والغموض الذي هو الشكل الرئيسي للظلام هو الذي يسود"[1].

وهكذا نرى بأن هذه الرواية تقدّم صورا متناقضة عن الاستعمار والمستعمرين. ولكن الأمر الذي يثير الاهتمام لدى النقاد هو هل حقا نستطيع أن نجنّب كونراد تورّطه في تصوير الأفارقة والسود والمستعمَرين بنفس الصور النمطية التي صوّرهم بها المستشرقون والمستعمِرون والعنصريون البيض. ولعل أقوى وأعنف رد ونقد على جوزيف كونراد من هذه الناحية أتى من قبل الكاتب النيجيري تشينوا أتشيبي الذي انتقد على جوزيف كونراد "بأنه عنصري"[2]. وينتقد أتشيبي على كونراد بأنه يقدّم صورا نمطية خاطئة عن السود والأفارقة في روايته حتى إنه يشكّك في كونهم أناسا مثله. ويدحض قول النقاد بأن كونراد كان مناوئا للاستعمار ومناهضا له. ويقول بأن الذي نراه في موقف كونراد من نقد على مظالم الاستعمار البلجيكي فإن ذلك أتى وفقا للفكر الليبرالي الإنجليزي السائد الذي كان من الممكن له أن يقدّم مثل هذه الانتقادات، إلا أنه في نهاية الأمر يذهب مذهب المستعمِرين والمستشرقين.

وفي ذلك يقول تشينوا أتشيبي في مقاله: "والنوع من الليبرالية التي يصورها مارلو/كونراد هنا كان له أثر على جميع العقول الكبيرة في ذلك العصر في إنجلترا وأوروبا أو أمريكا. وقد اتخذت أشكالا مختلفة في أذهان الناس المختلفين. لكنها دائما كانت تتجنب المسألة النهائية للمساواة بين البيض والسود. والمستبشر المسيحي الكبير والاستثنائي" ألبرت أسكوتزير" الذي ضحّى بحياته العملية

[1]. Rule of Darkness: British Literature and Imperialism 1830-1914, Patrick Brantlinger, P. 263-264
[2]. An Image of Africa, Chinua Achebe, P. 9

الكبيرة في الموسيقى ومجال الدراسات الدينية في أوروبا لأجل حياة لخدمة الأفارقة في نفس طريق كونراد، يجسّد هذا التناقض وهو يقول: "الأفريقي حقا أخي ولكنه أخي الصغير"... وليبرالية كونراد ربما لا تذهب به إلى ما ذهب إليه أسكوتزير. إنه لا يستطيع أن يستخدم كلمة "الأخ" مهما كان. والمدى الذي يتوقع منه أن يذهب إليه هو حديثه عن الانتماء"[1].

ونجد في الرواية بأن بطل الرواية يصاب بصدمة كبيرة في حياته، ويصبح مريضا ذهنيا وبدنيا ونفسيا وهو في أفريقيا. وقد اعتبر النقاد قضية تدهور كورتز، بطل الرواية، كدليل على إخفاق المهمّة الحضارية التي كان قد ادّعاها المستعمِرون في الظاهر، وفي الباطن كانوا يحاولون استغلال الأراضي الأفريقية. ولكن النقاد الآخرين اعتبروا بأن ظلام أفريقيا هو الذي أغرق كونراد في بحر ظلماته، وجعله ممزقا ذهنيا ونفسيا، وأصابه انشطار الذات جراء عمله هذا، وقد عد تشينوا أتشيبي قول النقاد الأخير بأنه يكرّر رؤية المستشرقين ويدعمها. فها هو يقول "وهذه هي النقطة. أفريقيا صارت مسرحا وخلفية تلغي إنسانية الأفارقة. وأفريقيا هي ساحة حرب ميتافيزيقية خالية من كل الأشكال الإنسانية المعروفة، والتي يذهب إليها الأوروبي المتجول ملقيا نفسه في خطر ... والسؤال الأساسي هو إلغاء الإنسانية من أفريقيا والأفارقة، وهي النظرة القديمة التي كانت موجودة في الماضي ولا تزال تستمر في العالم في الحاضر"[2].

هذا، وقد كتب الدكتور إدوارد سعيد في كتابه "الثقافة والإمبريالية" بأن جوزيف كونراد يقدّم رؤيتين (متضادتين) في روايته. وقد ناقش إدوارد سعيد طرحات جوزيف كونراد الفكرية ورؤيته

---

[1]. Ibid, P.8

[2]. An Image of Africa, Chinua Achebe, P.9

الأيدولوجية عن الاستعمار والاستشراق. وفي نظر إدوارد سعيد جوزيف كونراد يسلك نفس الدرب الذي سلكه المستشرقون الأوروبيون الآخرون الذين سعوا دوما لإظهار تفوق الغرب ودونية الشرق في محاولة منهم لإبقاء وفرض المركزية الأوروبية على العالم المستعمَر. وأثناء كلامه عن رواية جوزيف كونراد هذه في كتابه "الثقافة والإمبريالية" يقول الدكتور إدوارد سعيد بأن جوزيف كونراد يقدم رؤيتين في روايته. "وهكذا فإن الشكل السردي عند كونراد أمكنه من أن يشتق منظومتين ممكنتين أو رؤيتين في عالم ما بعد الاستعمار الذي تلا عالمه. إحدى هاتين المنظومتين تتيح للمشروع الإمبريالي القديم المجال الكامل ليلعب دوره بالصورة التقليدية، أي ليصوغ العالم كما رأته الإمبريالية الرسمية الأوروبية أو الغربية، ثم ليعزز ذاته بعد الحرب العالمية الثانية. قد يكون الغربيون قد غادروا مستعمراتهم القديمة في أفريقيا وآسيا جسديا، غير أنهم احتفظوا بها ليس فقط كأسواق، بل أيضا كمواقع على الخريطة الفكرية التي مضوا يمارسون الحكم عليها أخلاقيا وفكريا ... أما المنظومة الثانية فإنها أقل إثارة للاعتراض. وهي ترى نفسها كما رأى كونراد سردياته الخاصة: محلية (مرتبطة) بزمان ومكان معينين، لا هي صحيحة دونما شرط ولا هي مؤكدة دونما قيد. فكونراد، كما قلت سابقا، لا يعطينا شعورا بأنه يستطيع أن يتخيل بديلا متحققا تحققا تاما للإمبريالية. فالمحليون الذين كتب عنهم في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية كانوا عاجزين عن الاستقلال. ولما كان قد تخيل فيما يبدو بأن الوصاية الأوروبية كانت معطى بديهيا، فقد عجز عن التكهن بما ستؤول إليه الأمور حين تبلغ هذه الوصاية نهايتها"[1].

[1]. Culture and Imperialism, Edward Said, P. 27-28

وفي هذا الاقتباس المذكور أعلاه نرى بأن جوزيف كونراد يؤكد ويدعم فكرة التمركز الأوروبي في العالم، وروايته هذه تدعم ذلك الفكر الغربي السائد الذي يحاول فرض نفسه وثقافته وسياسته على الشعب المستعمَر. وهذه الهيمنة الغربية لا ترى بديلا لوجودها وهيمنتها على العالم كله.

هذا عن رواية جوزيف كونراد، أما إذا ما نقرأ رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" فإننا نرى بأنها أيضا تقدّم صورا مختلفة وعديدة للاستعمار الأوروبي. ففيه نرى الاستعمار الذي أتى بماكينات جديدة ومدارس وبواخر ومستشفيات في السودان، وأيضا في نفس الوقت قتل ودمر آلافا من الناس، واستغل موارد الدولة استغلالا كبيرا. وهذا التناقض في المواقف يظهر أيضا في تفوهات وحوارات الأبطال الروائية التي غالبا ما تتناقش وتتحاور في قضايا الاستعمار في السودان وتداعياته على أهله. وأيضا نجد في الرواية نقدا حادا على سياسات الحكام والموظفين الحكوميين في فترة ما بعد الاستعمار. فإذا كان الاستعمار الأوروبي إبّان حكمه الغاشم في السودان نشر الفساد، وظلم الناس، واضطهدهم لصالح منافعه ومصالحه، فإن الناس المحليين بعد وصولهم إلى سدة الحكم في فترة ما بعد الاستقلال قاموا بظلم الناس وسلب حقوقهم ونشر الفساد في المجتمع الأفريقي.

ويظهر هذا التناقض أيضا في مواقف الأوروبيين من نشر ثقافة التعليم والتحضير في السودان. والرواية تذكر في أكثر من مكان بأن الأوروبيين لما فتحوا المدارس والكليات التعليمية في السودان، فإنهم كانوا يريدون بذلك فرض ثقافتهم وهيمنتهم الثقافية والتعليمية، وإعداد عناصر محلية تؤدي الدور الذي كانوا يريدون إنجازه. وعلى الرغم من حصول المحليين على التعليم والثقافة إلا أن الأوروبيين كانوا ينظرون إليهم بنظرة ازدراء وكراهية.

فمصطفى سعيد على الرغم من أنه تعلم في المدارس الإنجليزية في السودان، ومصر، وإنجلترا حتى أصبح أستاذا في الاقتصاد في جامعة لندن إلا أنه لم يتمكن من أن يكسب احترام وود الأوروبيين له. فأستاذه البروفيسور فستركين يقول له: "أنت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في أفريقيا عديمة الجدوى، فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لأول مرة"[1].

هذا، وقد أظهر مصطفى سعيد هذا التناقض في مواقف الأوروبيين من أفريقيا والأفارقة جليا واضحا حينما يقول بأن الأوروبيين كانوا يريدون من تعيينه أستاذا في جامعتهم وتزويجه إحدى بناتهم بأنهم يقومون بإقامة العدل والمساواة، ودفن الكراهية والحقد والعنصرية، إلا أن مصطفى سعيد يظهر زيف دعاويهم حينما يقارن أقوالهم ودعاويهم هذه بممارساتهم اليومية تجاهه وتجاه الأفارقة الآخرين. "كأنهم أرادوا أن يقولوا: انظروا كم نحن متسامحون ومتحررون! هذا الرجل الأفريقي كأنه واحد منا! إنه تزوج ابنتنا ويعمل على قدم المساواة، هذا النوع من الأوروبيين لا يقل شرا، لو تدرون، عن المجانين الذين يؤمنون بتفوق الرجل الأبيض في جنوبي أفريقيا وفي الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة"[2]. ولنقارن هذا بما يقوله مصطفي سعيد في مكان آخر في الرواية: "لو أنني طلبت استئجار غرفة في بيت أحدهم، فأغلب الظنّ أنه سيرفض، وإذا جاءت ابنة أحدهم تقول له إنني سأتزوج هذا الرجل الأفريقي، فسوف يحس حتما بأن العالم ينهار تحت رجليه"[3].

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 86
[2]. نفس المصدر، ص: 55
[3]. نفس المصدر، ص: 86

ونجد هذا التناقض أيضا واضحا في الحوارات بين الراوي والموظفين الحكوميين الآخرين في السودان، وأيضا بينه وبين الشخوص الروائية الأخرى. فموقف الراوي من القضايا الوطنية في فترة ما بعد الاستعمار تبدو متناقضة ومتضادة مع أقوال ومواقف مصطفى سعيد. فمصطفى سعيد الذي كان يرى بأن الأوروبيين هم غيرنا وضدنا. وهم الذين استعمروا بلادنا واستعبدوا رجالنا وقتلوا إخواننا وسلبوا أموالنا إلا أن الراوي يقول : "... مثلنا تماما، يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحلمون أحلاما بعضها يصدق وبعضها يخيب. يخافون من المجهول، وينشدون الحب، ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد. فيهم أقوياء، وبينهم مستضعفون..."[1].

وإذا كان البطل مصطفى سعيد يرى بأن مهمة الأوروبيين لم تكن إلا شرا مستطيرا وسما قائلا حقنوا به التاريخ. "نعم يا سادتي، إنني جئتكم غازيا في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ"[2]. أما الراوي فإن موقفه يتعارض مع موقف البطل فهو يرى بأن البلاد والمؤسسات الإدارية والتعليمية ستكون لنا في فترة ما بعد الاستعمار. فلماذا نحن لا نحاول أن نبني بلادنا ومستقبلنا من جديد؟ ولماذا نحن لا نرفض سياسة تسميم حاضرنا ومستقبلنا؟ فهو يقول: "وكونهم جاءوا إلى ديارنا، لا أدري لماذا، فهل معنى ذلك أننا نسمّم حاضرنا ومستقبلنا؟ إنهم سيخرجون كما خرج قوم كثيرون من بلاد كثيرة. سكك الحديد، والبواخر والمستشفيات والمصانع، والمدارس، ستكون لنا، وسنتحدث لغتهم، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل، سنكون كما نحن، قوما عاديين. وإذا كنا أكاذيب فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا"[3].

[1]. موسم الهجرة إلى الشمال، الطيب صالح، ص: 7
[2]. نفس المصدر، ص: 87
[3]. نفس المصدر، ص: 47

وتناقش الرواية أيضا سياسات الحكام المحليين المتناقضة في فترة ما بعد الاستعمار. فإذا الذين كانوا يحاربون الإنجليز لأجل تحرير بلادهم من براثن الاستعمار، لما حصلوا على الاستقلال فإنهم بدأوا يكدّسون الأموال، ويتورطون في الفساد، وينخرطون في أعمال الفساد والنهب لأجل الحصول على منافع ومصالح ذاتية لا لأجل مصالح قومية أو وطنية. وفي ذلك يقول المأمور المتقاعد. "وتأكد من كلامي هذا يا بنى. ألم تستقل البلد الآن؟ ألم نصبح أحرارا في بلادنا؟ تأكد أنهم احتضنوا أرذال الناس. أرذال الناس هم الذين تبوأوا المراكز الضخمة أيام الإنكليز. الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوأوا أعلى المراتب أيام الإنجليز"[1]. فرواية الطيب صالح كما هي تسرد أحداث الاستعمار، ومقاومة ومحاربة المحليين له، فإنها في نفس الوقت تذكر مساوئ الموظفين المحليين بعد أن حصلت البلاد على الاستقلال، وتحررت الشعوب من نير الاستعمار، وعدوانه وظلمه. ويظهر التناقض هنا في هذه المواقف العديدة، والأصوات العديدة في الرواية. فإذا كانت الرواية تخلّد وتمجّد دور المحليين وتضحياتهم في محاربة الاستعمار، فهي من جانب آخر تنقدهم على ممارساتهم الخاطئة من فساد إداري ومالي لأجل كسب المنافع الذاتية.

وعند المقارنة بين الروايتين في قضية التناقض نجد بأن كلتا الروايتين تتناولان هذه القضية، وتقدمان صورا ومواقف عديدة، تكون متطابقة حينا، وحينا آخر متناقضة. "موسم الهجرة إلى الشمال تُظهر بشكل مباشر تلك البيئة والتناقض والإبهام الموجود في رواية كونراد، لكنها بشكل غير مباشر تشير إلى التناقضات الواضحة في محاولات كونراد للنقد على ثقافة الاستعمار في كتابه"[2]. ويقول الدكتور محمد شاهين في مقاله عن رواية الطيب صالح: "... أولا: العلاقة بين الراوي

[1] .نفس المرجع، ص: 50-51

[2] . Reinscribing Conrad : Tayeb Salih's Season of Migration to the North, R.S. Krishnan, P. 7

والشخصيات تتسم بالتناقض والالتباس، كما يظهر ذلك من الاختلاط عند الراوي بين تضامنه مع مصطفى سعيد، ورفضه لهذا التضامن والتعاطف معه"[1]. ويتبين لنا من هذا كله بأن كلتا الروايتين عالجتا هذه القضية، وقدمتا صورا عديدة، ومواقف عديدة عن الاستعمار وسياسات المستعمِرين في البلاد المستعمَرة، وأوضاعها في ظل هذا الاستعمار الأوروبي.

[1]. Tayeb Salih and Conrad, Mohammad Shaheen, P. 161

الفصل الرابع

الأساليب الكتابية والأدبية والتقنيات السردية والفنية في الروايتين والمقارنة بينهما

لقد قمنا حتى الآن في هذا الباب بعقد المقارنة بين الروايتين عن القضايا الرئيسية والتيمات الهامة الموجودة فيها، والتي عالجتها الروايتان معالجة دقيقة وصريحة. وقد ذكرنا فيما مضى تناول الروايتين لقضايا الاستعمار وتداعياته، ومعالجتهما لقضية الاستشراق والصراع الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب، والتبشير والمهمة التحضيرية للغرب في أفريقيا، وفي المستعمرات الأوروبية الأخرى.

وقد كانت مقارتنا حتى الآن مركزة على التيمات والقضايا التي تناولتها الروايتان، ولم نتحدث عن التقنيات الفنية والأساليب السردية التي اختارها كلا الروائيين. والآن سنبحث في هذا الفصل عن الأشكال الفنية والسردية الموجودة في الروايتين. وبما أن كلتا الروايتين تعدان من أروع النماذج الروائية الحديثة التي تقدّم نموذجا صارخا وواضحا لتوظيف أهم أدوات الفن المبتكرة، وأفضل تقنيات السرد الحديثة، فإن قراءة دقيقة لأساليبهما الأدبية، وتقنياتهما الفنية، توضّح لنا طرقا جديدة في عالم السرد الروائي الحديث. وسوف نقوم بدراسة هذه التقنيات والأساليب في الروايتين، وبعقد المقارنة بين توظيفهما لهذه الأدوات التقنية لبناء شكلهما الفني.

تأثر الطيب صالح بجوزيف كونراد في بناء الشكل الفني للرواية

ولقد ذكرنا في الفصول الماضية بأن الطيب صالح بنفسه اعترف في أحد حواراته بأنه تأثر بجوزيف كونراد من ناحية بناء الشكل الفني والسردي للكتابة الإبداعية والأدبية. وهذا الاعتراف يحمل في ثناياه إشارة إلى ما اختاره الطيب صالح واعتمده من أدوات وتقنيات السرد الروائي والقصصي الحديثة. فكما أن جوزيف كونراد يبدأ روايته "قلب الظلام" بالاسترجاع، ويبدأ فيها الراوي سرد حكايته أمام مجموعة من الرجال الأوروبيين الذين كانوا معه على متن قارب يرسو على نهر التايمز. ويفعل الطيب صالح في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" نفس الشيئ، فالراوي في رواية الطيب صالح هو أيضا يبدأ الرواية بسرد حكايته أمام مجموعة من الرجال من قريته على ضفاف نهر النيل. وعند كلا الكاتبين عنصر التشويق وإثارة مخيلة القراء لقراءة ومتابعة تتابع الأحداث في الروايتين طاغيتان على أساليبهما.

وحتى أن الشخصيات الروائية وكلامها عن بطل الرواية أثناء صفحات الروايتين تبدو متشابهة. ففي كلتا الروايتين نجد أن البطلين الرئيسيين فيهما، كورتز ومصطفى سعيد، شخصيتان مدورتان، وليستا مسطحتين. ونتعرف على قصة حياتهما وتجاربهما وأخبارهما من تفوهات وحوارات الشخوص الروائية الأخرى. على سبيل المثال نجد في رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد الشخص الروسي وشخصية المدير العام للشركة، والعملاء التجار الآخرين، الذين يذكرون للراوي تشارلي مارلو قصّة وأخبار بطل الرواية "كورتز". ونجد نفس الشئ في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"، فبطل

الرواية مصطفى سعيد هو شخصية مدورة كذلك، ويكمل لنا سرد قصة حياته وأخباره للراوي شخصيات روائية أخرى مثل شخصية محجوب، والمأمور المتقاعد والآخرون.

وكذلك نجد في كلتا الروايتين شخصيتين بارزتين بالإضافة إلى شخصية البطلين. وهما شخصية الراويين في كلتا الروايتين، واللذين يتخذان نفس الطريق التي يتخذها البطلان في حياتهما، وهما يكادان يبدوان متشابهين معهما إلى حد كبير. فنجد راوية الرواية "موسم الهجرة إلى الشمال" يسافر إلى لندن، ويدرس في إحدى جامعاتها، ويمكث فيها سبع سنوات مثل رحلة مصطفى سعيد إليها ودراسته فيها. وفي رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد نرى الراوي يسافر إلى الكونغو، ويمضى فيها شهورا ويلتقي مع بطل الرواية "كورتز" فيها.

وحتى أن الظواهر والمعالم الطبيعية في الروايتين، ووصفها وتصويرها تكاد تكون متشابهة ومتقاربة إلى حد كبير. ففي رواية جوزيف كونراد نجد ذكر "نهر الكونغو" في بلاد الكونغو. والنهر يشكّل إحدى الخلفيات الأساسية التي تدور حولها أحداث الرواية. وفي رواية الطيب صالح نرى نهر "النيل"، والذي يلعب دورا كبيرا في أحداث الرواية وسيرورتها، ويلعب دورا حيويا في بناء التشكيل السردي للرواية. وشئ آخر يجمع بين الروايتين من حيث رسم الشخصيات هو وجود خطيبة كورتز بطل رواية قلب الظلام في لندن، إلا أننا نراه بأنه بنى علاقات مع النساء الأفريقيات أثناء عمله في الكونغو وفترة مكوثه فيها. ويتشابه هذا مع حياة مصطفى سعيد السوداني الأفريقي الذي يذهب إلى لندن، ويبني علاقات حميمة وجنسية مع الفتيات الأوروبيات، إلا أنه لما يعود إلى وطنه السودان، فهو يتزوج من فتاة سودانية.

رسم وتصوير الشخصيات في الروايتين

هذا، وسنرى الآن كيف قام كلا الروائيين برسم وتصوير الشخصيات الروائية في أعمالهما، وكيف تطورت شخصية البطلين في الروايتين، وماذا كان دور الراويين فيهما، وماذا كان دور الشخصيات الروائية الأخرى. وعند المقارنة بين هذين العملين، نرى بأن كلا البطلين في الروايتين شخصيتان مدورتان، وليستا شخصيتين مسطحتين، كما ذكرناه فيما سبق. وهذا يعني بأن هاتين الشخصيتين تطورتا تطورا طبيعيا وتدريجيا حسبما اقتضته الظروف، ووفقا لمتغيرات وتطورات الأحداث في القصّة.

ونجد كذلك بأن البطلين في كلتا الروايتين طاغيان على الشخصيات الروائية الأخرى وعلى أحداث الرواية ووقائعها التي تدور حول هذين البطلين. والشخصيات الروائية الأخرى في الرواية تبدو كأنها خلقت أو أدخلت في القصّة لسرد حكاية البطلين أو لتأدية دور الأشخاص المساعدين لدور الراويين داخل القصّة. والطيب صالح بنفسه يشير إلى هذا الجانب في حوار له مع خلدون الشمعة حيث يقول: "عندما بدأت أرسم الشخصية لم أكن أقصد أن تكون شخصية مصطفى سعيد طاغية إلى هذا الحد... ثم لم ألبث أن أحسست بهذه الشخصية تكبر وتحاول أن تطغى، فحاولت أن أحيطها بشخصيات فرعية. ولكن أعتقد أن تجربتي لم تنجح. وأعتقد –ككاتب– بالرغم من كل ما لقيت هذه الرواية من نجاح، أن من الأشياء التي أحس بأنني لم أنجح فيها هو أنني لم أكبح جماح أو

شكيمة هذه الشخصية بحيث يكون دورها واضحا من سياق القصة نفسها. ولكن لعل هذه ليست المشكلة الرئيسية في الرواية"[1].

ويشير الدكتور محمد شاهين إلى هذا الجانب في مقاله بعنوان "Tayeb Salih and Conrad": "وكان الطيب صالح خبيرا بالمشكلة التي كان يواجهها أثناء رسمه لشخصية مصطفى سعيد حينما كان يكتب رواية "موسم الهجرة إلى الشمال". ونظرا إلى شخصية مصطفى سعيد فيما بعد هو يقول لخلدون الشمعة بأنه بدون عمد ترك المجال لمصطفى سعيد إلى أن أصبح طاغيا، ويعني هذا بأنه كان يتطور تدريجيا خارج الحدود التي حدّدها له في البداية. واعترف الطيب صالح بأنه فشل في كبح جماح شخصية مصطفى سعيد كي يكون دوره واضحا في سياق القصة. ولمعالجة هذا الوضع إنه حاول أن يحيطه بشخصيات فرعية... وهنا يذكّرنا الطيب صالح بقول إي إيم فورستر الذي كتب في كتابه "Aspects of the Novel" (عناصر الرواية) بأن الشخصيات تظهر حينما نحرّكها، لكنها تظهر وهي مليئة بروح الثورة... وهي تحاول أن تحيا حياتها، وبالتالي هي تنخرط في خيانة ضد المشروع الرئيسي للكتاب، هي تهرب، وتخرج من سيطرتنا، وتخلق لنفسها وجودا داخل القصة، وأحيانا تكون غير متطابقة معه. وإذا ما سمحت لمثل هذه الشخصيات الحرية الكاملة فإنها يمكن لها أن تمزّق الكتاب قطعة قطعة. وإذا ما حاول أحد أن يسيطر عليها فإنها تنتقم لنفسها بنفسها بالموت أو بتدمير نفسها. وفورستر يقترح لنا طريقتين لحل هذه المشكلة: الأولى هي استخدام أنواع عديدة من الشخصيات، والثانية هي تتعلق بالفكرة. والطيب صالح يستخدم كما قال هو الطريقة الثانية. وقد

[1]. الطيب صالح: عبقري الرواية العربية، مجموعة المؤلفين، ص: 125-126

خلق هو شخصيات فرعية مثيرة للاهتمام كمحجوب، والذي هو يذكّرنا بالمدير المساعد في رواية "قلب الظلام"[1].

وهكذا نرى بأن الشخصيتن الرئيسيتين في كلتا الروايتين تبدوان طاغيتين في كلا العملين، إلا أن الشخصيات الفرعية فيهما تلعب أدوارها لجعل القصة والحكاية ممتعة ومثيرة للاهتمام، وأيضا لغرض تقديم الأفكار والحكايات تدريجيا، بدلا من أن تقديمهما والتعبير عنها خالية من عنصر التشويق والاهتمام. وإضافة إلى ذلك، نجد بأن للراويين دورا مهما وبارزا في القصّتين، فهما اللذان يعرّفان لنا البطلين، ولهما قصة داخل قصة الروايتين. وهما أيضا يسافران مثل بطل الروايتين إلى عالم "الآخر"، ويجرّب أيام حياتهما في البيئة والجو والثقافة التي أمضى فيها البطلان حياتهما.

استخدامهما لتقنيات السرد الحديثة

وعندما نبحث في الروايتين عن استخدامهما لتقنيات السرد الحديثة من الاسترجاع وتيار الوعي والحوارات والمونولوج الداخلي، فإننا نجد بأنهما متشابهتان ومتقاربتان إلى حد كبير من ناحية توظيفهما لهذه التقنيات السردية الحديثة. وقد مر بنا فيما سبق قول الطيب صالح الذي ذكر فيه بأنه تأثر بجوزيف كونراد من حيث البناء الشكلي والفني للقصة أو الرواية في حوار له مع أحد الكتاب. وقد ذكر الطيب صالح جوزيف كونراد من بين الأدباء الأوروبيين الكبار الذين تأثر بهم من أمثال شكسبير وفوكنر والآخرون.

[1]. Tayeb Salih and Conrad, Mohammad Shaheen, P. 167

هذا، ونجد في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" بأن الطيب صالح يستخدم نفس التقنيات السردية التي استخدمها جوزيف كونراد في روايته "قلب الظلام". فإذا كانت تقنية الاسترجاع هي الأداة السردية التي بدأ بها جوزيف كونراد روايته التي يسرد حكايتها تشارلي مارلو راوية الرواية، وهو جالس على متن قارب، ويقص قصة تجاربه في بلاد الكونغو أمام مجموعة من الأوروبيين، فإن الطيب صالح يختار نفس التقنية السردية ليبدأ بها روايته التي نرى فيها راويها يسرد قصته في أوروبا بعد عودته منها أمام مجموعة من الرجال من أهل قريته، ومن بينهم يرى مصطفى سعيد الذي حضر مع الرجال. وإذا كان الحوار بين الشخصيات الروائية وتقنية المونولوج الداخلي للبطل والراوي في رواية جوزيف كونراد يشكلان جزءا مهما من تقنيات السرد وبناء الشكل السردي لتلك الرواية، فإننا نجد نفس الشيئ في رواية الطيب صالح. ونجد في كلتا الروايتين بأن البطلين والراويين والشخصيات الروائية الأخرى فيهما كثيرا ما يختارون المونولوجات الداخلية كأداة للتعبير عما في نفوسهم من آراء وأفكار وأحاسيس وخيالات.

وكذلك نرى في رواية قلب الظلام بأن جوزيف كونراد يؤظف تقنية "تيار الوعي" ليذهب بواسطتها إلى أغوار القضايا التي يعالجها، ويسرد الأحداث وفقا لما قد تنهال على الكاتب أو الأديب من أفكار عن الأحداث والوقائع الماضية أو الحاضرة، ويجمع بها بين الماضي والحاضر والمستقبل. وتقنية تيار الوعي تعطي للرواية وبالتالي للكاتب فسحة واسعة ليتجول بواسطتها في أحداث الماضي ووقائعه واستكشاف الشئ الذي كان خافيا أو مبطنا وراء الأحداث والوقائع الظاهرة. مثلا نرى في رواية "قلب الظلام" بأن الراوي (أو الكاتب) يوظف تيار الوعي ويسرد الأحداث في الحاضر، لكنه يذهب إلى الوراء في الماضي الغابر. هو يتكلم في الحاضر عن الاستعمار

البلجيكي والأوروبي في أفريقيا، لكنه يذهب بعيدا عن ذلك، ويصل إلى عهد الرومان في الزمن القديم، ويعقد مقارنة بين الاستعمار الجديد والاستعمار الروماني في العهد القديم. ونجد نفس الشئ في رواية الطيب صالح بأن بطل الرواية مصطفى سعيد يجد نفسه في محكمة أوروبية بين الأوروبيين، ويفكر في ذاته ونفسه وفي شرقه. ويذهب به تيار فكره إلى الماضي البعيد، فيقول إنني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة، وطقطقة خيل اللنبي وهي تطأ أرض القدس.

وهكذا نرى بأن كلا الكاتبين قاما باستخدام وتوظيف التقنيات السردية والفنية الحديثة لسرد الأحداث والوقائع. والشئ الذي يبعث على العجاب في قصّة كونراد هو أن هذا الكاتب كتب هذه الرواية في وقت لم تكن فيه التقنيات السردية التي وظفها كونراد عامة. وهو بذلك يعتبر من روّاد هذا الشكل الروائي والسرد الفني. والأدباء والكتاب الكبار الذين أتوا بعده مدينون له بذلك.

هذا، وقد أضفى وجود هذه التقنيات السردية في الروايتين على روعتهما الأدبية وجمالهما الفني والشكلي. وتمكن الكاتبان بواسطتها من سرد الأحداث في أسلوب جميل، وتقديم رؤاهما وأفكارهما في صورة رائعة. ومن جانب آخر وجود هذه التقنيات السردية في كلتا الروايتين أعطت كلا الكاتبين ذلك العنصر الذي كان يبتغيانه لتقديم أصوات عديدة متطابقة حينا، وحينا آخر متباينة، وطرح آراء وأفكار مختلفة في الروايتين، الأمر الذي أحيانا يؤدي إلى ما كان يكتنف كلا العملين من غموض وإبهام وتناقض وتباين في بعض المواقف أو بعض الرؤى.

ومن الجدير بالذكر بأن كلا الروائيين يسردان قصة داخل قصة، قصة البطل وقصة الراوي. ففي رواية كونراد نجد الراوي يسرد حكاية سفره إلى الكونغو، تماما مثل ما يفعله الطيب صالح في

روايته التي نرى فيها الراوي يسرد حكاية رحلته ودراسته في أوروبا. "كونراد تقنية سردية تقوم بسرد قصة داخل قصة الرواية. نجد في الرواية راويا غير معروف يتحدث عن بحار إنجليزي للبحرية التجارية اسمه مارلو (تشارلي كما كانت عمته تطلق عليه هذا الاسم)، والذي يسرد من جانبه تجربته التي عانى فيها كثيرا في الكونغو التي سافر إليها كقبطان شاب في خدمة شركة تجارية بلجيكية. مارلو هو الراوي الرئيسي لكونراد، وصوت سردي له"[1].

[1]. Joseph Conrad: An Anthology of Recent Criticism, Lalitha Ramamurthi, C.T. Indira, P. 37

الأسلوب الأدبي والتصوير الفني في الروايتين

لقد تحدثنا فيما مضى عن رسم الكاتبين للشخصيات الروائية وملامحهما وأدوارها، بما فيها رسم وتصوير وتقديم شخصية البطلين والراويين في كلتا الروايتين. وتكلمنا أيضا عن التقنيات السردية الحديثة التي استخدمها كلا الكاتبين لسرد الأحداث والوقائع، وبناء القصة وشكلها الفني والتكنيكي. والآن سوف نحاول أن نبحث في الأساليب الأدبية والكتابية لكلا الكاتبين في تصويرهما للشخصيات والأحداث والطبيعة والحياة.

نحن نعرف بأن هذين العملين الروائيين كليهما شهيران في العالم الروائي الحديث، وبين الأوساط الأدبية ليس فقط لأجل معالجتهما لقضية الاستعمار والاستشراق والهوية وقضايا العالم المعاصر، بل أيضا لأجل تقديمهما وتوظيفهما لتقنيات السرد الحديثة مما أدى إلى بلورة خطاب سردي روائي حديث يتناول القضايا الراهنة في أسلوب قصصي وفني مبتكر. ونرى في الروايتين بأن الكاتبين لم يهتما فقط بالمضمون والفكرة فقط، بل أيضا بالشكل الفني وتقنية السرد الحديثة. ويبدو من أسلوبهما في الكتابة بأن اللغة والشكل يحتلان مكانة كبيرة عندهما. والطيب صالح هو بنفسه يقول في حوار له مع أحد الكتّاب: "والأسلوب بالنسبة لي هو استعمال اللغة التي هي المادة الخام. اللغة مهمة جدا جدا. في فترة، عندنا في العالم العربي، حصل لبس بين الشكل والمضمون. بعض الكتاب ظنوا تغليب المضمون يعني إهمال الشكل حتى أن كتابا كبارا جيدين يكتبون بأسلوب أقل ما يقال فيه أنه فيه الكثير من الإهمال، اللغة مهمة جدا جدا"[1].

[1]. الطيب صالح: عبقري الرواية العربية، مجموعة المؤلفين، ص: 120-121

ويتجلى لنا من هذا بأن اللغة عند الطيب صالح مهمة جدا، ومهم كذلك الأسلوب الفني المبتكر الذي أتى به الطيب صالح، واعتنى به اعتناءا كبيرا. ويقول الدكتور رجاء النقاش عن أسلوب الطيب صالح في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال": "نجد فيها كل شئ يحتاج إليه الفن العظيم. فعبارتها الجميلة تعتمد على لغة عربية في غاية الصفاء والأناقة والشاعرية. إنها لغة ناصعة مصقولة مغسولة في نهر من الفن المقدس. لغة غنية بالأضواء والظلال، مليئة بالشحنات العاطفية، بعيدة عن التبذير والثرثرة"[1]. ويقول أيضا: "وفي الرواية فوق ذلك كله امتزاج خصب أصيل بين فضائل الرواية التقليدية مثل التصوير الدقيق العميق للشخصيات، وخلق الحكاية الممتعة التي تشد الأنفاس حتى النهاية، وفضائل الرواية الحديثة التي تعتمد على تصوير الأحلام والعالم الداخلي للإنسان. لقد استخدم الطيب صالح في روايته جميع الأساليب المناسبة في مزيج فني سليم خصب وأصيل. ولذلك جاءت روايته في النهاية رواية عصرية من ناحية، ولكنها من ناحية ثانية تفوح بالأصالة والارتباط بالتراث الروائي العربي والعالمي معا"[2].

ويتبين لنا من هذين الاقتباسين المذكورين أعلاه بأن اللغة التي استخدمها الطيب صالح في روايته تتسم بالشاعرية والأناقة والأصالة. وإذا ما نقرأ رواية جوزيف كونراد فإننا نجد عنده نفس الشئ. فإننا نراه هو أيضا يهتم باللغة اهتماما كبيرا. ولغته أيضا تمتاز بالشاعرية وأسلوبه يمتاز بدقة التصوير والملاحظة. "والذي يثير الاهتمام أكثر في الرواية هو الأسلوب الذي يسرد الحكاية فيها. وهذا السرد عميق جدا إلى الحد الذي يبدو العمل كأنه شعر"[3]. ويقول الدكتور رجاء النقاش عن

[1]. نفس المرجع، ص: 94
[2]. نفس المرجع، ص: 98
[3]. Joseph Conrad: An Anthology of Recent Criticism, Lalitha Ramamurthi, C.T. Indira , P.38.

أسلوب الطيب صالح في سرد الأحداث ووصف الطبيعة والحياة في روايته "وفي هذه الرواية قدرة خارقة على الوصف، فالقرية السودانية مرسومة في هذه الرواية بريشة عبقرية، إنك تحس بها لوحة حية نادرة بكل ما فيهما من بشر وحيوانات ونباتات وليال مقمرة وليال مظلمة، إن هذا كله يتحرك ويصرخ من فرط حيويته وحرارته. وفي الرواية شاعر كبير، أدواته الفنية في منتهى الطاعة لرؤاه الفنية الفياضة"[1].

وهكذا نرى بأن كلا الكاتبين استخدما لغة موحية تتسم بالرصانة والأصالة والشاعرية لسرد وتصوير الأحداث والوقائع، ولرسم الصور والظلال والألوان، ولتقديم الرؤى والأفكار في صور فنية رائعة وجميلة.

[1]. الطيب صالح: عبقري الرواية العربية، ص: 95

الخاتمة

قد وصلت بحمد الله وفضله إلى نهاية هذا البحث، فله الحمد والشكر اللذان يليقان بجلاله سبحانه وتعالى.

وقد اطلعت من خلال دراستي هذه المتواضعة على القضايا المهمة في الخطاب الروائي الحديث، والتي عالجتها روايتا هذين الكاتبين الإنجليزي والعربي، وقامتا بمناقشتها في قالب روائي ثري، وفن سردي ممتاز. ومن أهم القضايا التي أثارتها هاتان الروايتان – رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح ورواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد- هي قضايا الاستعمار والإمبراطورية، والاستشراق والمهمة التحضيرية، والصراع الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب، بالإضافة إلى تطرّقهما للحديث عن الهوية الثقافية وانشطار الذات حين تصطدم بالآخر.

كما أنني وقفت من خلال بحثي هذا المتواضع على كثير من التيارات الفكرية والأيدولوجية والثقافية التي تزخر بها هاتان الروايتان، والتي تنم عن وجود نقاش حاد وكبير بين الأوساط الأدبية والنقدية إزاء القضايا التي أثارتها هاتان الروايتان. وقد تبين لي أيضا من خلال تتبع مسارات الدراسات الأدبية والنقدية وتوجهاتها الكفرية والفنية في العصر الحديث في العالمين العربي والغربي بأن هاتين الروايتين هما من أروع وأفضل وأجود الروايات العربية التي ظهرت في العصر الحديث، وقدّمت رؤى وأفكارا عديدة، وآراء ومواقف مختلفة، وصوّرت كل هذه القضايا بكل أبعادها ودلالاتها وزواياها وجوانبها تصويرا رائعا.

وخلص البحث إلى نتائج هامة:

- استنتج البحث بأن الروايات العربية والإنجليزية في العصر الحديث قامت بسرد أحداث الاستعمار ووقائعه، وويلاته وتداعياته على العالم المستعمِر والمستعمَر كليهما. وأظهرتا عما قد عانت منه الشعوب المستعمَرة من صراعات ومظالم، وظلم وعدوان جراء الاستعمار الأوروبي في البلاد الستعمَرة.
- أبرز البحث بأن كلا الكاتبين جوزيف كونراد والطيب صالح هما يُعدّان من الأدباء العباقرة في تاريخ الأدب الإنجليزي والعربي الحديث، لما لإنتاجاتهما الأدبية من قيمة أدبية وفنية، ليست فقط لأجل خطورة ما يعالجانهما في أعمالهما من قضايا وموضوعات، بل أيضا لأجل ما قام به من تقديم واستخدام وتوظيف أدوات سردية وفنية مبتكرة وحديثة في إنتاجاتهما الأدبية والإبداعية.
- أظهر البحث بأن الطيب صالح وجوزيف كونراد كلاهما زارا بلدانا شرقية وغربية عديدة، وجرّبا الاستعمار وآلياته في المستعمَرات البريطانية عن كثب، وشاهدا معاناة الشعوب المستعمَرة المقهورة في ظلّ ذلك الاستعمار، مما أمدتهما بمواد خصبة وكثيرة لكتابة روايتهما "موسم الهجرة إلى الشمال" ورواية "قلب الظلام" لسرد أحداث هذا الاستعمار وتداعياته على الشرقي المستعمَر. وقد قام الكاتبان بسرد تلك الأحداث الاستعمارية واستغلال المستعمرين للثروات الطبيعية المحلية واستنزاف موارد البلاد المستعمَرة.
- وقد اتضح لي من البحث بأن كلتا الروايتين "موسم الهجرة إلى الشمال" و"قلب الظلام" تسردان أحداث الاستعمار، ووقائعه ومؤسساته وآلياته في القارة الأفريقية، فإذا كانت رواية جوزيف كونراد تتناول قضية الاستعمار البلجيكي الأوروبي في بلاد الكونغو في عهد حكم الملك

البلجيكي ليوبولد الثاني، فإن رواية الطيب صالح تتناول قضية الاستعمار البريطاني في السودان. وإضافة إلى ذلك تظهر رواية جوزيف كونراد دور القوى الأوروبية الأخرى بما فيها بريطانيا في دعم وتأييد الحكم الذاتي للملك البلجيكي في الكونغو.

- كشف البحث بأن كلتا الروايتين بالإضافة إلى سرد قضية الاستعمار العسكري والسياسي، تسردان أيضا قضية الاستعمار الفكري والغزو الثقافي من قبل القوى المستعمِرة للبلدان الشرقية والمستعمَرة، وذلك بهدف فرض هيمنتها الثقافية الغربية عليها، وإضعاف ما لدى الشعوب المستعمَرة من مقومات ومكونات ثقافية، وزرع بذور التشكيك في فائدتها.
- وقد تبين لي من البحث بأن المستعمِرين الأوروبيين استخدموا جميع الوسائل والآليات الاستعمارية المتاحة لهم بغرض فرض هيمنتهم الثقافية على الشعوب المستعمَرة. ولتحقيق هذا الهدف إنهم وظفوا الاستشراق والمستشرقين لبث الوهن والتشكيك في جدوى المعتقدات والتقاليد المحلية وإحلال الثقافة الغربية محلها.
- أظهر البحث بأن كلا الكاتبين تطرّقا أيضا إلى الحديث عن الصراع الحضاري والثقافي الذي نشأ بين العالمين جرّاء الاستعمار الأوروبي وتداعياته، وأيضا لأجل العدوان والظلم الذي مارسه المستعمِرون ضد الشعوب المستعمَرة، مما كان له أثر واضح وبعيد في تصرفات وحوارات وتفوهات الشخوص الروائية والأبطال الروائية تجاه عالم "الآخر" الغربي.
- واستنتج البحث بأن كلا الكاتبين –جوزيف كونراد والطيب صالح– وإن كانا قد كتبا روايتهما في فترة زمنية مختلفة، حيث رأينا فيما مضى بأن رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" نشرت في فترة ما بعد الاستعمار، ورواية جوزيف كونراد "قلب الظلام" تم نشرها في عهد

التصعيد الاستعماري الأوروبي في البلدان الشرقية العديدة، إلا أن معالجتهما لتيمة الاستعمار وتداعياته، وتناولهما لقضايا التحضير والاستشراق والرؤية الغربية عن العالم الشرقي، ومناقشتهما لقضية الهيمنة الثقافية الغربية على الشعوب المستعمَرة في ظل الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث تبدو متشابهة ومتقاربة.

- أوضح البحث بأن كلتا الروايتين قدّمتا صور الاستعمار في جميع أشكاله ومظاهره، وسردتا أحداثه من جميع نواحيه وجوانبه. وأحيانا أتت مواقف الكاتبين أو البطلين أو الشخوص الروائية الأخرى في الروايتين متباينة ومتناقضة نظرا إلى الأصوات العديدة والرؤى المتعددة الموجودة في الروايتين، والتي جاءت لأجل محاولة الكاتبين لتقديم رؤى وصور ومواقف عديدة من الاستعمار.
- واستنتج البحث بأن الروايتين كشفتا اللثام عن زيف دعاوى المستعمرين لتحضير الشعوب المستعمَرة، والتي لم تكن إلا ستارا تستروا به لتحقيق أهدافهم التي كانت تتمثل في استنزاف موارد البلاد، واستغلال ثرواتها الطبيعية، وتتمثل أيضا في فرض الهيمنة الثقافية الغربية عليها. وأظهرت الروايتان بهذا الصدد بأن دعوى المهمة الحضارية لم تكن إلا قناعا تقنع به المستعمرون لتحقيق أهدافهم الاستعمارية.
- وكشف البحث أيضا بأن كلتا الروايتين تبدوان متشابهتين من حيث توظيفهما للأدوات والتقنيات السردية الحديثة، وأظهر البحث بهذا الخصوص مدى وإمكانية تأثر الطيب صالح بجوزيف كونراد من حيث البناء الشكلي والفني لروايته، علما بأن الطيب صالح هو بنفسه اعترف بهذا التأثر الفني بأعمال جوزيف كونراد بما فيها روايته "قلب الظلام".

- وأبرز البحث بأن كلا الكاتبين قاما بتوظيف تقنيات السرد الفني والأدبي الحديثة من الاسترجاع، وتيار الوعي، والمونولوج الداخلي، والحوار في صور تبدو متقاربة ومتشابهة، إلا أن الفوارق التي تظهر أحيانا في رسمهما للشخصيات الروائية وتصويرهما لأدائهما الفني والشكلي والتوظيفي في الروايتين، فهي فوارق بسيطة نشأت بحكم الاختلاف في الفترة الزمنية التي كتبا فيها عملهما.

فهذه هي النتائج التي توصلت إليها بعد دراستي المتواضعة في الموضوع، وأرجو أن أكون قد وفقت في رصد القضايا والصور والرؤى عن الاستعمار والاستشراق ومهمة التحضير، والصراع الثقافي والحضاري، والتي تناولتها هاتان الروايتان وقمت بمعالجتها في دراستي هذه المتواضعة. ولله الحمد والشكر على ذلك.

المصادر والمراجع

- إبراهيم، الدكتور عبد الله عبد الرزاق، المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م.
- أنطونيوس، جورج: يقظة العرب، دارالعلم للملايين، بيروت، الطبعة الثامنة، 1987م
- البدوي، أحمد محمد: الطيب صالح، سيرة كاتب ونص، الدار الثقافية للنشر.
- بيضون، د.جميل: تاريخ العرب الحديث، دار الأمل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1991م
- التلاوي، محمد نجيب: الذات والمهماز، دراسة التقاطب في صراع روايات المواجهة الحضارية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2007م
- حراز، د. السيد رجب، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة، 1970م.
- حسون، الدكتور علي: تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة 1994م
- حسين، د.مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي بالقاهرة، الطبعة الثانية، 1938م
- الحلاق، محمد راتب:دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، اتحاد الكتاب العرب 1997م
- الخطيب، محمد كامل، المغامرة المعقدة: مقدمة في تاريخ العلاقة بين المجتمع الغربي والعرب كما يظهرها الفن الروائي في نشوئه وتطوره، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، 1976م.

- رياض، الدكتور زاهر، استعمار أفريقية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م.
- زقزوق، د.محمد حمدي :الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة
- الزيات، أحمد حسن: تاريخ الأدب العربي، كتب خانه رشيديه ،اردو بازار، جامع مسجد، دلهي-6
- السباعي، الدكتور مصطفى: الاستشراق والمستشرقون مالهم وماعليهم، دار الوراق للنشر والتوزيع، المكتب الإسلامي
- السروجي، الدكتور محمد محمود، دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، 1998م.
- سعيد، إدوارد، الثقافة والإمبريالية- ترجمة كمال أبوديب، دار الآداب، الطبعة الرابعة 2014م.
- سعيد، د. إدوارد: الاستشراق، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى 2006م
- سلام، الدكتور محمد زغلول، القصة في الأدب السوداني الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، 1970م.
- سليمان، نبيل: وعي الذات والعالم دراسات في الرواية العربية، دار الحوار للنشروالتوزيع، سورية، الطبعة الأولى 1985م
- شاكر، د. إسماعيل أحمد الياغي والشيخ محمود، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، دار المريخ للنشر، الرياض، 1995م.
- شلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة.
- شوقي الجمل، الدكتور عبد الله عبد الرزاق إبراهيم والدكتور، تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م.

- الشيخ، د. رأفت غنيمي، في تاريخ العرب الحديث، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1996م.
- صالح، الطيب: موسم الهجرة إلى الشمال، دار العين للنشر 2004م
- صبحي، محي الدين والآخرون: الطيب صالح، عبقري الرواية العربية، دار العودة، بيروت 1981م
- ضرار، صالح ضرار، تاريخ السودان الحديث، مكتبة دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1968م.
- طرابيشي، جورج : شرق وغرب رجولة وأنوثة : دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر ،بيروت، الطبعة الرابعة 1997م
- طرابيشي، جورج: المثقفون العرب والتراث: التحليل النفسي لعصاب جماعي،رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى فبراير،1991م
- طربين، الدكتور أحمد: تاريخ المشرق العربي المعاصر، المطبعة الجديدة، دمشق، 1986،1985م
- عبد الغني، د. مصطفى : الإتجاه القومي في الرواية العربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978م
- العدوي، الدكتور إبراهيم أحمد، يقظة السودان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- عليان، د.حسن: العرب والغرب في الرواية العربية، دار مجدلاوي للنشروالتوزيع، عمان 2004م
- عمر، عمر عبدالعزيز: محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصرالحديث،دار المعرفة الجامعية.

- عودة، د. محمد عبد الله، والخطيب، إبراهيم ياسين: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع ،عمان، 1989م
- غازي، د. خالد محمد، الطيب صالح: سيرة وشهادات من محطات العمر، وكالة الصحافة العربية (ناشررون)، 2015م
- القدال، محمد سعيد، تاريخ السودان الحديث 1820 – 1955، مركز عبد الكريم مير غني، 2002م.
- لوتسكي، فلاديمير: تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار الفارابي ، الطبعة التاسعة،2007م
- مباركي د.جمال: الغرب في الرواية العربية الحديثة، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراة العلوم في الأدب العربي الحديث، 2008-2009
- محمود، الدكتور حسن أحمد، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1986م.
- المعوش، د.سالم: صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1998م
- هريدي، الدكتور فرغلي على تسن، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر: الكشوف- الاستعمار- الاستقلال، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، إسكندرية، 2008م.

باللغة الانجليزية:

- Abu Lughod, Ibrahim: Arab rediscovery of Europe: A study in cultural Encounters, Princeton University Press, Princeton, New jersey 1963
- Roger, Allen: The Arabic Novels: An Historical and Critical Introduction, Syracuse University Press, 1982.
- Badwi, M.M.: A short history of Modern Arabic Literature, Clarendon Press,Oxford,1993
- Baines, Jocelyn: Joseph Conrad: A Critical Biography, Weidenfeld and Nicolson, 1960.
- Brantlinger, Patrick: Rule of Darkness: British Literature and Imperialism, 1830-1914, Cornell University Press, 1988.
- Conrad, Joseph: Heart of Darkness, Penguin, 2007.
- Conrad, Joseph: Lord Jim, Penguin, 2007.
- Conrad, Joseph: Youth, Penguin, 2011.
- Cookey, S.J.S: Britain and the Congo Question: 1885-1913, Longmans, 1968.
- David Renton and others: The Congo: Plunder and Resistance, Zed Books, London and New York, 2002.
- El-Enany, Rasheed: Arab Representations of the Occident; East- West Encounters in Arabic fiction, Routledge 2006

- Elnoor, Dr. Abdel Rahman Mohd Yeddi: Tayeb Salih's Season of Migration to the North: An Ideo-Literary Evaluation, Board of Islamic Publication, New Delhi, 2003.
- Hay, Eloise Knapp: The Political Novels of Joseph Conrad: A Critical Study, The University of Chicago Press, 1972.
- Indira, Lalitha Ramamurthi, C.T.: Joseph Conrad: An Anthology of Recent Criticism, edited by, Pencraft International, Delhi, First Edition, 1998.
- Kreckel, Sarah: Colonialism in the Congo: Conquests, Conflict and Commerce, 2005.
- Meyer, Bernard C.: Joseph Conrad: A Psychoanalytical Biography, Princeton University Press, 1967.
- Meyers, Jeffrey: Joseph Conrad: A Biography, Cooper Square Press, New York, 2001.
- Moss, Leonard: The Craft of Conrad, Lexington Books, 2011.
- Nkrumah, Kwame: Challenge of the Congo, International Publishers, New York, 1969.
- Ntalaja, Georges Nzongola: The Congo from Leopold to Kabila: A People's History, Zed Books, London and New York, 2002.
- Parry, Benita: Conrad and Imperialism: Ideological Boundaries and Visionary Frontiers, The Macmillan Press Ltd. 1983.

- Peters, John G.: The Cambridge Introduction to Joseph Conrad, Cambridge University Press, 2006.
- Raskin, Jonah: The Mythology of Imperialism, Dell, 1973.
- Said, Edward: Culture and Imperialism, Vintage books, a division of Random House, Inc. New York.
- Said, Edward: Culture and Imperialism, Vintage Books, London, 1994.
- Said, Edward: Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography, Harvard University Press, 1966.
- Said, Edward: Orientalism, Penguin Books, India 2001
- Stape, John: The Several lives of Joseph Conrad, Arrow Books, 2007.
- Stearns, Jason k.: Dancing in the Glory of the Monsters: The Collapse of the Congo and the Great War of Africa, Public Affairs, 2012.
- Stewart, J I M: Joseph Conrad, Longmans, 1968.
- Wright, Walter F: Romance and Tragedy in Joseph Conrad, Russell and Russell, New York, 1966.

الجرائد والمجلات:

- صحيفة "الشرق الأوسط" الصادرة من لندن العدد 11203، 31 يوليو 2009م
- صحيفة "المدينة" الصادرة من المملكة العربية السعودية، 25 فبراير 2009م
- صحيفة "الوطن" الصادرة من قطر العدد 5648، 19 فبراير 2011م

- صحيفة "عكاظ" 10 أبريل 2009م العدد 15567.
- كتابات سودانية العدد 47 أبريل 2009م، ص: 153
- مجلة العربي: العدد 576-شوال 1427هـ- نوفمبر 2006م

باللغة الانكليزية:

- An Image of Africa, Chinua Achebe, Research in African Literatures, Vol. 9, No.1, 1978.
- British journal of Middle Eastern Studies, Vol.1 (1993), Published by: Taylor and Francis, Ltd.
- Conrad's Critique of Imperialism in Heart of Darkness, Hunt Hawkins, PMLA, Vol. 94, No. 2, March 1979.
- Imperialism: Conrad's Heart of Darkness, Jonah Raskin, Journal of Contemporary History, Vol. 2, No. 2, Literature and Society (Apr., 1967).
- International Journal of Middle East Studies, Vol. 25, No.2 (May, 1993) Published by: Cambridge University Press.
- Journal of Arabic Literature, Vol.1 (1970), Published by: BRILL.
- Middle East Journal, Vol. 30, No.1 (winter, 1976), Published by: Middle East Institute.

- Reinscribing Conrad: Tayeb Salih's Season of Migration to the North, R.S. Krishnan, North Dakota State University, The International Fiction Review, Vol. 23, No 1 and 2, 1996.
- Season of Migration to the North and Heart of Darkness: African Mimicry of European Stereotypes, Ebrahim A. El-Hussairi, International Research Journal Of Arts and Humanities, Vol. 38, No. 38, 2010.
- Tayeb Salih and Conrad, Mohammad Shaheen, Comaprative Literature Studies, Vol. 22, No. 1, 1985.
- The Empire Renarrated: Season of Migration to the North and the Reinvention of the Present, Saree S. Makdi, Critical Inquiry, Vol.18, No. 4, 1992.

المواقع الإلكترونية:

- www.al-mostafa.com
- www.4shared.com
- www.jstor.org

محتويات البحث

رقم التسلسل	العناوين	رقم الصفحة
1	**المقدمة**	1
2	**الباب الأول: نبذة مختصرة عن حياة جوزيف كونراد والطيب صالح وأعمالهما**	7
3	**الفصل الأول: جوزيف كونراد: مولده ونشأته ورحلاته وأهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته**	8
4	مولده ونشأته	9
5	أهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته	17
6	**الفصل الثاني: نبذة مختصرة عن أعماله الأدبية**	22
7	الفترة الأولى	22
8	رواية "حماقة ألماير"	23
9	الفترة الوسطى	27

10	الفترة الأخيرة	**37**
11	**الفصل الثالث: الطيب صالح: مولده ونشأته، دراسته ورحلاته**	**39**
12	مولده ونشأته	**40**
13	دراسته ورحلاته	**41**
14	ولوعه باللغة الإنجليزية وإحباطه في الحصول على التعليم العالي	**42**
15	رحلاته	**45**
16	**الفصل الرابع: أهم العناصر التي ساهمت في تكوين شخصيته ونبذة عن أعماله**	**51**
17	أثر الثقافة الغربية فيه	**54**
18	عبقرية الطيب صالح	**58**
19	أعماله الأدبية	**65**
20	**الباب الثاني: رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح وسرد الاستعمار البريطاني في السودان**	**67**

21	**الفصل الأول: تاريخ السودان في العصر الحديث**	**68**
22	علاقة السودان بالعرب	**70**
23	السودان تحت الحكم المصري	**71**
24	الحكم المصري في السودان: تحديث السودان والعمل للقيام بالوحدة الوطنية	**73**
25	الثورة المهدية	**75**
26	**الفصل الثاني: حملة استرداد السودان من أيدي المهديين والحكم الإنجليزي فيه حتى الاستقلال**	**80**
27	الحكم الثنائي في السودان أم سياسة "الغرم على مصر والغنم للإنجليز"	**82**
28	الثورات ضد المستعرين واستقلال السودان	**83**
29	**الفصل الثالث: رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" وسرد الاستعمار البريطاني في السودان**	**90**
30	الاستعمار البريطاني في السودان	**93**
31	تصوير الاستعمار الأوروبي والصراع الحضاري في الرواية	**100**

32	**الفصل الرابع: الاستعمار البريطاني في السودان والغزو الثقافي**	**105**
33	دعوى مهمة تحضير الشعوب والغزو الثقافي	**112**
34	**الباب الثالث: رواية "قلب الظلام" وسرد الاستعمار البلجيكي في الكونغو**	**117**
35	**الفصل الأول: تاريخ بلاد الكونغو في العصر الحديث وزحف الاستعمار الأوروبي إليها**	**118**
36	الكونغو في العهد القديم	**121**
37	الاستعمار البرتغالي لأفريقيا الوسطى	**123**
38	**الفصل الثاني: التكالب على أفريقيا في القرن التاسع عشر ومؤتمر برلين وقيام دولة الكونغو**	**131**
39	مؤتمر برلين وقيام دولة الكونغو الحرة	**136**
40	**الفصل الثالث:دولة الكونغو الحرة ومظالم المستعمرين في الكونغو حتى الاستقلال**	**140**
41	مظالم حكم الملك ليوبولد الثاني في الكونغو وتقارير الكتاب	**144**

	والناشطين الحقوقيين	
42	"المطاط الأحمر"	**146**
43	حركة الإصلاح البلجيكي وتحول الكونغو إلى مستعمرة بلجيكية حتى استقلال البلاد	**147**
44	من مستعمرة بلجيكية عام 1908 حتى الاستقلال	**148**
45	**الفصل الرابع: رواية "قلب الظلام" وسرد الاستعمار الأوروبي البلجيكي في الكونغو**	**150**
46	رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد	**152**
47	رواية "قلب الظلام" وتجربة جوزيف كونراد الذاتية في الكونغو	**155**
48	سرد الاستعمار البلجليكي لبلاد الكونغو في رواية "قلب الظلام	**161**
49	مؤتمر برلين والتكالب على أفريقيا والرمز إليها في الرواية	**163**
50	**الفصل الخامس: سرد الإمبراطورية وفكرة تحضير الشعوب في الرواية**	**168**
51	أوروبا كلها ساهمت في خلق بطل الرواية "كورتز"	**172**

52	فكرة تحضير الشعب أو فكرة الاستعمار	173
53	سرد المظالم ضد الشعب الكونغولي في عهد الاستعمار البلجيكي في الرواية	175
54	**الباب الرابع: دراسة مقارنة بين الروايتين في سرد الاستعمار والإمبراطورية والصراع الحضاري والثقافي ومناقشة الجمع بين النقيضين**	179
55	**الفصل الأول: سرد الاستعمار الأوروبي والإمبراطورية في الروايتين**	181
56	العنصر الزمكاني في الروايتين وسرد الاستعمار الأوروبي	184
57	المؤسسات الاستعمارية وسردها في الروايتين	188
58	**الفصل الثاني: مقارنة بين الروايتين في دعوى المستعمرين لتحضير الشعوب وقضية الاستشراق والصراع الحضاري**	195
59	مقارنة في الاستشراق والصراع الحضاري	202
60	**الفصل الثالث: مقارنة في مناقشة التناقض في الروايتين وآراء النقاد فيها**	220

61	**الفصل الرابع: الأساليب الكتابية والأدبية والتقنيات السردية والفنية في الروايتين والمقارنة بينهما**	**235**
62	تأثر الطيب صالح بجوزيف كونراد في بناء الشكل الفني للرواية	**236**
63	رسم وتصوير الشخصيات في الروايتين	**238**
64	استخدامهما لتقنيات السرد الحديثة	**240**
65	الأسلوب الأدبي والتصوير الفني في الروايتين	**244**
66	**الخاتمة**	**247**
67	**المصادر والمراجع**	**252**
68	**محتويات البحث**	**261**

Ph.D. Thesis

الصراع بين الشرق والغرب وسرد الإمبراطورية ومناقشة الجمع بين النقيضين: دراسة مقارنة تحليلية بين "قلب الظلام" لجوزيف كونراد و"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح

(Al-Sirao bain al-Sharaq wa al-Gharab wa Sardu al-Imbaraturiyate wa Munaqashatu al-Jamae bain al-naqeezain: Dirasa Muqarana Tahliliyah baina Qalb al-Zalam li Joseph Conrad wa Mausam al-Hijra ila Shimal li Tayeb Salih)

East West Encounter; Narrating Empire and Debating Ambivalence: An Analytical Comparative Study of Joseph Conrad's "Heart of Darkness" and Tayeb Salih's "Season of Migration to the North"

Prepared by

Mohammad Salim

Under the Supervision of

Prof. Mujeebur Rahman

Centre of Arabic and African studies

School of language, literature & culture studies

Jawaharlal Nehru University

New Delhi-67

July 2017